

غفران الذنوب

فلسفة الغفران في المسيحية

عوض سمعان

غفران الذنوب

فلسفة الغفران فى المسيحية

عوض سمعان

غفران الذنوب – فلسفة الغفران في المسيحية

تأليف : عوض سمعان

اسم الناشر : دار الإخوة للنشر

يُطلب من : مكتبة الإخوة ٣ ش أنجه هانم – شبرا مصر ت: ٥٧٩٢٢٨٤

بريد الكتروني : brethren_pub@writeme.com

وفروعها : مصر الجديدة : ٦٥ ش نخلة المطيعى – تريومف ت: ٢٩٠٤٠٠٣

الإسكندرية : ٦ ش الفسطاط – كليوباترا ت: ٥٤٦٥٣٦٦

المنيـــا : ٦ ش الجيش ت: ٢٣٦٤٤٠٦

أسيـــوط : ٢١ ش عبد الخالق ثروت ت: ٢٣٤٢٠٢٨

ومن المكتبات المسيحية الكبرى

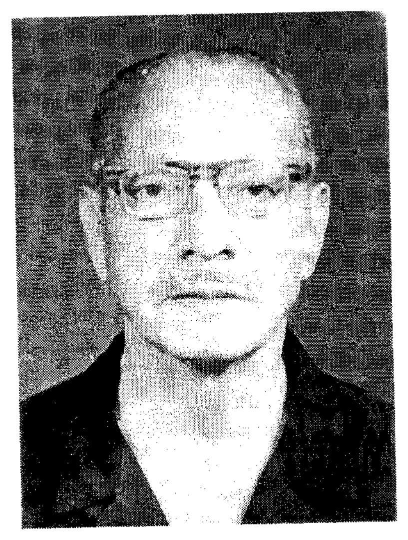
طبع بمطبعة الإخوة بجزيرة بدران

Printed in Egypt

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٢٣٠٤

الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977-321-019-7

نبذة عن حياة الكاتب



الأخ / عوض سمعان

لقد امتلأت المكتبات المسيحية فى القرن الأخير بالكتب العظيمة والعميقة التى أنتجتها أقلام رجال هم بحق مواهب فذة من عطايا المسيح لكنيسته.

لكننا مع هذا لا نعتبرها مبالغة البتة، إذا قلنا إنه بين كل هذه المواهب والكتب يقف **الأخ / عوض سمعان** بكتبه متميزاً ومتفرداً فلم يكن أبداً فى كتاباته ناقلاً أو مقلداً أو حتى تقليدياً بل كان صاحب أسلوب مميز ومنهج خاص فى الكتابة ميزه عن الآخرين، ولم يكن تميزه نابع فقط من أسلوبه الفلسفى العميق أو من قوة حجته وقدرته على الإقناع فربما شاركه فى هذه السمات آخرون، بل كان ينبع من ثقافة واسعة نتجت عن جهد عظيم بذله فى الإطلاع على ما حوته أمهات الكتب فى نواحى الفلسفة المختلفة سواء المعاصرة أو الماضية كما تعمق بشدة فى دراسة الديانات المختلفة لدرجة أبهرت الكثيرين. وإن دل هذا على شئ إنما يدل على احترامه الكبير لعقل قارئه ولذا جاءت دائماً كتبه تحوى الجواب الشافى لحيرة المفكرين المخلصين، واستعملها الكثيرون كمصادر للبحوث فى كليات الآداب بالجامعات المصرية.

ولقد ولد الأخ الفاضل فى ١٨ أكتوبر ١٩٠٨ وحصل على دبلومة المعلمين العليا سنة ١٩٢٧ من القاهرة وعمل مباشرة مدرساً للغة الإنجليزية والتى أتقنها ببراعة، ولقد تعرّف على الرب فى شبابه الباكر ومنذ أن اختبر الخلاص اشتعل قلبه وعقله برغبة معرفة الكتاب. فلم يكتف بقراءة الكتاب مرات عديدة (زادت عن المائة) بل اجتهد فى درس اللغات اليونانية والعبرية والقبطية حتى تعلمهم لتساعده فى فهم المعانى العميقة للكتاب، ومنذ تعرفه على الرب أيضاً ظل يخدم بإخلاص فى الكنيسة الأرثوذكسية ثم بعد ذلك فى بعض الطوائف المسيحية إلى أن اشترك على مائدة الرب فى اجتماع الإخوة بجزيرة بدران.

ولقد كان - كباقى العلماء - يتسم بالجدية والصلابة ويؤثر الوحدة والصمت وكان له مقولة يرددها : "إذا كانت الكلمة تكفى فلا داعى للكلمتين، وإن كانت الإشارة تكفى فلا داعى للكلمة، وإن كان الصمت يكفى فلا داعى للإشارة" على أن هذه الجدية لم تتحول يوماً إلى تجهم ولا حبه للوحدة تحول يوماً إلى إنعزالية بل كان مرحاً لماحاً محبوباً من الشباب والصغار ينجذبون بشدة لحديثه ويحبون عشرته فى مخيمات الشباب والشابات والتى كان لا يتأخر عن الخدمة فيها. عند بلوغه سن الخمسين ترك عمله الزمنى وتفرغ للقراءة والكتابة والخدمة بكل اجتهاد واتضاع حتى رحل فى ٢٨ يناير ١٩٨٥ تاركاً وراءه كنزاً عظيماً من الكتب العميقة وسيرة عطرة بين كل إخوته وأحباءه الذين عاشروه.

تقديـــم

يسر ***لجنة النشر بكنائس الإخوة*** أن تقدم للقارئ الجاد طبعة جديدة لإحدى روائع الكاتب والفيلسوف المسيحى الفاضل عوض سمعان.

إلا أن هذه الطبعة ليست تكراراً لسابقتها إذ أنها حظيت بكونها آخر ما تناوله قلم الكاتب - قبيل رحيله - بالتنقيح والتوضيح والإضافة ليجعل هذا الكتاب أكثر فائدة لمن يقرأه لأول مرة وأكثر عمقاً لمن قرأه من قبل.

والكتاب عبارة عن بحث فلسفى عميق المعانى، قوى الحجة فى المسألة التى شغلت كل البشر على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم فى مختلف العصور والأوساط ألا وهى غفران الخطايا.

فالشعور بالذنب هو علة معظم الأمراض النفسية بل ويمكن أن يقف بمفرده معلناً زعامته لأسباب تعاسة البشرية. فمنذ أن يعى الإنسان نفسه ودنياه وهو لا ينفك يلحظ ذنوبه وخطاياه ويظل يستشعر فى أعماقه تلك الوخزات المؤلمة من ضميره والتى تتحول مع الزمن لمسافة شاسعة تفصله عن خالقه بل وتخيفه منه. وعندئذ إما أن يهرب الإنسان من هذه الوخزات لهموم الحياة أو لهوها، أو يقف مع نفسه متسائلاً ما هو السبيل لأكفِّر عن ذنبى؟ وكيف أزيح عن كاهلى الشعور بخطيتى؟

ولقد طرح الكاتب كل السبل التى أوجدها وحددها وقبلها الذهن البشرى كطرق لغفران الذنوب. وعلى الرغم من كثرة هذه الطرق وتشعب مسالكها إلا أن الكاتب خاض دروبها وبحنكة وثقة العالم المثقف وأمانة ونزاهة الخادم المسيحى، ليوضح فى النهاية للقارئ المخلص والباحث الجاد ما هو الطريق الصحيح الذى يكشفه الإعلان المقدس ويقبله العقل المفكِّر لغفران الذنوب.

وقبل أن يصل هذا الكتاب ليد قارئنا العزيز نحن نستودعه ليد العليم الحكيم والمحب العظيم القادر وحده على هداية النفس البشرية لما فيه خيرها وبركتها الأبدية.

لجنة النشر

مقدمة

إن أعظم أمنية يتطلع إليها المؤمنون بالله فى كل دين من الأديان، هى الحصول على الغفران. لذلك نرى داود النبى، مثلاً، يرنم قائلاً «طوبى للذى غفر إثمه وسُترت خطيته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية» (مزمور ٣٢:١).

لكن مما يؤسف له أن معظم هؤلاء المؤمنين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً من جهة السبيل إلى الغفران. فيقول فريق منهم إنه يكون بالصلاة والصوم، ويقول فريق آخر إنه يكون بالتوبة والصدقة، ويقول فريق غيره إنه يكون بشفاعة القديسين والصالحين، أو بهذه الوسائل مجتمعة. ومما زاد الموقف غموضاً وتعقيداً لديهم، أن الذين يقومون منهم بهذه الأعمال بكل دقة وإخلاص، لا يثقون أنهم حصلوا على الغفران الذى ينشدونه. فإذا سألنا واحداً منهم : هل يثق أن الله غفر كل خطاياه؟ أجابنا بالقول : إن الثقة بذلك هى من باب الرجم بالغيب، لكنه يقوم بالأعمال المذكورة، عسى أن يغفر الله له ..

والآن لنسأل أنفسنا سؤالين :

الأول : هل يمكن أن يضع الله أكثر من سبيل واحد للغفران؟

والثانى : هل يليق بكماله تعالى أن يتركنا طوال وجودنا على الأرض فى شك من جهة الصفح عن خطايانا؟ والإجابة عن هذين السؤالين هى طبعاً : كلا وكلا.

ولما كان الأمر كذلك، درس الكاتب السُبل السابق ذكرها فى ما استطاع الحصول عليه من كتب القائلين بها، كما درس السبيل الذى أعلن الكتاب المقدس أنه يضمن للسالكين فيه الحصول على الغفران التام منذ الآن، فأسفرت الدراسة عن إصدار هذا الكتاب. وهو إذ يضعه بين يدى الله، يرجو أن يرافقه بنعمته لأجل مجده وخير الراغبين فى غفرانه.

المؤلف

الباب الأول

الخطيئة

- الخطيئة وماهيتها
- الخطيئة وتسربها إلى البشر
- الخطيئة وتأثيرها بالنسبة إلى الله
- الخطيئة وتأثيرها بالنسبة إلى البشر
- الخطيئة والآلام الذاتية الأبدية
- الخطيئة والعقوبة الإلهية الأبدية

(١)

الخطيئة وماهيتها

اختلف الناس فى أمر الخطيئة لاختلاف أفكارهم وميولهم، فلكى نتحقق من ماهيتها، دعنا نفكر على سبيل المثال فى العبارة المألوفة «أخطأ الهدف»، فما معناها؟ طبعاً معناها: «لم يصب الهدف أو انحرف عنه» - فمن هذه العبارة يتضح لنا أن الخطيئة ليست هى الشر الشنيع فحسب كما يظن بعض الناس، بل إنها أيضاً الانحراف عن حق الله بوصفه القاعدة التى وضعها تعالى لسلوكنا فى العالم الحاضر. ولما كان حق الله ينهى عن الشر ويأمر بالخير. لذلك فالخطيئة لا تكون بالانحراف إلى الشر فحسب، بل وبالانحراف عن الخير أيضاً.

أما قول السفسطائيين "ليس هناك خيرأو شر، وأن ما يراه الإنسان خيراً فهو خير، وأن ما يراه شراً فهو شر"، فلا نصيب له من الصواب. لأن ما يراه إنسان شراً قد يراه آخر خيراً، والشئ الواحد لا يكون شراً وخيراً، وإلا لما كان هناك مقياس للأخلاق أو قانون لمعاقبة المجرمين، ولسادت الفوضى كل العالم تبعاً لذلك .. نعم إن الصدق، مثلاً، قد يعود علينا أحياناً فى العالم الحاضر بالخسارة، وأن الكذب قد يعود علينا فيه بالربح، لكن مع ذلك يظل الصدق خيراً والكذب شراً، لأن الخير لا يقاس بما نحصل عليه من ربح، والشر لا يُقاس بما نتعرض له من خسارة، إذ أن الخير والشر يُقاسان بالنسبة إلى الكمال، والكمال لا شأن له بالربح أو الخسارة - وحقاً لقد صدق «ڤولتير» فى قوله :"الواجب واحد فى كل مكان، سواء على أعتاب عرش الله، أو فى قرار الهوة السحيقة". ومن ثم فالحكم على تصرفاتنا لا يكون لشعورنا (أو ضمائرنا، كما يقول بعض الناس)، بل لكلمة الله دون سواها، لأن هذه ثابتة وراسخة إلى الأبد.

١ـ الانحراف إلى الشر :

بما أن الله روح*، والروح لا يتعامل إلا مع عنصر روحى يتناسب معه، إذاً فعلاقة الله بنا وعلاقتنا به لا تكون عن طريق أجسادنا بل عن طريق أرواحنا. ومن ثم إذا انحرفت روح إنسان منا

* إننا بقولنا إن «الله روح» لا نعنى أنه روح مثل الأرواح، بل نعنى أنه مُنزه عن الجسدانية، ولا يُدرَك بالحواس البشرية.

عن قداسة الله، يكون قد أخطأ إليه حتى إذا لم يظهر هذا الانحراف فى عمل خارجى. ولا مجال للاعتراض على ذلك، لأن من يشتهى، مثلاً، مال غيره، يكون فى الواقع لصاً. إذ أن شخصاً مثله لا يمنعه من السرقة كراهيته لها، بل خوفه من عقوبة القانون أو احتقار الناس له. فإذا وثق أنه لا يتعرض لهذا أو ذاك، لما تردد فى سرقة ما اشتهاه، لذلك قال الوحى : «لا تشته بيت قريبك، ولا شيئاً مما لقريبك» (خروج ٢٠:٧).

ولما كانت الخطيئة هى مجرد الانحراف الباطنى إلى الشر كما ذكرنا، قال الوحى أيضاً : «فكر الحماقة خطيئة» (أمثال ٢٤:٩). و «من يبغض أخاه * فهو قاتل نفس» (١يوحنا ٣:١٥). و «من نظر إلى امرأة ليشتهيها. فقد زنى بها فى قلبه» (متى ٥:٢٨). و «من قال يا أحمق. يستوجب نار جهنم» (متى ٥:٢٢). و «كل كلمة بطّالة ** يتكلم بها الناس. سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين» (متى ١٢:٣٦). كما نهانا عن الكذب والسكر والغضب، والمكر والرياء والحسد، والربا والسحر والطمع (أفسس ٤:٢٥ ـ ٣١، ٥:٤، ١بطرس ٢:١، مزمور ١٥:٥، رؤيا ٢١:٨). حتى نكون قديسين كما أنه تعالى قدوس (١بطرس ١:١٥)، إذ بدون القداسة، أو بالحرى التنزه عن النقائص، لن يرى أحد الرب (عبرانيين ١٢:١٤).

وقد عرف الأنبياء شر الخطايا الباطنية، ولذلك صرخ مرة أحدهم لله قائلاً : «من الخطايا المستترة أبرئنى» (مزمور ١٩:١٢). كما قال له : «اختبرنى يا الله واعرف قلبى. امتحنى واعرف أفكارى. وانظر إن كان فىّ طريق باطل. واهدنى طريقاً أبدياً» (مزمور ١٣٩:٢٣)، لأن الإنسان قد يجهل بعض أفكار الشر التى تجول فى نفسه أو لا يحسب لها حساباً، وتكون النتيجة النهائية أنه يرى نفسه دون أن يدرى، بعيداً عن الله بعداً عظيماً.

٢ ـ الانحراف عن الخير :

وهذا الانحراف يشمل الأمور التالية :

(ا) التقصير فى عمل الخير : بما أن الله، كما أنه قدوس يكره الشر، هو أيضاً صالح يحب الخير، لذلك فمن أراد أن يحيا حياة التوافق مع الله أو بالحرى حياة البعد عن الخطيئة، يجب أن لا يمتنع عن الشر فحسب، بل وأن يفعل الخير أيضاً. ولا مجال للاعتراض على ذلك، لأن

---

* لا يراد بالقريب والأخ هنا، من تربطنا بهما رابطة عائلية، بل يُراد بهما الشريك لنا فى الإنسانية، كما يتضح من لوقا ١٠:٢٥ ـ ٢٧.

** «الكلمة البطّالة» لا يراد بها الكلمة البذيئة فحسب كما يظن بعض الناس، بل يراد بها ما هو أدق من هذا المعنى، إذ يراد بها أيضاً الكلمة العاطلة أو بالحرى التى لا تؤدى عملاً نافعاً، لأنها مشتقة من البِطالة (بكسر الباء) والبِطالة عدم العمل.

من لا يعطف على الفقير أو يمتنع عن مساعدة المسكين، يكون بعيداً عن الله، ومن ثم يكون خاطئاً حتى إذا لم يفعل شراً من الشرور السابق ذكرها. لذلك قال الوحى لنا : «من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطيئة له» (يعقوب ٤:١٧). كما قال «اعملوا الخير مع الجميع» (غلاطية ٦ : ١٠).

(ب) **القيام بأعمال الخير لأغراض شخصية** : بما أن الذين يعملون الخير للحصول على ثواب من الله أو مديح من الناس، يسعون فى الواقع وراء منفعتهم الشخصية. وأن الذين يقومون بالوعظ والإشاد للحصول على نصيب من المال أو لنشر تعليم خاص، لا يهتمون فى الواقع بجوهر الدين الذى هو العلاقة الروحية بين الإنسان وبين الله، بل بالمظهر الخارجى للدين فحسب، حتى يكون لهم مركز مرموق فى العالم الحاضر. إذاً فأعمال الخير والوعظ التى لا تعمل بدافع المحبة وحدها، ولأجل مجد الله وخير الناس فحسب، تكون أعمالاً تجارية أو مصلحية. ومن ثم لا يكون فاعلوها قد أتوا خيراً أمام الله، وبالتبعية لا يكونون أبراراً أمامه.

ولذلك قال الوحى : أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم*، واقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين (متى ٥:٤٣ ـ ٤٥، لوقا ٦:٣٥). وقال : وأما أنتم فمتى صنعتم صدقة فلا تعرّفوا شمالكم ما تفعل يمينكم. لكى تكون صدقتكم فى الخفاء. فأبوكم الذى يرى فى الخفاء هو يجازيكم علانية (مت ٦:١ ـ ٤). فضلاً عن ذلك، سجّل لنا أن المسيح سيخاطب المتظاهرين بخدمته، الذين سينادونه فى اليوم الأخير قائلين «يارب يارب، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين [1]»، بالرد الحازم القاطع «إنى لم أعرفكم قط. اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم» (متى ٧:٢٢ ـ ٣٣). ولقد أدرك أفلاطون قديماً شيئاً عن هذه الحقيقة فقال «الفضيلة ليست هى عمل الحق فحسب، بل عمله على أساس صحيح».

(جـ) **حصـر اهتمام النفس فى العالم الحـاضر** : إن السعى وراء العيش وتحصيل المال اللازم لنا فى هذا العالم، أمر واجب طالما نحن نحيا فيه. لكن إذا طغى هذا السعى على النفس وصرفها عن الصلة بالله والتوافق معه، كان ذلك دليلاً على انحرافها عنه، أو بالحرى على عدم ثقتها فيه وتقديرها لفضله عليها، ومن ثم يكون السعى المذكور خطيئة أيضاً. لذلك

---

* وطبعاً ليس خوفاً منهم، بل مشاركة لله فى عطفه عليهم، حتى يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إليه طالبين عفوه وغفرانه.

قال الوحى : إن الناسين الله أشخاص أشرار مآلهم الهاوية مثل الخطاة سواء بسواء (مز ٩:١٧). كما قال «إن محبة العالم (أو بالحرى الانصراف إليه) عداوة لله» (يعقوب ٤:٤)، لأن كل ما فى العالم «شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة» (١يوحنا ٢:١٦). ومن الناحية الأخرى أوصانا قائلاً «تُحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك *» (لوقا ١٩:٢٥) . ولا مغالاة فى هذه الوصية على الإطلاق، فالله هو خالقنا وصاحب الفضل علينا، ومن الواجب أن يكون له المقام الأول فى حياتنا. كما أن المحبة له، إن لم تكن من كل القلب ومن كل النفس ومن كل القدرة ومن كل الفكر، لا تكون محبة كاملة، والمحبة غير الكاملة لا تليق بالله. لذلك قال داود النبى له «وحّد قلبى لخوف اسمك»، «أنت سيدى خيرى لا شئ غيرك» (مزمور ٨٦:١١ ، ١٦:٢).

٣ ـ مستوانا الروحى فى ضوء الله :

(ا) إن الخاطئ (فى نظر الله) ليس من يعمل خطايا كثيرة فحسب، بل ومن يعمل أيضاً خطيئة واحدة (سواء أكانت بالفعل أم القول أم الفكر)، فقد قال الوحى «من حفظ كل الناموس، وإنما عثر فى واحدة، فقد صار مجرماً فى الكل. لأن من قال لا تزن، قال أيضاً لا تقتل. فإن لم تزن لكن قتلت، فقد صرت متعدياً للناموس» (يعقوب ٢:١٠ و ١١). ولذلك لأجل خطيئة واحدة طرح الله بعض الملائكة من السماء (٢بطرس ٢:٤)، ولأجل خطيئة واحدة طرد آدم وحواء من جنة عدن (تكوين ٣:٢٤)، ولأجل خطيئة واحدة حرم موسى النبى من دخول أرض كنعان (تث ٣٢:٥٠)، ولأجل خطيئة واحدة أمات حنانيا وسفيرة فى الحال (أعمال ٥:١ ـ ١١) . وقد أدرك الكلبيون أتباع سقراط هذه الحقيقة ولذلك قالوا "الإنسان إما يكون فاضلاً إلى النهاية أو لا يكون. كالخط، إما أن يكون مستقيماً، أو غير مستقيم، ولا وسط بين الإثنين".

(ب) فضلاً عما تقدم فإن الخطيئة تُحسب (فى نظر الله) خطيئة، ليس فقط إذا كان فاعلها يشعر بها، بل وإذا كان لا يشعر بها كذلك. فقد قال الوحى : «ولا تقل .. إنه سهو» (جامعة ٥:٦)، لأن السهو دليل على عدم السلوك بالكمال، وعدم السلوك بالكمال خطيئة كما سبق القول. ولا غرابة فى ذلك، فنحن نعلم أن مخالفة القانون بسبب الجهل أو السهو لا ينجى المخطئ من القصاص، إذ المفروض فى كل المواطنين، بل وحتى فى الغرباء الساكنين بينهم، أن

---

* محبة لله، وإن لم تكن عين الطاعة له، بل هى الشوق القلبى إليه، والحنين المقدس للوجود فى معيته، لكنها تقودنا طبعاً للطاعة له. والطاعة له فى هذه الحالة لا تكون عن خوف ورعب مثل طاعة العبيد لسيدهم القاسى، بل تكون عن حب وإخلاص مثل طاعة الأبناء لأبيهم البار بهم.

يكونوا عارفين بقوانين البلاد وحريصين على تنفيذها، ولذلك كانت للمواطنين والغرباء شريعة واحدة (تكوين ١٧:١٢، خروج ١٢:٤٩، لاويين ٢٤:٢٢).

مما تقدم يتضح لنا أن الإنسان مهما بلغ أسمى درجات الأخلاق الكريمة وقام بالواجبات الدينية خير قيام، لكن انحرف مرة عن الله بالفعل أو القول أو الفكر، يكون خاطئاً. وإذا عاش دون أن ينحرف هذا الانحراف، لكن لم يعمل كل الصلاح الذى يستطيع القيام به بالحالة التى تتوافق مع كمال الله، يكون أيضاً خاطئاً. وإذا عمل كل الصلاح الذى يستطيع القيام به بالحالة المذكورة، لكن أخطأ مرة واحدة سهواً، يكون خاطئاً أيضاً - فإذا نظرنا إلى أنفسنا فى ضوء هذه الحقائق، نرى أننا نأتى خطايا لا حصر لها دون أن نحسب لها حساباً، ظناً منا أنها صغائر لا يقيم الله لها وزناً، لكنها فى الواقع ذنوب ومعاص فى نظره تعالى. ولذلك قال الوحى عن الإنسان عامة «إن تصوّر أفكار قلبه، إنما هو شرير كل يوم» (تكوين ٦:٥)، وإن قلبه (أو بالحرى موطن الشعور والعواطف فيه) أخدع من كل شئ وهو نجيس (إرميا ١٧:٩)، وإن «من القلب تخرج أفكار شريرة، قتل زنا، فسق، سرقة، شهادة زور، تجديف» (مر ٧:٢١)، و «إن كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح وأحباط* وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت» (إشعياء ١:٦)، أى أن الخطيئة ضربت أطنابها فى الإنسان حتى أفسدت كيانه بأسره. ولقد أدرك ڤولتير شيئاً من هذه الحقيقة، فقال : "كلما رسمت لنفسى صورة الإنسان، خيّل إلىّ أنه شيطان".

***

أما الاعتراضات التى توجّه ضد الحقائق السالفة، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ - أليس عدم التفرقة بين الصغائر وبين الكبائر، يشجع الناس على ارتكاب الكبائر؟.

الرد : إن الذين يهمهم إرضاء الله، يمتنعون عن الصغائر كما يمتنعون عن الكبائر. أما الذين لا يبالون بإرضائه، فلا يتركون الكبائر، حتى ولو سلّم الله لهم بوجود صغائر وكبائر، ولذلك لا مجال لهذا الاعتراض.

٢ - هل من العدالة أن يضع الله أمامنا مقياساً عالياً للقداسة، ثم يعاقبنا لعدم استطاعتنا بلوغه؟

الرد : نظراً لأن السبيل الوحيد للتمتع بالله هو التوافق معه فى صفاته. وبما أنه تعالى قدوس كل القداسة، لذلك إذا أردنا التمتع به يجب أن نكون قديسين فى كل سيرة (١بطرس ١:١٥). ومن

* الأحباط هى الجروح التى تنشأ من السحق، والمراد هنا الخطيئة التى تدمر نفوس البشر وتسحقها.

[illegible] يجب علينا الارتقاء إليه. بل وضع أمامنا المستوى القانونى الذى يجب أن نحيا فيه فى كل حين. ومع كلٍ فعندما نشعر بعجزنا عن بلوغ هذا المستوى، يتنازل الله بنعمته لكى يرفعنا إليه، إذا وجد فينا الرغبة الخالصة لذلك، كما سيتضح بالتفصيل فى الباب السادس، ومن ثم لا مجال لهذا الاعتراض أيضاً.

٣ ــ إن القول بأن الإنسان كله شر، لا يتفق مع الصواب، إذ الواقع يدل على أن به الكثير من الصفات النبيلة.

الرد : نظراً لأن الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله كشبهه (تكوين ١:٢٦)*، لذلك كان من البديهى أن يظل فيه، حتى بعد سقوطه فى الخطيئة، شئ من الصفات النبيلة مثل المروءة والشهامة والعطف على المساكين والمحتاجين. لكن طالما أنه منحرف عن كمال الله وقداسته، فإنه كثيراً ما يمارس هذه الصفات، إما لأنه أحسّ مرة بقسوة الظروف عليه، فأراد أن يزيح شبحها من أمامه. أو لأنه يخشى أن لا يعطف عليه أحد، إذا وقع هو فى أزمة أو ضائقة. أو لكى يشبع رغبة كامنة فى نفسه تدعوه لأن يبدو عظيماً أو صالحاً على نحو ما. أو لكى يكفِّر (حسب زعمه) عن شر ارتكبه حتى تكون له الحظوى لدى الله ـ الأمر الذى يجعل أعماله المذكورة مشوبة بنقائص عدّة. ومع كل فالإنسان الخاطئ وإن كان يتصرف بشئ من الصفات النبيلة، لكنه مع ذلك كثيراً ما يأتى الرذائل والموبقات الشنيعة، ومن ثم لا يكون باراً أو مستقيماً أمام الله.

٤ ــ إن المسيحية بقولها إن الإنسان خاطئ بجملته تحط من قدره. كما تجعله فريسة للشر والإثم.

الرد : إن المسيحية لا تجعل الإنسان فريسة للشر والإثم، لأنها تعلن أنه هو الذى يعمل الخطيئة بمحض إرادته. فضلاً عن ذلك فإنها لا تحط من قدره، بل تعلن له حقيقة أمره فى ضوء الله، حتى لا يعتقد أنه قريب منه، ويكون فى الواقع بعيداً عنه. كما أن المسيحية على العكس مما يظن المعترض، تعلن أن الإنسان مخلوق فى أول الأمر على صورة الله كشبهه، ومن ثم فهناك أصل للصلاح فى نفسه كما ذكرنا، وهذا الأصل هو الذى يجعله قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر. فإذا سعى بإخلاص نحو الحق والخير، رفعه الله فوق ما به من نقائص، كما سيتضح فى الباب السابع.

---

* المراد بذلك أن الله خلق الإنسان بمؤهلات روحية تجعله قادراً على التوافق معه تعالى فى صفاته الأدبية السامية .. وقد عرف هذه الحقيقة كثير من المفكرين. فمثلاً قال دكتور الكسندر هدلى : "إن الله خلق الإنسان على صورته لكى يبادله حباً بحب، لأن الله محبة" وإذا كان الأمر كذلك، فإن إنسانية الإنسان تقوم أولاً وأخيراً على توافقه مع الله. فإذا انحرف عنه، حرم نفسه من الإنسانية بكل مميزاتها.

(٢)

الخطيئة وتسربها إلى البشر عامة

١ـ الحالة التى يولد بها البشر :

يقول الرواقيون* والبيلاجيوسيون** : "إن الإنسان يولد بريئاً، مثله فى ذلك مثل آدم قبل السقوط فى الخطيئة، إنما أعماله هى التى تكوّن صفاته. لأنه لو كان قد ولد فاسداً، لكانت حياته بأسرها حياة الشر والإجرام".

ويقول الأرمينيوسيون # : "إن الإنسان وإن كان يولد بريئاً، لكن يكمن فى طبيعته قصور يحول بينه وبين السلوك بالكمال، وهذا هو السبب فى ارتكابه الشر فى بعض الأحيان".

ويقول جان جاك روسو وڤولتير وشارل فوربيه وغيرهم، فى العصر الحديث، "إن الإنسان يولد كاملاً (أى ليس بريئاً فحسب، بل وكاملاً أيضاً)، إنما إذا عاش فى بيئة شريرة يتسرب إليه الشر منها. فالخطيئة إذاً ليست أصلية فيه بل طارئة عليه، ومن ثم من الممكن إزالتها بالتنوير والتعليم".

والرأى الأول ليس بصواب لأن أعمال الإنسان لا تكوّن صفاته، بل تصدر عنها. إذ أن الإنسان لا يكون قاتلاً (مثلاً) فى الظاهر، إلا إذا كان يميل إلى القسوة والانتقام فى الباطن. وإذا كان الأمر كذلك، فصفات الإنسان سابقة لأعماله وليست لاحقة لها، ومن ثم يكون خاطئاً بالقوة قبل أن يكون خاطئاً بالفعل. كما أن عدم ارتكاب كل إنسان شروراً شنيعة، ليس دليلاً على أن البشر يولدون أبرياء، لأن الخطيئة ليست هى الشر الشنيع فحسب، بل إنها أيضاً مجرّد انحراف النفس إلى الشر أو انحرافها عن الخير، كما ذكرنا فى الفصل السابق.

---

* هم أتباع زينو الفيلسوف اليونانى، وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى الرواق الذى كانوا يجتمعون فيه، فى القرن الرابع قبل الميلاد.

** هم أتباع بيلاجس الذى ظهر فى انجلترا فى القرن الخامس.

هم أتباع أرمينيوس الذى ظهر فى هولندا فى القرن السادس عشر.

والرأى الثانى ليس بصواب أيضاً، لأنه ليس من المعقول أن يكون فى طبيعتنا قصور يحول بيننا وبين السلوك بالكمال، ونكون أبرياء كل البراءة. بل لابد أننا نولد وفى طبيعتنا ميل إلى الخطيئة، لأنه لا يمكن أن نفعلها إلا إذا كان فينا ميل إليها، إذ أن لكل معلول علة ولكل عمل سبب.

والرأى الثالث ليس بصواب كذلك، لأن البيئة الشريرة وإن كان لها تأثير عظيم على الإنسان، لكن ليست هى التى تُولِّد الشر فيه. والدليل على ذلك أن الأطفال الذين لا يعرفون بعد شيئاً عن الحياة الدنيا، كثيراً ما تبدو عليهم أمارات الأنانية والكبرياء ومحبة الذات، والحسد والطمع والعناد. كما أنهم كثيراً ما يسطون على ممتلكات الغير ويتشاجرون معهم مدفوعين فى ذلك كله بغرائز * كامنة فى نفوسهم. وطبعاً لا عبرة بالقول إن تصرفات الأطفال المذكورة هى مجرد نقائص، أو أن الأطفال لا يدركون أن تصرفاتهم هذه، هى خطايا، لأن النقائص خطايا، وعدم إدراك الخطايا لا يقلل من كونها خطايا.

وإذا كان الأمر كذلك، اتضح لنا أن الإنسان يولد وبه ميل إلى الخطيئة، وهذا الميل وإن كان لا يبدو بوضوح فى الصغر، غير أنه يأخذ فى الظهور كلما شب الإنسان ونما. فمثل هذا الميل مثل السم الكامن فى الثعبان، فإنه لا يرد إليه من الخارج، بل إن الثعبان يولد وفى جسمه استعداد لتكوينه. وكل ما فى الأمر، أن هذا السم لا يظهر بنتائجه المميتة، إلا إذا بلغ الثعبان سناً معينة.

ومما يؤيد صدق هذا الاستنتاج :

أولاً: أن الذين قالوا بسلامة الفطرة الإنسانية وكمالها، وبذلوا كل ما لديهم من جهد لتحسين حالة الفقراء والبؤساء، لاقوا من أولئك وهؤلاء الكثير من المتاعب والمضايقات، ومن ثم خابت آمالهم الطيبة من جهتهم جميعاً خيبة ليس بعدها خيبة. كما حدث مع سان سيمون وروبرت أوين وغيرهما.

ثانياً: إن التعليم لا يستأصل الخطية من نفس الإنسان، بل يعمل فقط على إخفاء بعض مظاهرها الشنيعة. والدليل على ذلك أن المتعلمين يفعلونها كما يفعلها غيرهم سواء بسواء، وكل ما فى الأمر أنهم يستترون بفعلها وراء أسماء مفتعلة مثل المدنية أو الحرية أو المصلحة الذاتية أو الحكمة البشرية. ومن ثم يكون مثلهم مثل القبور التى تحيطها الأزهار والرياحين، بينما لا يوجد فى باطنها إلا العفونة التى لا تُطاق.

* الغريزة فى ذاتها ليست خطيئة لأن الله الذى أودعها فى الإنسان لأجل خيره فى العالم الحاضر، إنما الخطيئة هى استخدام الغريزة فى غير ما أودعها الله لأجله.

هذا وقد أدرك كثير من الفلاسفة أن فى الإنسان ميلاً للشر يسيطر على كيانه بأسره، فقال أرسطو "إن أكثر أعمال الإنسان محكومة بالعواطف والشهوات. لذلك فإنه يقع فى خطأ مهما علم العقل بضرره. فالإنسان يفكر جيداً ويرشده فكره إلى الصواب، لكن تتغلب عليه شهوته (الكامنة فيه) فتغويه". وقال سانت هيلير "ليس ما يقع فيه الإنسان من إثم ناشئاً عن خطأ فى الموازنة بين اللذة الحاضرة والآلام المستقبلة، ولا ناشئاً عن جهل بطبيعة الأشياء. إنما منشؤه فساد فى الخلق يحمل الإنسان إلى تفضيل الشر على الخير، وهو عالم بهما وبنتائج كل منهما. فإن الشرير لا يجهل البتة ما يفعله من سوء بل يشعر به وبما يلحقه من خسران بسببه، ومع ذلك يسعى إلى هذا الخسران وهو آسف". وقال غيره "إن الناس الذين نشأوا فى الغابات بعيداً عن الأخطاء التى درج عليها غيرهم من سكان المدن، ليسوا أبرياء كما يقال، بل هم حيوانات ماكرة، ولذلك فإنهم ليسوا أفضل من المتحضرين فى شئ من الناحية الأدبية". وقال هكسلى "إن الاعتقاد بأن الأطفال يولدون فى حالة الصلاح، وإن الهيئة الاجتماعية الفاسدة هى التى تنحرف بهم إلى الشر، ليس له نصيب من الصواب". وقال سير سيدنى سميث "إن الأطفال يأتون إلى العالم وفى طبيعتهم العناد والشر والأنانية".

٢ - سبب ولادة الإنسان لطبيعة تميل إلى الخطيئة :

بما أنه بناء على قانون الوراثة لا يمكن لكائن أن يلد آخر مغايراً له، كما يقول علماء الأحياء وعلى رأسهم ماندل. فالخنزيرة (مثلاً) لا يمكن أن تلد حملاً، والشوك لا يمكن أن ينتج عنباً. وبما أن آدم الذى وُلد منه البشر جميعاً كان قد فقد بعصيانه حياة الاستقامة التى خلقه الله عليها وأصبح خاطئاً قبل أن ينجب نسلاً، إذاً كان أمراً بديهياً أن يولد أبناؤه جميعاً خطاة بطبيعتهم نظيره، لأننا مهما جلنا بأبصارنا فى الكون، لا نجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً. ولذلك قال الوحى «بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم ...» (رومية ٥:١٢ - ٢١). وقد شهد داود النبى بهذه الحقيقة من قبل، فقال عن نفسه «بالإثم صورت وبالخطية حبلت بى أمى» (مزمور ٥١:٥). وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الفلاسفة والعلماء، فقال هكسلى وكانت "هناك أصل للشر فى الطبيعة البشرية، مما يدل على أن قصة السقوط (أى سقوط آدم فى الخطيئة) صحيحة".

٣ - آراء الذين ينكرون تسرب الخطيئة من آدم إلى البشر جميعاً :

أما الذين أنكروا تسرب الخطيئة. من آدم إلى البشر جميعاً، فقد ذهبوا مذاهب متعددة، وفيما يلى هذه المذاهب مصحوبة بالرد عليها :

(أ) إن البشر لم يولدوا من رجل واحد مثل آدم، حتى كان من الجائز أن يشتركوا معاً فى

طبيعة خاطئة واحدة.

الرد: إن وجود أصل واحد للبيض والزنوج (كما قال السير أرثر كيث وغيره من العلماء)، ووحدة أصل اللغات (كما قال مكس مولر وغيره من العلماء)، وتشابه الناس جميعاً فى أجسامهم وكيفية تغذيتهم وتناسلهم ودرجة حرارتهم وسرعة نبضهم (كما نعلم جميعاً)، كل ذلك يدل على أنهم مولودون من أصل واحد، أو بالحرى من رجل واحد.

(ب) إن الله خلق منذ القديم أرواح البشر جميعاً وأوصاها أن تطيعه وتحفظ وصاياه. غير أنها تمردت عليه وخالفت هذه الوصايا. لذلك أوجدها فى ذرية آدم ليعطيها فرصة أخرى لإظهار طاعتها له. ومن ثم تكون خطايا البشر جميعاً خطايا ذاتية لا شأن لها بآدم.

الرد: ليس هناك أى دليل دينى أو عقلى أو تاريخى يثبت أنه كان لنا وجود فعلى قبل ولادتنا من أمهاتنا، أو أننا فعلنا خطيئة ما قبل ولادتنا منهن.

(جـ) إن وجود الطبيعة الخاطئة فى البشر ليس ناشئاً عن ولادتهم من آدم، بل عن عصيانهم الشخصى معه، لأن ناسوت آدم وناسوتهم جوهر عام واحد.

الرد: إن أصحاب هذه المذاهب بنوا قولهم المذكور على المثل الأفلاطونية. فزعموا أن الله أوجد البشرية قبل أفرادها، مثلها فى ذلك (كما يقولون) مثل المغناطيسية التى أوجدها تعالى فى العالم، قبل ظهور حجر المغناطيس. وبناء على ذلك يقولون إن البشرية تحل بكل خواصها فى حجر معين فيصبح حجر المغناطيس. وهذا المذهب لا نصيب له من الصواب، لأن حجر المغناطيس لم ترد إليه المغناطيسية من الخارج فى أى عصر من العصور، بل وجد، أول ما وجد، والمغناطيسية كامنة فيه.

كما أنه ليس هناك دليل على أننا كنا متحدين مع آدم فى الجنة بأى شكل من الأشكال، أو أننا أخطأنا بالفعل معه هناك. فضلاً عن ذلك فكل منا مستقل بذاته تمام الاستقلال. فآدم، كما لكل واحد منا، شخصيته التى لا يشترك معه فيها إنسان غيره. ومن ثم فإن الطبيعة الخاطئة وإن كانت قد انتقلت إلينا من آدم، غير أننا لم نرتكب شخصياً أية خطيئة عملها آدم أو شخص غيره.

(د) إن سبب الخطيئة هو: اضطراب فى النفس أو فى الغدة النكفية، أو مركب النقص الموجود فى اللاوعى.

الرد: إن اضطراب النفس والغدة النكفية، وأى مركب نقص فى اللاوعى، لا يؤدى إلى عمل الخطيئة، إلا إذا كان الميل إليها قابعاً فى الطبيعة البشرية. فاضطراب مياه البحار بواسطة العواصف (مثلاً)، ليس هو الذى يكون الأعشاب البحرية فى البحار، بل يهيئ لها فقط سبيل الظهور على

سطح البحار.

وإذا كان الأمر كذلك، أدركنا أن أصحاب هذه المذاهب قد شطوا عن جادة الصواب، لكى تكون لهم فقط آراء خاصة. أما الحقيقة التى شهد بها الوحى وأيدها الاختبار، فهى أن الطبيعة الخاطئة التى فينا قد تسربت إلينا بالولادة من آدم الذى تناسلنا منه جميعاً، كما اتضح لنا مما سلف.

٤ ـ نتائج ولادة البشر بالخطيئة :

بما أن الخطيئة تسربت وتتسرب إلى البشر بالوارثة، وبما أن قانون الوراثة قانون عام تخضع له جميع الكائنات الحية، لذلك كان أمراً بديهياً بعد أن تسربت الخطيئة إلى البشر، أن يصيروا جميعاً خطاة بأفعالهم كما ولدوا خطاة بطبيعتهم. ولذلك قال الوحى «ليس بار ولا واحد. ليس من يفهم (فهماً روحياً) ليس من يطلب الله. الجميع زاغوا وفسدوا معاً. ليس من يعمل صلاحاً* ليس ولا واحد» (رومية ٣:١٠ ـ ١٠). كما قال «لأنه لا فرق** إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله#» (رومية ٣:٢٣)، ولذلك صاح داود النبى مرة قائلاً لله «لا تدخل فى المحاكمة مع عبدك، فإنه لن يتبرر قدامك حى» (مزمور ١٤٣:٢).

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد الحقائق السابقة، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ ـ أليس للبيئة تأثير عظيم على الإنسان؟

الرد : طبعاً لها تأثير عظيم عليه، فإن كانت شريرة ساعدت على نمو الخطيئة واستفحال أمرها فى الإنسان. وإن كانت صالحة حدّت من نشاط الخطيئة لديه. لكن لا قدرة للبيئة الصالحة على استئصال الميل إلى الخطيئة من الإنسان، أو الحيلولة دون تسرب هذا الميل إليه. والدليل على ذلك أن الخطيئة توجد فى أرق البيئات، كما توجد فى أدناها سواء بسواء.

٢ ـ ليس كل أبناء الأشرار يعملون شروراً مثل آبائهم، فكيف يقال إن كل البشر يولدون خطاة بالطبيعة لأن آدم، الذى ولد منه أجدادهم منذ آلاف السنين، قد أخطأ مرة؟

---

* الصلاح هو عمل الخير دون انتظار لجزاء أو ثواب. وهو أيضاً حياة الكمال التى تتنزه عن كل النقائص، ومن ثم فهو لا يتوافر إلا فى الله جلّ شأنه.

** اعتاد الناس أن يفرقوا بين إنسان وآخر، فيقولون مثلاً : إن هذا الإنسان أفضل من ذاك. لكن ليس هذا هو الحال فى نظر الله، لأنه ليس هناك واحد من البشر لم يفعل خطيئة واحدة فى حياته، ومن يفعل خطيئة واحدة يكون خاطئاً لا باراً.

\# أو بالحرى قصروا فى تمجيد الله وإكرامه.

الرد : وإن كان بعض أبناء الأشرار لا يعملون شروراً مثل آبائهم ، لكن ليس هناك واحد منهم لم يخطئ على الإطلاق، لذلك يكونون جميعاً خطاة ولا محالة. ومن ثم يكون السبب فى وجود الخطيئة فى البشر عامة يرجع إلى تناسلهم من آدم الذى هو أبوهم جميعاً كما ذكرنا. ،لا غرابة فى ذلك فإن خطيئته لم تكن إصابة فى جسده حتى كانت لا تنتقل إلى أبنائه، بل كانت إصابة فى نفسه بعينها. كما أن هذه الإصابة لم تكن إصابة هيّنة، بل إصابة غيّرت اتجاه نفسه تغييراً تاماً، إذ بعد أن كانت فى براءتها لا تهوى إلا خالقها ولا تعمل إلا ما ما يريده، أصبحت تتوارى من حضرته وتعمل ما نهاها عنه، وإصابة مثل هذه تنتقل طبعاً من الآب إلى أبنائه، كما تنتقل العلل النفسية الخطيرة تماماً.

٣ ـ كيف يكون كل البشر خطاة، ونحن نرى بينهم كثيرين من الصالحين؟

الرد : إن الصلاح (بمعنى عدم إتيان أى خطيئة بالفعل أو القول أو الفكر، مع القيام بكل أعمال الخير لكل الأصدقاء والأعداء على السواء، دون انتظار لأى جزاء أو ثواب كما ذكرنا) ليس له وجود فى البشر على الإطلاق. لذلك قال الوحى : «ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» (لوقا ١٨ :١٩). أما أفضل البشر فهم أشخاص يقومون بخير أكثر من غيرهم ويخطئون أقل من غيرهم، ومن ثم فالفرق بين البشر من جهة الخطيئة هو فرق نسبى فحسب، لأنهم جميعاً خطاة بطبيعتهم وخطاة أيضاً بأعمالهم، سواء كثرت هذه الأعمال أم قلت.

ولعل أوضح دليل على ذلك أن نوحاً (تكوين ٩ :٢١) وإبراهيم (تكوين ١٢ :١٢) وأيوب (أيوب ٣٠ :١) وموسى (عدد ٢٠ :٦ ـ ١١) وداود (مزمور ٥١ :١) وإشعياء (إشعياء ٦ :٣) وزكريا (لوقا ١ :١٨) وبطرس (لوقا ٢٢ :٥٨) وبولس (أعمال ٢٣ :٢)، وغيرهم من الرسل والأنبياء أخطئوا مثل غيرهم من الناس. كما أن العصمة المسندة إلى الرسل والأنبياء فى المسيحية. فهى فقط فى تبليغهم للرسائ التى كان الله يوحى بها إليهم، لأنهم كانوا عند تبليغها نقول تحت سلطانه المطلق، ومن ثم لم يضيفوا إليها كلمة أو يحذفوا منها أخرى. ولذلك قيل بالوحى : إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من شريعته تعالى (متى ٥ :١٨).

أما قول الوحى عن نوح إنه كان رجلاً باراً وكاملاً فى أجياله (تك ٦ :٩)، وعن أيوب إنه كان رجلاً كاملاً ومستقيماً يتقى الله ويحيد عن الشر (أي ١ :١)، وعن زكريا وامرأته إنهما كانا بارين (لو ١ :٦)، فلا يراد به أنهم لم يفعلوا خطيئة طوال حياتهم، بل أنهم كانوا يهابون الله ويحاولون جهد الطاقة أن ينفذوا وصاياه، كما كانوا يسرعون إلى تقديم الذبائح الكفارية له عن كل خطيئة يفعلونها، كما سيتضح بالتفصيل فى الباب الثالث.

٤ – إذا كان كل الناس خطاة، أفليس أقلهم خطأ يمكن أن يكون مقبولاً لدى الله؟

الرد : لنفرض أن طبيعة عمل ما تتطلب من الراغبين فى الإلتحاق به، أن يكون مقياس نظرهم ٦/٦. لكن بفحصهم وُجد أن نظر فريق منهم ٩/٦، ونظر فريق آخر ١٢/٦، فهل يجوز للفريق الأول أن يطالب بأحقيته فى الإلتحاق بهذا العمل دون الثانى؟ طبعاً كلا. لماذا؟ لأن مقياس النظر الذى يتطلبه العمل المذكور هو ٦/٦. وهكذا الحال من جهة الكليات، فإنه إذا اشترطت أشهرها (مثلاً) فى طالب اللحاق أن يكون حاصلاً (مثلاً) على ٩٠ ٪ أو أكثر من مجموع الدرجات، فإن من كان مجموعه ٨٩ ٪ يتساوى مع من كان مجموعه أقل من هذه النسبة بقليل أو كثير، لأن كليهما لا يُقبل فى هذه الكلية - وعلى هذا النسق نقول : بما أن اقترابنا إلى الله لا يتوقف على مستوانا الروحى فى نظرنا أو نظر الناس، بل على هذا المستوى فى نظره تعالى. وبما أن الله كامل ولا يتوافق مع الكامل إلا الكامل، إذاً ليس بيننا بكل أسف شخص، مهما قلت خطاياه، يستطيع أن يحظى فى ذاته بالقبول لدى الله - هذه هى الحقيقة (أو بالحرى الحقيقة المُرة)، التى يجب أن نضعها أمامنا من الآن، حتى يتضح لنا السبيل الإلهى للغفران.

٥ – إن المسيحية بقولها إن الطبيعة الخاطئة انتقلت إلى البشر بالوراثة، تجعلهم غير مسئولين عن الخطايا التى تصدر منهم، وهذا ما لا يتفق مع الحق على الإطلاق.

الرد : إن المسيحية مع قولها إن الطبيعة الخاطئة انتقلت إلى البشر بالوراثة، تعلن أنهم يعملون الخطيئة، ليس رغماً عنهم مدفوعين فى ذلك بغرائزهم وحدها كما هى الحال مع الحيوان، بل يعملونها بإرادتهم أو بالحرى نتيجة لموافقتهم الشخصية على تلبية رغبات هذه الغرائز. ومن ثم يكونون مسئولين عن كل خطيئة يعملونها، لأن المسئولية لا تُرفع إلا عن الأطفال وفاقدى الرشد والصواب. ولذلك قال الوحى إن كل واحد منا سيعطى عن نفسه حساباً لله (رو ١٤ :١٢)، كما قال إن الله سيُحضر كل عمل من أعمال الناس إلى الدينونة، سواء أكان خفياً أم ظاهرياً (جا ١٢ :١٤). فضلاً عن ذلك ليس هناك مجال أمام إنسان للإعتذار عن خطاياه بدعوى ضعف الإرادة، لأنه لو أتى ضعيف الإرادة بإخلاص إلى الله، لأعطاه الله طبيعة روحية جديدة تسمو به فوق أهواء الجسد سمواً عظيماً، كما سيتضح فى الباب السادس.

٦ – هل من العدالة أن يضار البشر جميعاً بسبب خطيئة ارتكبها آدم وحده؟

الرد : إن الحقائق الراهنة أثبت من منطقنا نحن البشر، لأن إدراكنا ليس كاملاً فى كل الأمور. ومن هذه الحقائق مثلاً، أن بعض الأبناء البررة يرثون من آبائهم العلل والعاهات التى تقشعر منها النفس. وإذا حاولنا أن نحكم عقولنا فى أسباب انتقالها إليهم بشئ يسمى عدالة أو ظلماً، لا يسعنا

إلا أن نقف مكتوفى الأيدى مقيّدى الفكر - وهذا ما يواجهنا تماماً فى حالة آدم وانحدار الطبيعة الخاطئة منه إلينا جميعاً.

فآدم بحكم مركزه هو أبونا والنائب عنا جميعاً، وهذه حقيقة لا يستطيع المنطق أن ينكرها، سواء أكانت معقولة عند بعض الناس أم غير معقولة. وهو بطبيعة مركزه هذا لا يمكن إلا أن تعود نتائج خطيئته علينا دون أن يكون لنا يد فى ارتكابها، مثله فى ذلك مثل الآباء الذين تعود نتائج فجورهم وشرورهم على أبنائهم البررة. ومن ثم لا سبيل للاعتراض على اشتراكنا فى نتائج خطيئة آدم بحال. ومع ذلك لا داعى لليأس أو الاعتراض، فلقد تداخلت نعمة الله الغنية فى أمرنا، ففتحت لنا جميعاً باب الخلاص من الخطيئة ونتائجها مجاناً، كما يتضح من البابين الرابع والخامس.

٧ ـ لماذا لم يخلق الله إنساناً كاملاً من أول الأمر، فكان يجنب ذريته نتائج الخطيئة المريعة؟

الرد : إن الله خلق آدم فى أحسن تقويم، إذ خلقه فى غاية البراءة دون أن يكون هناك ميل إلى العصيان فيه. ومن ثم لو كان الله قد خلق عوضاً عن آدم أى إنسان آخر، لكان قد فعل ما فعله آدم مهما كان شأنه (ولا غرابة فى ذلك فكل مخلوق يكون محدوداً، وكل محدود لا يكون معصوماً من الخطأ)، ولأصبح نسل الإنسان المذكور خطاة مثله أيضاً - ومع كلٍ فقد أعلن الله لنا فى كتابه أنه كما انتقلت الطبيعة الخاطئة إلينا دون ذنب جنيناه، يأتى إلينا الخلاص منها، ومن عقوبة الخطايا التى تصدر عنها كذلك، منحة مجانية منه تعالى، أو بالحرى دون أى عمل من جانبنا سوى الإيمان الحقيقى، كما سيتضح فى الباب السابع.

فضلاً عن ذلك، سيتضح لنا فى الباب الأخير، أنه كان خيراً لنا أن نولد كلنا من رجل واحد ونرث منه طبيعته الخاطئة، من أن يُخلق كل واحد منا بمفرده ويكون مسئولاً بشخصه عن كل خطيئة يفعلها، لأنه فى الحالة الأولى يكون لنا جميعاً امتياز الحصول من الله على غفران كامل وشامل بفضل نائب آخر أسمى من آدم بما لا يقاس. ومن ثم لا مجال لهذا الاعتراض أو غيره من الاعتراضات.



(٣)

الخطيئة وتأثيرها بالنسبة إلى الله

١ ـ أسباب تأثيرها بالنسبة إلى الله :

يعتقد بعض الناس أن الخطيئة إذا كانت بين الإنسان وبين نفسه، انحصر تأثيرها فيه وحده، وإذا كانت بينه وبين إنسان غيره، انحصر تأثيرها فيهما. لأن الله بسبب روحانيته المطلقة هو أرفع من أن يتأثر (كما يقولون) بأى مؤثر خارجي ـ لكن هذا الاعتقاد لا نصيب له من الصواب للسببين الآتيين :

(ا) كلنا يعلم أن الكامل يُسر بالخير ويكره الشر، إذ لا يُسر بالأول ولا يكره الثانى إلا الكائن الذى لا يدرك معنى الكمال، أو الجماد الذى لا حياة فيه أو شعور على الإطلاق. وبما أن الله فضلاً عن كونه كاملاً كل الكمال وحى إلى أبد الآباد، هو الذى نهانا عن الشر وأوصانا بالخير، إذاً فهو مع روحانيته المطلقة يتأثر بما نفعله من شر أو خير على نحو يتفق مع روحانيته هذه. لذلك قال الوحى عن الله إنه لا يطيق الإثم (إشعياء ١:١٣)، وإن عينيه أطهر من أن تنظرا إليه (حبقوق ١:١٣)، ومن ثم إذا فعل أحدنا خطيئة ضد نفسه أو ضد غيره، لا يكون قد أساء إلى نفسه أو غيره فحسب، بل وإلى الله قبل كل شئ آخر.

(ب) إن لله علاقة وثيقة بنا، إذ فضلاً عن أنه خلقنا على صورته كشبهه مؤيداً إيانا بالمواهب العقلية والأدبية التى تفكر فيه وتسعى إليه، فإنه بعث إلينا بالكثير من الرسل والأنبياء ليعلنوا لنا أفكاره الطيبة من نحونا وما يجب علينا من تصرف إزاءه. وبما أن كل علاقة بين طرفين تتأثر بتصرفات أحدهما، إذاً فكل خطيئة نأتيها، تؤثر على علاقة الله بنا. وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الفلاسفة، فمثلاً قال بسكال "إن الإنسان يعتبر الله كأنه وثن، إذا جعله موضوعاً للمعرفة فحسب، وجرّده من عمله الجوهرى الخاص بعلاقته معنا*". وإذا كان الأمر كذلك، فإن كل خطيئة نأتيها ضد أنفسنا أو ضد غيرنا من الناس، تكون موجهة ضد الله أولاً كما ذكرنا. ولذلك عندما أخطأ داود النبى ضد أوريا وامرأته قال لله «إليك وحدك أخطأت،

---

* أما الفلاسفة الذين يقولون إن الله لا يعبأ بشر الناس أو خيرهم رغبة منهم فى تنزيهه تنزيهاً مطلقاً، فهم فى الواقع لا يسندون إليه الكمال المطلق كما يقولون، بل يجردونه من صفات الكائن الأدبى تجريداً تاماً، أو بالحرى يجعلونه اسماً دون مسمى.

والشر قدام عينيك صنعت» (مزمور ٥١:٥). كما أن يوسف الصديق عندما أبى أن يلبى الرغبة الأثيمة التى عرضتها عليه امرأة فوطيفار، قال لها «كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟!» (تكوين ٣٩:٩).

٢ ـ مدى الإساءة التى نوجهها إلى الله بسبب الخطيئة :

وإن كنا لا نستطيع تحديد هذه الإساءة بسبب سمو الله عن إدراكنا سمواً لا حدّ له، لكن نعلم أنه بارتكاب الخطيئة : **أولاً** ـ نحول بين الله وبين الصلة الروحية الطيبة التى يريد أن تكون بينه وبيننا، لأنه لم يخلقنا على صورته كشبهه إلا لكى تكون لنا هذه الصلة به. **وثانياً** ـ ننكر فضله علينا ونستهين بعواطفه الكريمة من نحونا. **وثالثاً** ـ نرفض شريعته ونكسر ناموسه، وبذلك نتمرد عليه ونهينه فى أرضه وعلى مرأى منه.

لذلك قال الوحى عن الخطاة إنهم لا يخشون الله (إرميا ٢:١٩)، ويبغضونه بلا سبب (مز ٦٩:٤)، ويرفضون شريعته (إرميا ٦:١٩)، وينقضون عهده (يشوع ٧:١١)، ويتمردون على شخصه (هوشع ١٣:١٦)، ويسلبون حقوقه (ملاخى ٣:١٨)، ويفسدون أمامه (نحميا ١:٧)، ويهينون مقامه (مز مور ١٠:١٣، إشعياء ١:٢و٣)، ويحتقرون اسمه وينجسونه أيضاً (ملاخى ١:٦ ، حزقيال ٣٦:٢٠)، لأن لسان حالهم إزاءه «أبعد عنا، وبمعرفة طرقك لا نُسر» (أيوب ٢١:١٤) ـ فالخطيئة، علمنا أم لم نعلم، هى أكبر إساءة نوجهها إلى الله، ولذلك قال الوحى «الخطيئة خاطئة جداً» (رومية ٧:١٣).

أما الاعتراض الذى يوجه ضد ما ذكرناه، ففيما يلى بيانه والرد عليه :

أليس الله أرفع من أن نهينه أو نسئ إليه بعصياننا ؟

الرد : حقاً إننا لا نستطيع بعصياننا أن ننتقص شيئاً من مجد الله فى ذاته، كما أننا لا نستطيع بطاعتنا له أن نضيف شيئاً إلى مجده هذا، لأنه كامل فى ذاته كل الكمال ولا يتعرض للزيادة أو النقصان. لكن من ناحية علاقتنا به ووجوب طاعتنا له بوصفه خالقنا وولى نعمتنا، فإننا بعمل الخطيئة نهضم من زاويتنا الخاصة حقوقه علينا ـ وهضمنا لحقوقه علينا إنكار لها وإساءة لشخصه أيضاً، إذ يكون تعالى كما لو لم يكن هو خالقنا وولىّ نعمتنا!! فمجد الله الذاتى وإن كان كاملاً كل الكمال ولا يتعرض للزيادة أو النقصان، بغض النظر عن طاعتنا لله أو عدم طاعتنا له كما ذكرنا، لكن مجده الظاهرى فى علاقته بنا مرتبط كل الارتباط بتصرفنا إزاءه. ولذلك يقول تعالى : «الابن يكرم (بطاعته) أباه، والعبد يكرم (بطاعته أيضاً) سيده. فإن كنت أنا أباً فأين كرامتى (فى نظركم)؟ وإ كنت سيداً فأين هيبتى (عندكم)» (ملا ١:٦).

(٤)

الخطيئة وتأثيرها بالنسبة إلى البشر

كلنا يعلم أننا إذا نقلنا حيواناً (مثلاً) من المنطقة الحارة إلى المتجمدة أو من هذه إلى تلك، اضطرب جسمه وتعرض للموت تبعاً لذلك. وهكذا الحال، إذا نقلنا حيواناً بحرياً إلى البر أو برياً إلى البحر. لكن إذا ظل كل حيوان فى المجال الذى خلق ليعيش فيه، نما جسمه وعاش حياة طيبة. وعلى هذا النسق نقول : بما أن الله خلقنا لا لكى نعيش بمعزل عنه، بل لكى نعيش فى رفقته ومعيته كما ذكرنا، وبما أن كل كائن يبتعد عن المجال الذى خُلق للعيش فيه، لا يمكن أن يهنأ أو يستريح، إذاً كان أمراً بديهياً أن كل من يبتعد عن الله يتعرض للتعب والشقاء[٢] . وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة فقال : «من يخطئ عنى يضر نفسه» (أمثال ٨:٣٦)، والأضرار التى يتعرض لها الإنسان فى العالم الحاضر بسبب الخطيئة ثلاثة أنواع، أضرار نفسية، وأضرار أدبية، وأضرار مادية، كما يتضح مما يلى :

١ - الأضرار النفسية :

فنحن نرى أن من يركض وراء الخطيئة، كثيراً ما يحيا حياة القلق وعدم الاستقرار، كما يتعرض أحياناً للأمراض النفسية التى يتعذر شفاؤها، لأنه لا يجد فى نهاية جهاده على الأرض هدفاً ثابتاً أمامه، أو رجاء منير قدامه.

وإذا لم يتعرض لهذه الأمراض، فإنه يحصر غايته فى ثروة لا يلبث أن يتركها أو تتركه. أو فى لذة (أو بالحرى نشوة) سرعان ما يهجرها أو تهجره. أو فى ولد إذا امتد به العمر، فإنه يبكيه إذا توفى، ثم لا يلبث أن يهتم بشئونه الخاصة وينساه. لذلك قال الوحى عن الخطيئة إنها تحنى النفس (مزمور ٢٤:٢٥) وتملؤها بالذل والهوان (مزمور ١٢٣:٤)، وتحرمها من الراحة والسلام (إشعياء ٤٨:٢٢)، وتسلبها الوعى الروحى فتصبح أحط من نفس الحيوان (إشعياء ١:٣).

٢ - الأضرار الأدبية :

ولوجود الطبيعة الخاطئة فى الإنسان، يصبح (إذا لم يتلق حياة روحية من الله) عاجزاً عن الارتقاء فوق خطاياه. ومن ثم إذا تعهد يوماً بالإقلاع عنها، وبذل كل ما لديه من جهد فى سبيل تنفيذ تعهده هذا، سرعان ما يُغلَب على أمره. فإن لم يفعل الخطيئة فى الظاهر، قد يفكر فيها

ويشتهيها فى الباطن، ومن ثم يعود من حيث أتى. لذلك فمثل الإنسان فى مقاومة الخطيئة بقوته الذاتية، مثل الماء الذى لا يستطيع الارتفاع من تلقاء ذاته إلى مستوى أعلى من المستوى الذى هبط منه فى أول الأمر، كما نرى فى تجارب الأوانى المستطرقة. أو مثل الطائر الذى يسعى إلى الانطلاق نحو السماء وهو مقصوص الجناح، فإنه مهما حاول وجاهد لا يستطيع أن يرتفع فوق الأرض شبراً واحداً - وأول من شعر بهذه الحالة المريرة هو آدم وحواء، فعندما أخطأا، فقدا الصلة الروحية بالله، كما أحسا بأنهما لا يستطيعان العودة إلى حالة البراءة التى كانا يتمتعان بها من قبل (تكوين ٣:٨). وهذا العجز وذاك الفقدان يعبر عنهما بالموت الأدبى، والموت الأدبى هو أشر موت لمن يقدّر أهمية التوافق مع الله حق التقدير.

ولذلك قال الرسول للمؤمنين عن حياتهم السابقة فى الخطيئة «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا» (أفسس ٢:١). كما قال عن نفسه قبل تمتعه بخلاص الله الكامل «الخطيئة قتلتنى (أو بالحرى قتلتنى أدبياً)، وأنها عاشت، فمتّ أنا (أو بالحرى مت أدبياً)» (رومية ٧:٩ - ١١). كما قال بعد ذلك «لأن الإرادة (لحياة الصلاح) حاضرة عندى، وأما (عن القدرة التى تؤهلنى) أن أفعل الحسنى (كما يريدها الله) فلست أجد (إليها سبيلا). لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده، بل الشر الذى لست أريده إياه أفعل (بسبب الطبيعة الخاطئة الكامنة فىّ). فإنى أسرّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن (بسبب إخلاصى للحق)، ولكن أرى ناموساً آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى (الذى يريد الصلاح)، ويسبينى إلى ناموس الخطيئة الكائن فى أعضائى. ويحى أنا الإنسان الشقى، مَنْ ينقذنى مِن جسد هذا الموت» (رومية ٧:١٨ - ٢٤)؟!

وليس هذا هو اختبار الرسول المذكور وغيره من الرسل والقديسين فحسب، بل إنه أيضاً اختبار كثيرين من الفلاسفة والمفكرين. فمن المأثور عن هكسلى أنه قال "إن الإنسان قد برهن على أنه خاضع لعنصر وضيع يسيطر على كيانه بقوة هائلة. إذ أنه فريسة عمياء لدوافع نفسية متعددة تقوده إلى الشر والدمار، وضحية مسكينة لأوهام لا حصر لها".

٣- الأضرار المادية :

(ا) وبسبب الخطيئة كم من قوىّ تهدمت صحته، وشاب فى مقتبل العمر ذبلت نضارته، ومثقف كان يزدان به المجتمع فقد مكانته! وكم من غنى أصبح فقيراً وعظيم أضحى حقيراً، ومحترم أمسى مهاناً ذليلاً! وبسبب الخطيئة كم من خصام دب بين العائلات راح ضحيته كثير من الأبرياء، وكم من أمة انحلت عراها فدالت دولتها وأصبحت أثراً بعد عين - لذلك قال الوحى إن الأهواء التى تجيش فى نفوس الناس، هى السبب فى قيام الحروب والخصومات بينهم (يعقوب ٤:١)، وإنه بسبب امرأة زانية قد يفتقر الإنسان إلى رغيف خبز (أمثال ٦:٢٦)، وإنه بسبب

الخمر يحل الشقاء والكرب (أمثال ٢٣:٢٩)، وإن الخطيئة بصفة عامة تمنع الخير عن الناس[٣] (إرميا ٥:٢٥)، وتجلب عليهم العار والشنار (أمثال ١٤:٢٤)، وتسبب لهم العلل والأمراض (تثنية ٢٨:٢٢).

(ب) وليت الأمر يقف عند هذا الحد، لأن الموت الجسدى الذى ترتعد لذكره فرائضنا وتتحطم عنده آمالنا وأمانينا، ويورثنا الكثير من الحزن والأسى، ليس إلا النتيجة الختامية للخطيئة فى العالم الحاضر. فقد قال الله لآدم عن الشجرة المنهى عنها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (تك ٢:١٧)، كما قال له تعالى بعد الأكل منها «لأنك تراب وإلى تراب تعود» (تكوين ٣:١٩).

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد هذه الحقائق، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ - إذا كان الموت هو قصاص الخطيئة، فلماذا لم ينفذ الله هذا القصاص فى آدم بعد عصيانه مباشرة؟

الرد : إن الله لم يفعل ذلك لسببين :

الأول - بعد قيادته لآدم إلى التوبة والإيمان برحمته تعالى عن طريق نسل المرأة العتيد أن يسحق رأس الشيطان (تكوين ٣:١٥)، نفذ حكم الموت الجسدى الذى كان يجب أن يحل بآدم، فى حيوان عوضاً عنه. وهذا الحيوان وإن كان فى حد ذاته ليس بكاف للتعويض عن آدم لأنه أقل قدراً منه، لكن لأنه كان رمزاً إلى كفارة أسمى منه بما لا يقاس (كما يتضح بالتفصيل فى البابين الثالث والرابع)، اكتسب وقتئذ القدرة الكافية للتعويض عن آدم أمامه تعالى. ومن ثم صار لله أن يطيل عمر آدم كما شاء، كما لو كان مخلوقاً جديداً.

الثانى - إن الله لم يخلق الأرض عبثاً بل هيأها للسكن (إشعياء ٤٥:١٨)، لذلك كان من البديهى أن يُبقى الله آدم بعد فدائه، لكى يأتى بنسل يملأ الأرض وينعم فيها بفضله تعالى، من جهة الأمور الروحية والمادية معاً.

٢ - إن موت آدم كان أمراً طبيعياً ولم يكن قصاصاً عن الخطيئة التى ارتكبها، لأن جسده قابل للموت من تلقاء ذاته مثل أجسادنا.

الرد : إننا لا نستطيع الجزم بما كان عليه جسد آدم فى أول الأمر، ولكن ما نستطيع الجزم به، هو أن جسده أصبح، بعد السقوط فى الخطيئة، مثل أجسادنا تماماً، قابلاً للموت والانحلال. فقد قال

الوحى «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» (رومية ٥:١٢).

ولو فرضنا جدلاً أن جسد آدم قد خُلق من أول الأمر قابلاً للموت، وأنه عاش بعد ذلك فى الجنة[٤] دون أن يعصى الله، لكان تعالى قد حوّل جسده إلى جسد غير قابل للموت، وذلك للأسباب الآتية :

الأول - إن هذا التحول لم يكن يتعارض مع ناموس الطبيعة الثابت، فدودة القز مثلاً، تتحول إلى عذراء ثم فراشة تطير فى الهواء، دون أن يعتريها بذلك أى تغيير فى ذاتيتها.

الثانى - إن آدم بجسمه وروحه خُلق أصلاً للبقاء، ويكفينا دليلاً على ذلك أن كل الأديان تنادى بأن البشر عامة سيقومون بعد موتهم بأجساد تبقى إلى الأبد. ومن ثم لا غرابة لو كان الله قد حوّل جسد آدم إلى جسد غير قابل للفناء، لو كان آدم قد استمر فى حالة الطاعة له تعالى.

الثالث - إن الوحى سجل لنا أن الله قبل أن يخلق آدم أعدّ له وسيلة كان من الممكن أن يحيا بها إلى الأبد، وذلك فى شجرة رمزية وضعها فى الجنة أطلق عليها اسم «شجرة الحياة»[٥] (تكوين ٣:٢٢).

الرابع - إن العلم أنبأنا فى العصر الحاضر أنه من الممكن إطالة عمر الإنسان كثيراً، وذلك بمحاربة أمراض الشيخوخة التى يتعرض لها - وقدرة الله على إطالة عمر الإنسان، بل وإطالته إلى الأبد، تفوق قدرة العلم بدرجة لا تُحَد.



(٥)

الخطيئة والآلام الذاتية الأبدية

١ - تأثير حضرة الله :

إن معظم الذين يفعلون الخطيئة فى الزمن الحاضر لا يدركون شناعتها أو خطورتها، ولذلك لا يحسبون لها حساباً. غير أن موقفهم هذا سوف لا يدوم طويلاً، لأنه سيأتى يوم - ولابد أن يأتى - فيه يرون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الله الذى كانوا يسيئون إليه ويتجاهلون حقوقه، وحينئذ سوف يدركون أن خطاياهم شنيعة وخطيرة بدرجة لم تكن تخطر لهم ببال، ومن ثم فإنهم سيرتعبون رعباً ليس بعده رعب، ويفزعون فزعاً ليس بعده فزع. فقد ذكر الوحى مثلاً أنه عندما أحس بيلشاصر* بقضاء الله يهبط عليه «تغيرت هيئته وأفزعته أفكاره وانحلت خرز حقويه واصطكت ركبتاه» (دانيال ٥:٦)، كما ذكر أن الملوك والعظماء (الذين سيكونون أحياء على الأرض عند ظهور الرب للدينونة)، سوف يخفون أنفسهم فى الكهوف والشقوق، وهم يقولون للجبال والصخور «اسقطى علينا وأخفينا من وجه الجالس على العرش» (رؤ ٦:١٥). لكن لن تسمع الجبال لندائهم ولن تستجيب الصخور لصراخهم، إذ ليس هناك شئ فى الوجود يستطيع أن يحجبهم عن الله، ومن ثم سوف يظلون فى رعب ليست له نهاية.

٢ - تأثير الضمير :

كلنا يعلم أن الضمير أودع فينا ليهدينا سواء السبيل، وذلك بالتأنيب على فعل الشر والتشجيع على فعل الخير. وبما أن الذين يأتون الخطيئة فى العالم الحاضر، كثيراً ما يلتمسون الأعذار لأنفسهم، فيخدرون ضمائرهم ويخمدون أصواتها. وبما أنه ليس فى عالم الروح مجال لتخدير الضمير وإخماد صوته، لذلك فالضمائر النائمة الآن، لابد أن تستيقظ فى الأبدية، وهناك سيرى الخطاة بطلان الأمور الدنيوية التى كانوا يفنون صحتهم ويضيعون فيها ثروتهم ووقتهم، فيندمون ويتحسرون، ويكتشفون خيبتهم فى تضليل أنفسهم بالتماس الأعذار الواهية، فينوحون ويتوجعون، ثم يقدّرون إحسان الله

* هو أحد ملوك بابل القدامى، وكان قد أهان فى كبريائه الله جل شأنه، إهانة بالغة.

الذى كان يتهاطل عليهم دون أن يعبئوا به، فيبكون ويولولون، وذلك إلى أبد الآباد، لأنه ليس هناك من يرحمهم أو يشفق عليهم.

٣ ـ الوحشة فى الأبدية :

وبما أنه لا يوجد فى عالم الروح أثر للشهوات التى يلهو بها الناس فى دنياهم، أو العلاقات التى يجدون فيها سلواناً لأنفسهم، أو الأعمال التى تشغل أفكارهم وتصوراتهم، لأن عالم الروح لا تأثير فيه لغير الله. لذلك فالأشرار سوف يشعرون بوحشة لا نظير لها، إذ لن تكون لهم علاقة، ليس مع الله أو قديسيه فحسب، بل ولا مع الأشرار الذين كانوا على شاكلتهم فى العالم الحاضر أيضاً. لأن كل خاطئ سيكون لرعبه وآلامه منطوياً على ذاته ومتأثراً بظروفه الخاصة. ومن ثم سوف لا يكون هناك من يواسى الخطاة ويعزيهم، أو ينسيهم همومهم وآلامهم، أو يهوّن عليهم من خطبهم ومصابهم.

٤ ـ القصور الذاتى :

إن الطبيعة البشرية المنحرفة عن الله، لا تتغير على الإطلاق مهما نال المرء الكثير من التهذيب والتعليم كما ذكرنا فى الفصل الثانى. ولذلك فالذين لم يحصلوا فى العالم الحاضر على طبيعة روحية من الله تؤهلهم للتوافق معه فى صفاته الأدبية السامية، سوف يجدون أنفسهم فى الأبدية عاجزين أيضاً عن هذا التوافق مهما بذلوا فى سبيله من جهد. وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من العلماء، فقال صموئيل جونسون : «إن الحالة التى تسود علينا فى العالم الحاضر، ستظل سائدة علينا فى العالم الآخر».

ولذلك لو فرضنا أن الخطاة استطاعوا أن يفلتوا من مصيرهم المرعب، وينطلقوا لكى يسترضوا الله ويدخلوا فى علاقة جديدة معه، لا يمكن أن يظلوا فى حضرته لحظة واحدة. ومن ثم فلن يسعهم سوى النكوص على أعقابهم متباعدين بعداً عظيماً عنه، مثلهم فى ذلك مثل الحشرات التى ألفت العيش فى الظلام بسبب موافقته لطبيعتها، فإنها إذا خرجت إلى سطح الأرض ليلاً وأحست بضوء ما، سرعان ما تعدو إلى جحرها لتختبئ وتتوارى فى ظلمته ـ هذا هو القصور الذاتى الذى يحول بين الخطاة وبين تغيير سلوكهم فى الأبدية، ويقطع من أمامهم كل أمل فى النجاة من الشر الذى تشكلوا به فى دنياهم، ويورثهم آلاماً مريعة تحزّ فى نفوسهم حزاً وتوخزها وخزاً. وقد أشار الوحى إلى هذه الآلام فقال عن الخطاة إن نصيبهم فى الأبدية هو البكاء وصرير الأسنان (متى ٨:١٢) البكاء بسبب شدة الألم، وصرير الأسنان بسبب شدة الندم.

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد الحقائق السابقة، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ - إن الإنسان ليست له روح قائمة بذاتها، بل هو مجموعة مواد متآلفة معاً تقوم بأعمالها من تلقاء ذاتها.

الرد : (أ) إن خلايا الجسم، كما يقول العلماء، فى تغيير مستمر، وإن الجسم اليوم غيره منذ شهور. ولكن على الرغم من ذلك، نرى الإنسان باق بذات كيانه الفكرى والأدبى والاجتماعى، كما يتذكر جيداً ما فعله أو صادفه منذ عشرات السنين، ومن ثم لا يمكن أن يكون مجرد مجموعة مواد متحدة معاً (كما يقال)، بل لابد أنه قائم أيضاً بجوهر لا يتأثر بتغيير ذرات جسمه، وهذا الجوهر هو ما يطلق عليه الوحى اسم «الروح».

(ب) كما أن التلباثى (أى تبادل الأفكار بين إنسان وآخر) والهيبنوتزم (أى التنويم المغناطيسى) يدلان أيضاً على أن الإنسان ليس مجرد مواد متحدة، بل إنه قائم أيضاً بجوهر روحى يرسل ويستقبل الأفكار المعنوية بطريقة غير مرئية. فضلاً عما تقدم، فإن اهتداء الفنانين والعلماء أثناء نومهم إلى الموضوعات التى كانوا يعجزون عن الوصول إليها فى يقظتهم، يدل كذلك على أن الإنسان قائم بجوهر روحى يمكن أن ينشط عندما يتحرر الإنسان من المؤثرات الخارجية، وهذا الجوهر هو ما يسمى الروح كما ذكرنا.

(جـ) هذا وقد أعلن الوحى بعبارات واضحة عن وجود روح للإنسان، فقال : إنه يوجد روح فى الناس، ونسمة القدير تعقلهم (أيوب ٣٢:٨). وقال أيضاً : «روح الإنسان فى داخله» (زكريا ١:١٢)، وأيضاً «روح الإنسان التى فيه» (١كورنثوس ٢:١١). ولذلك قال داود النبى لله «فى يدك أستودع روحى» (مزمور ٣١:٥).

٢ - إن كان للإنسان روح، فهى لا تفرق شيئاً عن روح الحيوان.

الرد : (أ) إن جميع الحيوانات لم تظهر منذ نشأتها تقدماً ما، وما كانت تعمله قديماً بالغريزة هو هو ما تعمله الآن دون تحسين أو تغيير. فلغاية الآن لا يعمل الطائر سوى عشه، والثعلب سوى جحره، والنحل سوى خليته، وهكذا .. وإن كانت بعض الحيوانات قد تعلمت شيئاً جديداً، فالفضل فى ذلك للإنسان الذى روّضها وهذبها. أما الإنسان فقد أظهر منذ وجوده على الأرض، ومن تلقاء ذاته أيضاً، رقياً وتقدماً فى كل الميادين العلمية والاجتماعية والسياسية والأدبية والدينية. كما أننا إذا رجعنا إلى التاريخ نرى أن ذكاء القدامى لا يقل عن ذكاء الناس فى الوقت الحاضر. وحضارة قدماء المصريين والبابليين والأشوريين والكلدانيين التى ظهرت قبل الميلاد بآلاف السنين خير دليل على هذه الحقيقة،

الأمر الذى يدل على أن ذكاء الإنسان فطرى وليس مكتسباً. وقد شهد بهذه الحقيقة «برانكو» أعظم علماء الحفريات، فقال بعد بحوثه الطويلة : "إن الإنسان ظهر على الأرض فجأة بذكائه الموجود عليه الآن، فى أواخر العصور الجيولوجية".

(ب) فضلاً عن ذلك، فإن الإنسان لديه مبادئ سامية ليس لها نظير لدى الحيوان (مثل الأمانة والإخلاص والنزاهة والشرف والتضحية والعفاف)، كما أن لديه القدرة على التمييز بين الخير والشر، وعلى الاختراع والابتكار، والارتقاء فوق الغرائز والميول. وليس ذلك فقط، بل وعلى التفكير المنطقى المرتب، والتعبير عن هذا التفكير باللسان والقلم. أضف إلى ذلك أن لكل إنسان شخصية قائمة بذاتها لها مميزاتها الأدبية والخلقية والنفسية التى لا يشترك معه فيها غيره. الأمر الذى لا يتوافر فى الحيوان، إذ أن كل نوع منه، مع اختلاف أفراده الظاهرى فى اللون والشكل والحجم. له صفات وخصائص واحدة.

(جـ) مما تقدم يتضح لنا أن الإنسان ليس مجرد جسم يتحرك بفعل الغرائز والحياة الطبيعية كما يفعل الحيوان، حتى يجوز التساؤل إن كانت له روح تميزه عن الحيوان، بل إنه قبل كل شئ هو عقل وفكر وإدراك. ومن ثم فإنه قائم بروح لا نظير لها فى الحيوان - وقد أدرك هذه الحقيقة سارتر فيلسوف الوجودية الحديثة، فإنه مع عدم تدينه قال "إن الإنسان يتميز عن الحيوان بوجود العقل فيه. فالحيوان عبد للطبيعة محكوم من الخارج بقوانينها ومن الداخل بغرائزه. أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يقاوم الطبيعة، لأن له عقلاً يفهم به الأشياء : عقلا لم يحظ الحيوان به. فالإنسان إذاً لا شبيه له فى الكون" - وهذا العقل لا يمكن أن يكون شيئاً معنوياً كالصفات، بل لابد أن يكون شيئاً حقيقياً، له وجود ذاتى، ومن ثم لا يكون سوى الروح الفاهمة، عرف سارتر هذه الحقيقة أم لم يعرف.

٣ ـ إذا كان للإنسان روح تميزه عن الحيوان، فهل يكون لها وجود بعد موته، حتى يمكن أن تشقى أو تسعد؟

الرد : (ا) إذا كان جسم الإنسان المادى لا يفنى، وأن كل مايطرأ عليه من تغيير بعد الموت هو تحلله إلى عناصرمنظورة أو غير منظورة بسبب تكونه من مواد مختلفة - فمن المؤكد أن الروح، التى هى العنصر الجوهرى فى الإنسان، لا تفنى أيضاً. كما أنها لا يمكن أن تتحلل إلى عناصر، لأنها ليست مادية بل روحية.

فضلاً عما تقدم، فإذا كان وجود الغرائز فى الإنسان دليلاً على أن هناك مجالاً لاستثمارها وإشباعها كما نعلم جميعاً، لذلك فإن غريزة حب البقاء التى تسيطر عليه لدليل على أنه إذا مات جسده، لا تفنى روحه بل تبقى. كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن لكل مجهود يبذله الإنسان فى هذا

العالم، نتيجة تتكافأ معه. فالمجتهد له الثواب والمهمل له العقاب، أدركنا أنه لا يمكن أن يكون القبر هو النتيجة التى تنتهى إليها حياة الإنسان الصالح والطالح معاً، بل لابد أن هناك عالماً آخر يحصد فيه كل منهما نتائج عمله؛

(ب) والحق أن الحياة لو كانت مقصورة على العالم الحاضر لكانت فى جملتها بلا فائدة أو جدوى، وهذا هو ما انتهى إليه الفيلسوف شوبنهور فقال «الحياة سلسلة متواصلة من الألم. فأولها ألم وآخرها ألم، وهى كوميديا مفجعة يتكرر تمثيلها من وقت إلى آخر». والذين نسجوا على منواله احتقروا الحياة واستسلموا لليأس، فضاقت الدنيا على سعتها فى أعينهم، ومن ثم انتحروا أو عاشوا حياة البؤس والشقاء - وهذا ما دعا روسو إلى القول «إن فكرة عدم الخلود تحطّم روح الإنسان، وتدمّر أنبل عواطفه».

فلولا الخلود لكانت الحياة خطأ فى خطأ، إذ تكون تعباً وعناء ثم فناء إلى الأبد، الأمر الذى لا يتفق مع ناموس الكون الدقيق الذى نعيش فيه. فإذا أضفنا إلى ذلك : أولاً - أن روح الإنسان، دون غيره من الكائنات، هى نسمة أو نفحة من الله (تكوين ٢:٧)، وأن الله خالد إلى الأبد، ومن ثم فإن روح الإنسان لابد أن تبقى بمشيئته إلى الأبد أيضاً. وثانياً - أن الله خلق الإنسان دون غيره من الكائنات على صورته كشبهه، كما أرسل له دون غيره من الكائنات الرسل والأنبياء، لكى يرشدوه إلى الحق والصواب الأمر الذى يدل على محبته الشديدة له - اتضح لنا أن الموت لا يمكن أن يكون نهاية حياة الإنسان، بل وسيلة ينتقل بها إلى عالم آخر، يكون فيه تحت تأثير الله دون سواه.

(جـ) وهناك آيات تدل على أن الروح لا تفنى بعد موت الجسد، فمثلاً قال الحكيم، إن الروح ترجع إلى الله الذى أعطاها، كما يرجع الجسد إلى التراب الذى أُخذ منه (جامعة ١٢:٧). وقال إشعياء النبى لله «تحيا أمواتك. تقوم الجثث» (٢٦:١٩) وقال أيوب «بعد أن يفنى جلدى وبدون جسدى أرى الله» (أيوب ١٩:٢٦). وفى العهد الجديد أنبأنا المسيح فى قصة الغنى ولعازر أن الروح تبقى بعد موت الجسد لتكافأ أو تعاقب (لوقا ١٦:١٩ - ٢١). كما قال للمؤمنين به «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها. بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم» (متى ١٠:٢٨). وقال بولس الرسول «لى اشتهاء أن أنطلق (أو بالحرى أنطلق بروحى) وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً» (فيلبى ١:٢٣). وقال بطرس الرسول إن أرواح الذين عصوا الله فى أيام نوح، موجودة الآن فى السجن أو بالحرى فى الهاوية (١بطرس ٣:١٩). وقال يوحنا إن الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله، عاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة (رؤيا ٢٠:٤). وقال يهوذا إن سكان سدوم وعمورة الأشرار سيكابدون عقاباً أبدياً (يهوذا ٦ و ٧).

(د) أخيراً نقول، وإن كانت شهادة الوحى عن خلود الروح لا تحتاج إلى دليل بشرى لتدعيمها، لكن لفائدة الذين يريدون معرفة أقوال الفلاسفة بشأن هذا الموضوع نقول : إن المشهورين منهم نادوا ببقاء الروح. فقال سقراط : "إنها لا تفنى" وقال أفلاطون "إن التفكك والفساد يلحقان بالمادة. وبما أن النفس بسيطة وإلهية، لذلك فهى أبدية". كما قال : "إن كل كائن يسهم فى فكرة معينة لا يقبل ضدها. وبما أن النفس هى مصدر الحياة، لذلك لا يمكن أن تقبل ما هو ضدها، وهو الموت". وقال أرسطو : "إن فى الإنسان كائناً يظل فى الوجود بعد موته. وهذا الكائن هو روحه التى ليس لها نظير فى النبات أو الحيوان". وقال الرواقيون : "إن النفس لا تفنى بل تعود إلى أصلها" - وعدا هذه الشهادات هناك شهادات متعددة لكثير من فلاسفة العصرين المتوسط والحديث، لكن للاختصار نكتفى بالشهادات التى ذكرناها، لأن أصحابها كانوا غير متأثرين بالإعلانات السماوية التى تنادى بخلود النفس، بل كانوا متأثرين بوحى عقولهم وحدها.

٤ ـ إن النفس هى الدم فمكتوب "لأن نفس الجسد هى فى الدم" (لاويين ١٧ :١١). والدم يتلاشى بالموت، لذلك فنفس الإنسان لا يكون لها وجود بعد موته.

الرد : فضلاً عن أنه لا يُفهم من هذه الآية أن النفس هى الدم بل إنها فيه، فإن الآية المذكورة قيلت عن الحيوان لا الإنسان. ونظراً لأن الإنسان لم يخلق على النسق الذى خُلق به الحيوان ‹لأن الله خلق الحيوان بمجرد الأمر، لكنه خلق الإنسان بواسطة نسمة أو نفخة حياة أودعها بذاته فيه (تكوين ٢ :٧)›، لذلك كانت للإنسان روح عاقلة بالإضافة إلى نفسه (١تسالونيكى ٥ :٢٣) التى هى مصدر ما فيه من نشاط جسدى. وكانت روحه باقية ببقاء الله لتتوافق معه إلى الأبد أو لتحرم منه إلى الأبد. وكل ما فى الأمر أنه لاقتران روح الإنسان بنفسه، قد يطلق عليها نفسه.

٥ ـ إن أرواحنا، كما يقول بعض الصوفيين، تفنى بالموت فى الله، كما تفنى مياه الأنهار فى المحيطات، ولذلك لايكون هناك فرق بين أرواح الصالحين وأرواح الطالحين بعد انطلاق الفريقين من أجسادهما إلى العالم الآخر.

الرد : إن الله وإن كان يريد أن تتوافق أرواحنا معه فى صفاته الأدبية السامية، لكنه لا يبغى من وراء ذلك إفناءها فيه، بل إبقاءها فى الخلود معه بشخصياتها الخاصة بها، لأنه بدون ذلك لا تتحقق أغراضه السامية من خلقها. كما أنه ليس من المعقول إطلاقاً أن تفنى أو تذوب أرواح الطالحين فى الله، لاختلافها عنه فى صفاتها كل الاختلاف.

٦ ـ إن الإنسان عندما يموت يفنى، لأنه لا يبقى للإدراك أو الوعى وجود فيه، كما أن القول

بخلود الروح هو فقط أحد الآمال التى تجيش فى أفئدة الفقراء والمظلومين الذين يريدون أن يسروا عن أنفسهم، أو الأنانيين الذين يريدون أن ينالوا فى العالم الآخر ثواباً عما يقومون به من صلاة أو صوم أو صدقة. فضلاً عن ذلك فإن القول بالخلود يحد من جهاد الإنسان فى خدمة المجتمع الذى يعيش فيه، الأمر الذى يحول دون تقدمه.

الرد : (ا) إن الإدراك وإن كان من عمل المخ، لكن المخ لا يأتى به من تلقاء ذاته، وإلا لكان مخ الميت يدرك كما يدرك مخ الحى. وإذا كان الأمر كذلك، عرفنا أن العامل فى المخ للإدراك لابد أن يكون عنصراً روحياً قائماً بذاته، وهذا العنصر هو الروح كما ذكرنا، ومن ثم موت الجسد وتعطل عمل المخ لا يدلان على فناء الروح، بل يدلان على انطلاقها من الجسد.

(ب) كما أن الذين يقولون بخلود الروح ليسوا من الفقراء والمظلومين أو الأنانيين الذين يريدون أن يكون لهم ثواب بعد الموت، كما يقال، بل هم الفلاسفة والعلماء الذين يبحثون عن الحقيقة وحدها. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الخلود يضع الإنسانية فى موضعها الصحيح كما يعطيها معناها السامى الرفيع، وأن الذين يؤمنون إيماناً حقيقياً بالله والخلود يكثرون من عمل الخير فى العالم تمجيداً لله وتنفيذاً لمشيئته على الأرض، دون انتظار لجزاء أو ثواب، اتضح لنا أن الاعتراض الذى نحن بصدده لا نصيب له من الصواب.

٧ - إن الكتاب المقدس ينفى فى بعض آياته بقاء أرواح الأشرار بعد موتهم، لأنه قال عنها إنها تهلك (أمثال ١٠:٢٩). كما يعلن فى آيات غيرها أن الأرواح بصفة عامة مائتة (١كورنثوس ١٥:٥٣). ومن ثم فأرواح الأبرار سوف تتلاشى أيضاً بالموت. ذلك لأن الخلود هو لله دون سواه.

الرد : (ا) إن الكلمة المترجمة إلى العربية «تهلك» ترد فى الأصل اليونانى (التى هى اللغة الأصلية للكتاب المقدس) «ابليومى»، ومعناها الحرفى الإصابة بدمار لا يصلح*. ولذلك فإن هذه الكلمة بعينها ترجمت «الضلال» فى الآية «خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٠:٦)، كما ترجمت «الهلاك» بهذا المعنى بعينه كما فى الآية «جاء (المسيح) لكى يطلب ويخلّص ما قد هلك (من الشر)» (متى ١٨:١١)، أى من دمرته الخطية أدبياً، لأنه إذا كان إنسان قد هلك بمعنى فنى، لا يكون هناك مجال للسعى وراءه أو لخلاصه.

أما من جهة الجزء الثانى من الاعتراض فنقول : إن كلمة «المائت» فى الآية الواردة فى ١كورنثوس ١٥:٥٣ «وهذا المائت يلبس عدم موت»، لا يراد بها الروح، بل الجسد. فقد قال الوحى

* وهكذا الحال فى اللغات الأوروبية جميعاً، فمثلاً كلمة «Perish» الإنجليزية المقابلة للكلمة اليونانية المذكورة أعلاه، تدل فيما تدل عليه من معان، على الضلال والفساد.

فى موضع آخر «لا تملكنّ الخطيئة فى جسدكم المائت لكى تطيعوها فى شهواته» (رومية ٨: ١١)، ذلك لأن هذا الجسد قابل للموت.

(ب) ولكى لا ندع مجالاً للالتباس من جهة معانى الألفاظ الخاصة بهذا الموضوع نقول : إن الخلود يراد به الوجود الذاتى من الأزل إلى الأبد، ومن ثم فهو خاص بالله دون سواه. أما البشر فليسوا من الأزل، كما أنه من المحال أن يزولوا من الوجود ، كما تزول الحيوانات، لأن الله بخلقه إياهم بنسمة أو نفخة منه، جعل لأرواحهم خاصية البقاء. ولذلك فهم باقون ليس بفضلهم الذاتى، بل بفضل الله عليهم، لأنه هو الذى خلقهم على هذا النحو.

٨ ـ إن الأرواح (كما يقول العلماء المتخصصون فى دراستها) تمر بعد خروجها من أجسادها فى مراحل تصبح بعدها مهيأة للوجود مع الله، ولذلك لا يكون هناك مجال أمام أرواح الأشرار للألم والعذاب بعد الموت. وإن شعرت بألم أو عذاب بعده، فإن ذلك سيكون إلى حين وليس إلى الأبد.

الرد : فضلاً عن أن العلماء الذين يدّعون أنهم «علماء الأرواح» قد ثبت انخداعهم بطرق شتى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للأخذ بآرائهم*، نقول : إن الأرواح تنطلق من أجسادها بالحالة التى تكون عليها فى هذه الأجساد . فإن كانت منحرفة عن الله وهى فى أجسادها ، ستكون منحرفة عنه كذلك بعد خروجها منها ، لأن طبيعتها لا تتغير كما ذكرنا فيما سلف. فضلاً عن ذلك فإن القول بمرور أرواح الأشرار بعد خروجها من أجسادها ، فى مراحل تتهيأ بعدها للوجود مع الله، يحط من شأن التقوى والقداسة والأمانة فى العالم الحاضر، كما يترتب عليه أن الأشرار يكونون قد أبغضوا الله ورفضوه وأساءوا إليه فى هذا العالم، وبعد ذلك يكونون قد استطاعوا أن يدخلوا سماءه ويتمتعوا فيها بالغبطة والهناء، جنباً إلى جنب مع الذين أحبوه وأخلصوا له وأكرموه فى حياتهم، وهذا ما يتعارض مع أبسط البديهيات.

فالأرواح تنطلق إلى الأبدية حاملة معها صفاتها التى كوّنتها لذاتها فى العالم الحاضر، وتظل على هذه الحال إلى أبد الآباد. فإذا كانت لها علاقة مع الله وهى فى هذا العالم، ستكون لها أيضاً علاقة معه فى سمائه إلى الأبد. وإذا لم تكن لها علاقة مع الله وهى فى هذا العالم، لن تكون لها أيضاً علاقة معه بعد ذلك، بل تنطلق إلى هاوية العذاب بعيداً عنه، حتى يتقرر مصيرها النهائى فى بحيرة النار حيث العذاب الجهنمى إلى الأبد (رؤيا ٢٠: ١١ ـ ١٥) ـ والآيات الخاصة بالغنى ولعازر الواردة فى لوقا ١٦: ١٩ ـ ٢٧، خير دليل على الحقيقة التى ذكرناها.

---

* تحدثنا عن الموضوع فى كتاب «قيامة المسيح ـ والأدلة على صدقها».

(٦)

الخطيئة والعقوبة الإلهية الأبدية

١- عدالة العقوبة الإلهية :

إن شعور الخطاة فى الأبدية بالآلام الذاتية المتعددة التى ذكرنا طرفاً منها فى الفصل السابق، لا يعفيهم من توقيع القصاص الإلهى عليهم بسبب خطاياهم. ولا غرابة فى ذلك، فشعور المجرمين بالحسرة والندم بعد القبض عليهم لا يعفيهم كما نعلم، من توقيع القصاص القانونى عليهم. ومن ثم فالخطاة لابد أن ينالوا من الله عقاباً عن خطاياهم، كبيرها وصغيرها، حتى إن كانوا قد نالوا قصاصاً عنها فى دنياهم بواسطة المحاكم الأرضية، لأن عقاب هذه المحاكم ليس عن الإساءة إلى الله، بل عن الإساءة إلى المجتمع الذى يعيش فيه الناس.

٢- مدى العقوبة الإلهية :

بما أن قصاص الإساءة يتناسب تناسباً طردياً مع مكانة الشخص المُساء إليه. فإذا وقعت إهانة على شخص قليل الشأن كخادم صغير فى منزل، كان قصاصها لا يذكر، وكان تعويضها (إن كان لابد من تعويض) ضئيلاً. أما إذا وقعت الإهانة على شخص عظيم القدر كملك أو حاكم، كانت الجريمة شنيعة تستحق عقاباً جسيماً لا مجال للتعويض فيه بحال. وبما أن الخطيئة هى إهانة لله الذى لا نهاية لمجده ولا حد لسموه، رذاً فالعقوبة المستحقة عنها هى عقوبة لا نهاية لها. ولذلك لا عجب إذا كان تعالى قد قال لآدم إنه يوم يأكل من الشجرة التى نهاه عنها «موتاً تموت» (تكوين ٢:١٨). ومن مواضع كثيرة فى الكتاب المقدس يتضح لنا أنه تعالى قصد بهذا الموت المؤكد، الموت بأنواعه الثلاثة، أى الأدبى والجسدى والأبدى. وقد تحدثنا فيما سلف عن النوعين الأولين من هذا الموت، ومن ثم نحصر الحديث هنا عن الموت الأبدى.

إن الموت الأبدى هو المُعبَّر عنه فى الكتاب المقدس بالموت الثانى، أو العذاب الأبدى (رؤيا ٢٠:١٤)، وهو قصاص لا نهاية لمدته، لأن الخطيئة كما مرّ بنا هى جريمة ضد الله الذى لا نهاية لمجده، ولا حد لسموه. لذلك قال الوحى عن الأشرار إن نصيبهم هو «البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذى هو الموت الثانى» (رؤيا ٢١:٨). وهذه البحيرة هى جهنم [٦] التى لا تطفأ نارها ولا يموت دودها (مرقس

٩:٤٤) ـ والنار هنا ليست طبعاً ناراً مادية ـ لأن المادة (بالمعنى المعروف لدينا) هى من خصائص الأرض وغيرها من الأجرام ـ ومع ذلك فمن المؤكد أن تأثيرها سيكون للأسباب السابق ذكرها، أشد من تأثير النار المادية بنسبة لا حدّ لها، لأن الفرق بين الإثنين هو فى الواقع الفرق بين الحقيقة والصورة الخاصة بها، وهذا الفرق شاسع للغاية. كما أن الدود الوارد ذكره مع جهنم ليس دوداً بالمعنى الحرفى، إذ أن المراد به وخزات الضمير وتأنيباته اللاذعة، التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق.

٣ ـ الأساس الذى توقع عليه العقوبة :

بما أن من يرتكب خطيئة صغيرة فى نظرنا، يتعدى على شريعة الله ويحرم نفسه من التوافق معه، شأنه فى ذلك شأن من يرتكب خطيئة كبيرة سواء بسواء. إذاً لا غرابة إذا ما طالعنا الوحى بالقول «من قال يا أحمق (فقط) يستوجب نار جهنم*» (متى ٥:٢٢)، كما بالقول إن هذه النار بعينها يستحقها «الخائفون** وغير المؤمنين# والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة» (رؤيا ٢١:٨).

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد هذه الحقائق، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ ـ إن الخطيئة ليست جريمة بل مرضاً متأصلاً فينا، لذلك لا يكون موقف الله إزاءنا موقف القاضى الذى يحكم بالعقاب، بل موقف الطبيب الذى يتولى العلاج.

الرد : بما أننا وإن كنا ورثنا الطبيعة الخاطئة من آدم، غير أننا لا نأتى الخطيئة رغماً عنا بل بإرادتنا كما ذكرنا فى الفصل الأول، لذلك تكون الخطيئة التى نأتيها معصية أو جريمة. والمعصية أو الجريمة لا تقابل بالعطف بل بالعقاب، إلا إذا تاب فاعلها توبة صادقة واعتمد على رحمة الله فى الغفران الذى يتفق مع كمال صفاته جميعاً. فإنه فى هذه الحالة يقف الله منه موقف الطبيب الذى

* لأن من يقول «يا أحمق» يكون مجرداً من المحبة للآخرين والعطف عليهم. وشخص مجرد من هاتين الصفتين لا يستطيع التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، وبالتالى لا يستطيع التمتع به على الإطلاق. وعدم التمتع بالله أو الحرمان منه، هو جهنم بعينها.

** يراد بالخائفين، الأشخاص الذين يخشون الاعتراف بالمسيح لئلا يتعرضوا للاضطهاد. وهؤلاء الأشخاص لا يكونون طبعاً مؤمنين حقيقيين.

لا يراد بغير المؤمنين المشركون والملحدون فحسب. بل يراد بهم أيضاً المؤمنون بالاسم. لأن هؤلاء وإن كانوا يعترفون بالفرائض الدينية أحياناً، غير أنهم لا يستطيعون التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، مثلهم فى ذلك مثل المشركين والملحدين تماماً.

يعالجه ويأخذ بناصره.

٢ - إن الإنسان ليس مسئولاً عن الشر الذى يعمله، لأنه مجبر على عمله بواسطة قوة أعظم منه، سواء أكانت هذه القوة هى قوة الشيطان، أم قوة الغرائز، أم قوة الجبر الإلهى. وإن لم يعمل الإنسان الشر بسبب إحدى هذه القوى، فإنه يعمله بسبب العوامل الاجتماعية القاسية التى تحيط به، ومن ثم لا تجوز معاقبته عما يأتيه من شر.

الرد : إن الإنسان مخلوق عظيم بل إنه أعظم مخلوقات الله قاطبة، ومن ثم استطاع أن يسيطر على الطبيعة ويستغلها لفائدته، كما استطاع أن يحلق فى الفضاء ويهبط على القمر وغيره من الكواكب، مؤيداً بإرادته القوية وعقله الجبار. لذلك لامجال للقول بأنه يعمل الشر مدفوعاً فقط بالغرائز الكامنة فيه. كما أن الشيطان ليست له (كما سيتضح فى الباب التاسع) سلطة على الإنسان، إلا إذا انقاد الإنسان بإرادته وراءه. وهكذا الحال من جهة العوامل الاجتماعية، فإنه مهما كانت قسوتها، لا تؤثر على الإنسان إلا إذا تخلى عن عقله ورضخ لها. والدليل على ذلك أن بعض الفقراء يحيون حياة الأمانة والنزاهة، وأن بعض الأغنياء لا أمانة لديهم أو نزاهة. أما الله فإنه لكماله المطلق، لا يمكن أن يرغم أحداً على فعل الخطيئة. وإذا كان الأمر كذلك، فالإنسان هو الذى يفعلها بمحض إرادته، ومن ثم يجب أن لا يتنصل من المسئولية الملقاة على عاتقه، أو يعارض فيما يستحقه من عقاب بسبب خطاياه.

٣ - إن خطايا الإلحاد والإشراك وحدها هى التى يعاقب الله عنها. أما الخطايا الأخرى فلا يعاقب عنها، لأن البشر لهم العذر أو بعض العذر فى إتيانها، إذ أن طبيعتهم البشرية تدفعهم إليها.

الرد : لا شك أن خطايا الإلحاد والإشراك أشر من غيرها من الخطايا، ولا علاقة لأصحابها مع الله، لا فى العالم الحاضر أو العالم الآخر. لكن يجب أن لا يغرب عنا أنه كما أن الملحدين والمشركين ليست لهم علاقة بالله، فإن باقى الخطاة ليست لهم كذلك علاقة به، لأنهم لا يتوافقون معه فى قداسته وكماله، ولأنهم أيضاً أساءوا إليه بمخالفتهم لشريعته التى أعطاها لهم. لذلك من البديهى أن لا يكون لهم حق التمتع بالله فى الأبدية، وأن ينالوا فيها أيضاً ما يستحقونه من قصاص بسبب خطاياهم - أما الاعتذار عن مخالفتنا لشريعة الله بدعوى وجود طبيعة تميل إلى الخطيئة فينا، فلا مجال له كما ذكرنا فى الفصل الثانى.

٤ - هل من العدالة أن يظل عذاب الخطاة إلى الأبد، مع أنهم لم يستغرقوا فى عمل خطاياهم إلا وقتاً محدوداً؟

الرد : إن العقوبة (كما ذكرنا فيما سلف) تتناسب تناسباً طردياً مع قدر الشخص المُساء إليه، ومن ثم فعقوبة الخطيئة لا تُقاس بالنسبة إلى المدة التى عُملَت فيها، بل بالنسبة إلى شناعتها بوصفها إساءة إلى الله نفسه. وإذا كانت جريمة واحدة تُعمل فى دقائق معدودة، قد يكون عقابها (كما نعلم) الإعدام، أو الأشغال الشاقة مدى الحياة، فلا غرابة إذا كان عقاب الخطيئة عذاباً إلى الأبد.

٥ ـ هل من العدالة أن يطرح الله جميع الخطاة فى جهنم إلى الأبد، مع أن بعضهم أقل شراً من البعض الآخر؟

الرد : مرّ بنا أن الخطاة مهما قلت خطاياهم قد أساءوا إلى الله، كما أبعدوا أنفسهم عن التوافق معه، ولذلك لا جدال أنهم جميعاً سيقضون الأبدية بعيداً عنه، والبعد عن الله مهما كان شأنه هو جهنم بعينها، لأنه لا هناء للنفس إلا بالوجود فى حضرة الله والتوافق معه كما ذكرنا فيما سلف. ومع ذلك، فإنه وإن كان كل الخطاة سيكونون فى جهنم إلى الأبد، غير أن كلاً منهم سيشعر هناك بما يستحقه من عذاب عن خطاياه، وذلك للأسباب الآتية :

(ا) إن الضمير سيكون مصدراً من مصادر العذاب الأبدى. ولذلك فمن فعل خطايا شنيعة، سيكون تأثره بالألم أكثر من تأثر الذين لم يفعلوا مثل هذه الخطايا.

(ب) إن الله له طرقه الخاصة لتحقيق عدالته بدرجة لا يجد الإنسان أو غير الإنسان معها مجالاً للاعتراض، فقد قال الوحى « ... يستد كل فم ويصير كل العالم تحت قصاص من الله » (رومية ٣:١٩).

(جـ) أخيراً نقول إن الله، كما أعلن الوحى، «سيجازى كل واحد حسب أعماله» (رومية ٢:١٦). ولذلك نرى أن أهل كفر ناحوم (الذين كانت لهم فرص للخلاص لم يحظ بشئ منها أهل سدوم) ستكون حالتهم فى الأبدية أقسى من حالة أهل سدوم كثيراً. (متى ١١:٢٣ و ٢٤).

٦ ـ كيف تتفق معاقبة الله للخطاة مع اتصافه بالمحبة والرحمة؟

الرد : إن الله يقدم أولاً للخطاة كل محبة ورحمة، إذ يعرض عليهم الخلاص من دينونة خطاياهم مجاناً (بناء على كفارته العظيمة التى سنتحدث عنها فى الباب السادس)، لأنه تعالى يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون (١تى ٢:٤)، ومن ثم فكل من يرفض محبة الله ورحمته يستحق أن يعامل حسب ناموس عدالته وقداسته. لأن صفاته تعالى لا تطغى إحداها على الأخرى، وذلك لكمال كل صفة من صفاته.

ومن ثم إذا تساءل الناس : كيف يحب الله البشر، وفى الوقت نفسه يسمح بمعاقبتهم من أجل

خطاياهم؟ فالجواب واضح كل الوضوح، إذ فضلاً عن أن العقاب بسبب الخطيئة يتفق مع العدالة، والعدالة لا اعتراض عليها من أحد، فإن محبة الله ليست المحبة العمياء التى لا ترى العيوب والنقائص، أو المحبة الدنسة التى ترضى عن الشرور والآثام، بل هى المحبة المبصرة التى ترى كل الأشياء على حقيقتها، وفى الوقت نفسه هى المحبة المقدسة التى لا ترضى عن هذه الشرور والآثام. ومحبة مثل هذه لا تظهر فقط فى العطف على الأتقياء الذين يحبون الله ويبذلون كل جهدهم للسير فى سبيله، بل تظهر أيضاً فى النفور من الأشرار الذين لا يراعون قداسته ويفسدون أمامه. وإلا لكان تعالى يسر بخطاياهم وتعدياتهم، وهذا ما لا يجوز إسناده إليه بحال. أضف إلى ذلك أن محبة الله التى تبعث إلى أتباعه بالفرح والابتهاج، ستكون هى بعينها العامل الذى، من ناحية أخرى، يشعر الخطاة بأقسى أنواع الألم والعذاب، لأنهم سيدركون فى الأبدية أنهم رفضوا هذه المحبة واحتقروها، مع أنها لم تكن تبغى إلا خلاصهم وإسعادهم.

٧ - إن معاقبة الله للخطاة تدل على أنه يتأثر، والتأثر يقتضى التغيّر، والحال أن الله لا يتغير، لذلك فإنه لا يعاقب الخطاة بل يترك أرواحهم وشأنها فى الفضاء.

الرد : بما أن الله يعرف كل الأشياء قبل حدوثها، إذاً فكراهيته للخطيئة ليست متوقفة على زمن ظهورها فى العالم بل كانت لديه أولاً. ولا غرابة فى ذلك، فإن هذه الكراهية ليست إلا الوجه السلبى لكماله تعالى. ومن ثم فإنه عندما يعاقب الخطاة بسبب خطاياهم لا يثور، كما نفعل نحن، بل يسمح بتوقيع العقوبة عليهم باعتبارها ضرورة قانونية تتفق مع الكمال الذى يلازمه من الأزل إلى الأبد.

٨ - ما الفائدة التى تعود على الله من معاقبة الخطاة؟

الرد : طبعاً إن الله بمعاقبته للخطاة لا تعود عليه فائدة ما، لأنه تعالى كامل فى ذاته كل الكمال، ولا يعود عليه نفع أو خير من أى كائن من الكائنات. وكل ما فى الأمر أنه بمعاقبته للخطاة يتحقق ناموس عدالته، الذى يجب أن يتحقق مهما كانت الظروف والأحوال. ولذلك كما أنه إذا أمسك إنسان ناراً، يحرق نفسه بنفسه كذلك إذا أساء أحد إلى الله، يهلك نفسه بنفسه. وكما أنه لا يجوز للشخص الأول أن يلوم النار لعدم تحولها برداً وسلاماً عليه (لأن النار تحرق، بناء على ناموسها الطبيعى، كل من يمسك بها)، كذلك لا يجوز للثانى أن لا يلوم إلا نفسه عندما يرى ذاته فى العذاب الأبدى، لأنه ليس هناك أمامه مجال للاعتراض - إذ أن الناموس الإلهى هو أن من يتوافق مع الله، يتمتع بالراحة والهناء. وأن من يبتعد عنه لا يكون نصيبه إلا التعاسة والشقاء. وقد أدرك الجاحظ، أحد فلاسفة المسلمين المشهورين هذه الحقيقة فقال "إن نار الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها، دون أن يدخل أحد (بنفسه) فيها. لأن طبيعة أهل النار وفاق النار، وطبيعة أهل الجنة وفاق الجنة" (ضحى

الإسلام ج ٣ ص ١٣٥ و ١٣٦). ورأيه عين الصواب، لأننا نعلم أن شبيه الشئ ينجذب إليه.

ولذلك إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس، نرى أن الله لم يقل لآدم إنه يوم يأكل من الشجرة المنهى عنها يميته تعالى، بل قال له «يوم تأكل منها، موتاً تموت (أنت بنفسك)» (تكوين ٢:١٨). ولم يقل إن الله يجلب الضرر على من يخطئ عنه، بل قال «من يخطئ عنى يضر (هو) نفسه (بنفسه)» (أمثال ٨:٣٦). ولم يقل إن الذين يبغضون الله يدفع بهم إلى الموت الأبدى، بل قال إنهم يحبون (هم أنفسهم) هذا الموت (أمثال ٨:٣٦).

٩ ـ إن الله بسبب رحمته المطلقة لا يرضى أن تظل نفوس الخطاة معذبة إلى الأبد، ولذلك لابد أنه سيفنيها بعد حين *.

الرد : إن الله وإن كان رحيماً كل الرحمة، لكن له قوانينه الخاصة التى تتفق مع عدالته المطلقة. لذلك فالوحى مع إعلانه عن رحمة الله، يقرر مبدأ معاقبته للخطاة بسبب خطاياهم. فقد قال «الرب رحيم ورؤوف، لكنه لا يبرئ إبراء» (خروج ٣٤:٧)، وبما أن الخطاة لا يستطيعون مهما طالت مدة وجودهم فى العذاب، أن يقوموا بإيفاء مطالب عدالة الله لأن هذه لا حدّ لها، إذاً من البديهى أن لا ينتهى عذابهم عند حد ما ـ وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاعتقاد بفناء النفس بعد حين يتعارض مع عدالة الله وعدم محدودية حقوقها، وأنه فى الواقع ليس سوى فكرة ابتدعها بعض الناس رغبة منهم فى إزاحة شبح القصاص الأبدى عن خواطرهم. لكن أمام عدالة الله التى لا تحد حقوقها، لابد أن تتبدد أفكارهم وتصوراتهم جميعاً.

١٠ ـ لكن هل تعجز رحمة الله عن الصفح عن الخطاة وتقريبهم إليه؟

الرد : كلا، إن رحمة الله تتسع لقبول كل الخطاة التائبين، لكن عدم توبتهم هى التى تجعلهم عاجزين عن التوافق معه. كما أنه بسبب كماله المطلق لا يأتى بهم إلى حضرته رغماً عنهم، لأنه لو فعل ذلك لما شعروا بسرور أو راحة فى البقاء معه. ولسعوا تبعاً لذلك للارتداد بكل قواهم عنه. ومن ثم فحرمان العصاة، من التمتع بالله وتعرضهم للعذاب الأبدى تبعاً لذلك، ليس راجعاً إلى القسوة لدى الله من جهتهم ولا إلى نقص فى رحمته تعالى من نحوهم، بل إلى شرهم وعدم رغبتهم فى التوافق معه. أما من جهته فهو يحبهم ويعطف عليهم ولا يريد أى أذى لهم. فقد قال إنه لا يُسَرّ بموت الشرير، بل أن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا (حزقيال ٣٣:١١)، وأنه يريد جميع الناس يخلصون

---

* هذا هو رأى جماعة «شهود يهوه» التى انحرفت عن المسيحية، ورأى فرقة الجهمية التى انحرفت عن الإسلام. غير أن أتباع هذه الفرقة ذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه «شهود يهوه» كثيراً، فقد قالوا إن الجنة والنار تفنيان، وأن أهل الجنة والنار ينتهون إلى حال يبقون فيها جموداً ساكنين سكوناً دائماً.

وإلى معرفة الحق يقبلون (١تيموثاوس ٢:٤)، كما ذكرنا فيما سلف.

١١ - إذا كنا جميعاً خطاة بطبيعتنا وأعمالنا، وبناء على عدالة الله لا خلاص لنا من عقوبة خطايانا، فهل سمح الله بولادتنا فى العالم الحاضر لكى نشقى إلى الأبد؟

الرد : هذا هو اعتراض الإنسان المتمرّد على الحق، والذى عوضاً عن أن يرى عيوبه ويلوم نفسه عليها، يحاول أن يتنصل من تبعة خطاياه لعله يفلت من عدالة الله. فأى عقل راجح يمكن أن يتصوّر أن الله سمح بولادة البشر لكى يشقوا إلى الأبد، ونحن نرى أن غاية الآباء المخلصين (مع ما يوجد بهم من نقائص) هى أن يسعدوا أبناءهم ويبعثوا الفرح والسرور إلى نفوسهم. لذلك لا يمكن أن يكون الله قد سمح بولادتنا فى العالم الحاضر لكى نشقى إلى الأبد، كما يقول أصحاب هذا الاعتراض. ولكننا نحن الذين فى جهلنا نجلب الشقاء على ذواتنا بإساءتنا إلى الله، وإلى أنفسنا أيضاً، ومن ثم فلا يلومنّ أحد إلا نفسه.

ومع كلٍ فقد استطاعت محبة الله ورحمته أن تشقا لهما طريقاً كريماً يتفق مع قداسته وعدالته، لأجل خلاص الخطاة الراغبين بإخلاص فى الرجوع إليه، وذلك بإنقاذهم من عقوبة خطاياهم وتهيئة نفوسهم للتوافق معه فى صفاته الأدبية السامية، كما سيتضح بالتفصيل ابتداء من الباب الثالث. إنما نرى من الواجب قبل التحدث عن هذا الطريق الكريم، أن نستعرض أولاً الوسائل التى يلجأ إليها معظم الناس لكى يحصلوا حسب اعتقادهم على الغفران والقبول لدى الله، لنرى إلى أى حد تجدى وتفيد.



الباب الثانى

الوسائل البشرية للحصول على الغفران

- الصلاة وعلاقتها بالغفران
- الصوم وعلاقته بالغفران
- التوبة وعلاقتها بالغفران
- الصدقة وعلاقتها بالغفران
- الشفاعة وعلاقتها بالغفران

الوسائل البشرية* للحصول على الغفران

إن معظم الذين يدركون شناعة خطاياهم يحاولون استرضاء الله بوسائل شتى، حتى (حسب اعتقادهم) يغفر لهم. وأهم هذه الوسائل هى الصلاة والصوم، والتوبة والصدقة والاستشفاع بالقديسين والصالحين، كما ذكرنا فى المقدمة. ولكى تتضح لنا قيمة هذه الوسائل بصفة عامة من جهة جواز الحصول على الغفران بها نقول : لنفرض أنه عندما حكم على إنسان بالإعدام لقتله آخر عمداً، مثلاً، أخذ يستعطف القاضى ويتذلل أمامه، أو امتنع عن الطعام والشراب أمداً طويلاً، أو تعهد بكل إخلاص أن لا يرتكب جريمة أخرى، أو وهب كل أمواله للفقراء والمساكين، أو التجأ إلى ذوى الشأن لكى يقوموا له بدور الوساطة والشفاعة أو .. أو .. فهل تعتبر هذه التصرفات أمام نزاهة العدالة المطلقة، أسباباً كافية لتبرئة الإنسان المذكور، أو حيثيات قانونية لإلغاء أو تخفيف حكم الإعدام الصادر ضده؟ طبعاً لا، لأن التصرفات المذكورة لا تستطيع أن تعيد إلى قوانين الدولة كرامتها بالدرجة التى تصبح معها كأنه لم يعتد عليها، ولا أن تعيد الحياة إلى القتيل حتى ينهض من موته ويحيا. ولذلك لا يمكن تبرئة هذا القاتل أو تخفيف الحكم الصادر ضده بل يجب تطبيقه عليه كما هو، تنفيذاً لمطالب العدالة، وتعويضاً عن نفس القتيل أيضاً.

وعلى هذا النسق تماماً نقول : بما أن الخاطئ لم يفسد فقط نفسه التى ائتمنه الله عليها، بل تعدّى أيضاً على شريعته تعالى، إن لم يكن قد أساء كذلك إلى بعض الناس. وبما أن صلواته مهما طالت، وأصوامه مهما كثرت، وصدقاته مهما عظمت، وتوبته مهما صدقت، وشفاعة القديسين والصالحين (إن كانت لهم شفاعة)، لا تستطيع أن تفى مطالب قداسة الله وعدالته. لأن هذه الأعمال :

أولاً : لا تستطيع أن تعيد إلى الخاطئ حياة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة، حتى يتيسر له التوافق مع الله فى قداسته وغيرها من الصفات الأدبية السامية.

ثانياً : لا تستطيع أن تعيد إلى عدالة الله كرامتها بالدرجة التى تصبح معها كأنه لم يعتد عليها، حتى تعتبر الأعمال المذكورة تعويضاً مناسباً لحقوقها (لأن عدالة الله لا حد لقدرها، بينما الأعمال المذكورة محدودة فى قدرها - والأمور المحدودة فى قدرها لا تفى مطالب أمر لا حد لقدره)،

---

* نسميها البشرية، لأن البشر هم الذين يقومون بها.

إذاً فكل الأعمال الصالحة التى يعملها الخاطئ، وإن كانت لها قيمتها وقدرها من نواح خاصة (كما سيتضح فيما يلى)، غير أنها ليست بكافية لتأهيله للوجود مع الله أو التمتع بصفحه وغفرانه. ولا مجال للاعتراض على ذلك، إذ أن الله بقدر ما هو رحيم رؤوف، هو عادل وقدوس، لأنه تعالى كامل كل الكمال من جهة كل صفة من صفاته. ومن ثم لا يمكن أن يغفر إلا إذا وفيت مطالب عدالته، ولا يقرب أحداً إليه إلا إذا كان هذا يستطيع التوافق معه فى قداسته، وغيرها من الصفات الأدبية السامية.

ولكى لا ندع مجالاً للشك أمام أحد من جهة ما ذكرناه، ندرس كلا من وسائل الغفران البشرية بشئ من التفصيل، فى الفصول التالية.



(١)

الصلاة وعلاقتها بالغفران

١ـ ما هية الصلاة والغرض الحقيقى منها :

الصلاة فى المفهوم المسيحى ليست مجرد ترديد كلمات الحمد والتعظيم لله بما يصاحبها من وقوف وركوع، أو مجرد توسلات للحصول على الصفح والغفران بما يرافقها من رفع أيدى وخفضها (كما يظن بعض الناس*)، بل إنها قبل كل شئ هى الارتقاء بنفوسنا عن كل ما يتعلق بالعالم حتى نلتقى بالله فى أقداسه، ونحن فى حالة التوافق معه فى صفاته السامية. وفى هذا الجو السامى، يمكن أن ندرك شيئاً من جلال الله ومحبته، فنتعبد له ونشكره من كل قلوبنا (يوحنا ٤:٢٤، ١ تسالونيكى ٥:١٨). كما يمكن أن نعرف الأمور التى نحتاج فعلاً إليها، فنطلب منها ما يتفق مع مشيئته (١يوحنا ٥:١٤)، ونتقبل منه بعد ذلك بالإيمان إجابته الكريمة عنها. فضلاً عن ذلك، يمكننا أن نعرف فى هذا الجو، الخدمات التى يطلب الله منا القيام بها فى العالم الحاضر، ونتقبل منه المعونة التى تساعدنا على تأديتها بكل دقة وإخلاص.

---

* إننا لا ننتقد السجود أو رفع الأيدى عند الصلاة، لأن الكتاب المقدس قد أعلن لنا عن هذا وذاك. اقرأ مثلاً (أعمال ٢١:٥، رؤيا ٥:١٤، ١تيموثاوس ٢:٨)، بل ننبه إلى أن هاتين الحركتين لا تجعلان للصلاة قيمة، إذا كان القائم بها غير حائز لرضا الله.

فالصلاة لدينا، ليست فرضاً نقوم به كما يقوم العبد بواجب نحو سيده، بل هى صلة متبادلة بيننا وبين الله جل شأنه، لا نستطيع الاستغناء عنها لحظة. فنحن فى حاجة إليها حاجتنا إلى الماء للارتواء أو الهواء للتنفس، ومن ثمّ لم يُعيّن الله لنا أوقاتاً محددة يجب علينا أن نصلى فيها. وذلك لثلاثة أسباب :

الأول : ليس هناك وقت أفضل من آخر لديه.

الثانى : إنه على استعداد فى كل الأوقات لسماع الصلاة.

الثالث : إن حاجتنا إلى الله ليست مرتبطة بأوقات خاصة، بل إننا فى حاجة إليه فى كل حين.

لذلك وإن كنا نصلى فى أوقات متفرقة من النهار، يجب أن نحفظ قلوبنا فى حالة الصلة المستمرة بالله. فقد قال الوحى «مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت فى الروح» (أفسس ٦:١٨). كما قال «لا تهتموا بشئ، بل فى كل شئ بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله» (فيلبى ٤:٦). وقال «واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشكر» (كولوسى ٤:٢). وقال «صلوا كل حين» (أعمال ١٠:٢)، وبلا انقطاع (١تسالونيكى ٥:١٧) ولأجل جميع الناس (١تيموثاوس ٢:١).

٢ - شروط الصلاة فى المسيحية : يجب :

أولاً : أن تكون بالروح القدس والحق* (يوحنا ٤:٢٤)، وبالذهن أيضاً (١كو رنثوس ١٤:١٥)، وذلك مع القداسة القلبية التى تليق بالله (عبرانيين ١٢:٢٤، مزمور ٢٤:٤).

ثانياً : أن لا تكون منقولة عن أحد أو محفوظة عن ظهر قلب، بل أن تكون من إنشاء المصلى بتأثير روح الله فى قلبه (مزمور ٤٥:١).

ثالثاً : أن لا تتكرر عباراتها بقصد إطالتها (متى ٦:٧).

رابعاً : وإذا كانت الصلاة فردية، يجب أن لا تكون على مرأى من الناس بل فى المخدع، إذ هناك يمكن للمصلى أن يختلى بالله ويناجيه (متى ٦:٥ و ٦).

٣ - عجز الخاطئ عن القيام بالصلاة :

فى ضوء ما تقدم نقول : بما أن الخاطئ فضلاً عن أنه أساء بخطيئته إلى الله وكسر شريعته (الأمر الذى يحول بينه وبين مواجهة الله والمثول فى حضرته) قد أصبح فى ذاته عاجزاً عن التوافق معه فى صفاته الأدبية السامية (ولا غرابة فى ذلك، فنحن نعلم أن اختلاف الطبائع يحول دون التوافق.

---

* أي بعمل روح الله فى النفس، وذلك فى حدود الحق الإلهى الصافى، بعيداً عن الشعائر والطقوس البشرية كل البعد.

فالدنئ لا يتوافق مع النبيل، والبخيل لا ينسجم مع الكريم، والنجيس لا يتآلف مع القديس، وهلم جرا ..)، لذلك فالخاطئ لا يستطيع أن يتصل من تلقاء ذاته بالله أو يتحدث معه، وبالحرى لا يستطيع أن يرفع صلاة حقيقية إليه - وإذا كان الأمر كذلك، لا تكون صلاة الخاطئ سوى عبارات ينطق بها أمام من يتصور أنه الله، ومن ثم يكون مثله مثل شخص يعيش فى عالم الخيال، أو ممثل يؤدى دوراً من الأدوار. وإن شئت، فقل مثل إنسان يرفع بوق التليفون إلى فمه، ودون أن يتصل بأحد ما، يأخذ فى الكلام .. فإنه يتكلم ما شاء له الكلام، لكن لا يكون هناك سميع أو مجيب.

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد هذه الحقائق ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ ـ إن الله لا يمكن أن يتغاضى عن صراخ الناس حتى الخطاة منهم، لأنه على أى حال خالقهم، والخالق لا يهمل خلائقه.

الرد : لا شك أنه إذا وقع الخطاة فى ضيقة ما، وصرخوا من كل قلوبهم إلى الله، فإنه ينقذهم من هذه الضيقة. لكن هذا الإنقاذ لا يدل على أنه قرّبهم إليه أو غفر لهم خطاياهم. ذلك لأن صراخهم له لا يعيد إليهم حياة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة، حتى يستطيعوا التوافق مع الله فى قداسته وغيرها من الصفات الأدبية السامية. أو يعيد إلى حقه تعالى قدسيته بالدرجة التى يصبح معها كأنه لم يعتد عليه بواسطتهم، حتى يصفح تعالى عنهم - ومن ثم فمثلهم والحالة هذه مثل جماعة من الأشرار أساءوا كثيراً إلى إنسان طيب القلب عظيم القدر، وبعد ذلك وقعوا فى أزمة شديدة ألجأتهم إليه. فإن حصلوا منه على معونة ما، لا يكون ذلك دليلاً على أنهم أصبحوا بلا لوم أمامه، أو صاروا من الخاصة الذين يطيب له العيش معهم.

٢ ـ الخطاة إن لم يكونوا من الملحدين أو المشركين، ليسوا بعيدين عن الله، بل يعرفون الشئ الكثير عنه. ولذلك إذا طلبوا منه الغفران، يغفر لهم ولا شك.

الرد : هناك فرق كبير بين معرفة الله والمعرفة عن الله، فالثانية تدل فقط على إدراك بعض الأمور عنه، أما الأولى فتدل على العلاقة الشخصية به والتوافق الكلى معه. «فمعرفة الله»، وليس «المعرفة عن الله» هى إذاً التى تؤهل صاحبها للاقتراب إليه والإفادة منه. والآن لنتساءل : هل الناس الذين يعيشون فى الخطيئة، يعرفون الله، أم يعرفون فقط عنه؟ طبعاً إنهم لا يعرفونه، بل يعرفون فقط عنه. لأنهم لو كانوا يعرفونه، لكانوا يلتصقون به، ولا يسيئون إليه. وإذا كان الأمر كذلك، لا تكون لهؤلاء الناس علاقة شخصية بالله، ولا يكون إيمانهم الذى يتشدقون به إيماناً حقيقياً بل إيماناً اسمياً، والإيمان

الإسمى لا وزن له ولا قدر عنده تعالى. فالشياطين أيضاً يؤمنون بالله، ومع ذلك فإنهم بعيدون عنه كل البعد.

كما أن طلب الصفح والغفران وإن كان يدل على الرغبة فى استرضاء الله والتقرب إليه، لكنه فى ذاته : أولاً - لا يعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التى يصبح معها كأنه لم يعتد عليه، حتى يكون تعويضاً مناسباً له. ثانياً - لا يعيد إلى طالبى الغفران حياة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة، حتى يتسنى بهم التوافق مع الله فى كماله كما ذكرنا، لذلك لا يمكن أن يصفح الله عن الخطاة ويقرّبهم إليه لمجرد طلب الغفران منه.

٣ - إذا كان الأمر كذلك، فكيف يتصل الصوفيون بالله ويرونه ويشعرون بسرور باطنى فى العلاقة معه، مع أنهم خطاة مثلنا؟

الرد : إن الأتقياء من الصوفيين وإن كانوا على اختلاف أديانهم أفضل من غيرهم من الناس، لانصرافهم عن أهواء العالم، وتأملهم فى الله دون سواه، لكن إن لم يكونوا قد نالوا منه طبيعة روحية تؤهلهم للتوافق معه فى قداسته وغيرها من صفاته الأدبية السامية، وبواسطة ما وفيت مطالب عدالته من نحوهم، لا يمكن أن تقوم بينهم وبين الله علاقة حقيقية على الإطلاق، ومن ثم يكون موقفهم من الله موقف غيرهم من الخطاة سواء بسواء. وإذا كان الأمر كذلك، يكون السرور الذى يقولون عنه، ليس صادراً عن علاقة حقيقية لهم بالله، بل عن تصورهم أن لهم علاقة معه، وأنهم يقومون بالواجب عليهم من نحوه. ومن ثم يكون هذا السرور سروراً وهمياً لا حقيقياً، ويكون شأنهم فى ذلك شأن الناس الذين بسبب سيطرة عواطفهم على عقولهم، كثيراً ما يعتقدون أن الخواطر التى تجول فى نفوسهم، هى حقائق واقعة أمامهم. ولذلك يتأثرون بها ويتحدثون عنها كأنهم يرون أحداثها فعلاً قبالتهم، وهؤلاء الناس كما نعلم، لا يوثق بكل خبر ينقلونه إلينا.

ومع كل فقد أعلن الوحى بعبارات لا تقبل الشك أن الله لا يطيق صلاة الخطاة، وأنه ليست لهم علاقة به على الإطلاق. فقد قال «من يحوّل أذنه عن سماع الشريعة، فصلاته أيضاً مكرهة» (أمثال ٩:٢٨). كما قال للخطاة «آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم*، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع» (إشعياء ٢:٥٩). وقال الله لهم أيضاً «حين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع» (إشعياء ١٥:١). وقد اختبر داود النبى هذه الحقيقة فقال «إن راعيت إثماً

* فالآثام لا تفصل بين الله وبيننا، بل بيننا وبين الله. وذلك لأه تعالى يتجه إلينا بمحبته التى لا حد لها فى كل حين، داعياً إيانا للدنو منه والتمتع بهباته، إنما نحن الذين فى عنادنا أو قصورنا لا نتجاوب معه.

فى قلبى، لا يستمع لى الرب» (مزمور ٦٦: ١٨). ولذلك قال إنه لا يستطيع أن يصلى لله إلا الطاهر اليدين* والنقى القلب (مز ٢٤: ٤)، إذ أنه تعالى قدوس كل القداسة ولا يطيق الإثم على الإطلاق.

فضلاً عن ذلك فقد أعلن الوحى أن الأنبياء والرسل أنفسهم لم يستطيعوا أن يواجهوا الله، فموسى النبى مع كونه كليم الله، قال عندما تجلى الله له «أنا مرتعب ومرتعد» (عبرانيين ١٢: ٢١). وإشعياء النبى على الرغم من أمانته وتقواه، قال عندما رأي الله فى رؤيا خاصة «ويل لى إنى هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين**.. لأنى عينى قد رأتا الملك رب الجنود#» (إشعياء ٦: ٥). ويوحنا الرسول مع محبته الشديدة للرب وعلاقته القوية به، سقط على وجهه كميت عندما تراءى له الرب فى مجده (رؤيا ١: ١٧)، ذلك لأن الإنسان فى طبيعته البشرية الراهنة، لا يستطيع أن يمثل فى حضرة الله مهما بلغ أسمى درجات التقوى. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاتصال بالله والتمتع به بعيدان كل البعد عن الخطاة، مهما كثرت صلواتهم وتضرعاتهم.

٤ ـ وهل يستوى الخاطئ الذى يطلب من الله بكل تذلل وإخلاص أن يرحمه ويغفر له خطاياه، والخاطئ الذى لا يبالى بالصلاة، أو يكتفى بالصلاة الشكلية التى لا قيمة لها؟

الرد : طبعاً لا يستويان، بل من المؤكد أن الله ينظر إلى الأول بعين العطف والشفقة. لكن عطف الله وشفقته شئ، والاعتقاد بأن الصلاة هى التى تجلب الغفران والقبول أمام الله شئ آخر. إذ أن الصلاة لأنها لا تكفى وحدها لإيفاء مطالب عدالة الله، أو إعادة الإنسان إلى حالة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة، لا يمكن أن تكون ثمناً للغفران أو وسيلة للتمتع بالله. وكل ما فى الأمر أنها إذا كانت بإخلاص، فهى تهيئ فقط القائم بها للحصول على هذين الامتيازين، إذا وفيت مطالب عدالة الله وقداسته من جهته بوسيلة إلهية خاصة، كما كانت الحال مع كرنيليوس الوارد ذكره فى أعمال ١٠. وهذه الوسيلة هى موضوع حديثنا فى الأبواب التالية.



* المراد بطهارة اليدين ليس غسلهما بالماء، بل خلوهما من عمل الشر.

** «نجاسة الشفتين» تفوهما بالكلام الباطل، لأنه لا يتفق مع قداسة الله وكماله.

الجنود هنا هم الجنود السماويون أو بالحرى الملائكة.

(٢)

الصوم وعلاقته بالغفران

١ - الأغراض التى يصوم الناس من أجلها :

إن كثيرين يصومون إما للتمسك بعقيدة دينية ابتغاء مرضاة الله أو للشعور بالجوع حتى يعطفوا على الفقراء والمساكين، أو للمحافظة على المظاهر الدينية بين إخوانهم، أو لتحسين حالتهم الصحية على نحو ما - لكن هذه الأغراض بعيدة عن حق الله كل البعد، لأن العقيدة الدينية إن كانت لا تؤدى إلى التحرر من الخطيئة والتوافق مع الله فى قداسته وصفاته الأدبية السامية الأخرى، تصبح فلسفة شخصية لا عمل لها إلا شحن العقل بنظريات وآراء خاصة. ولأن العطف على الفقراء والمساكين لا يتولد من الإحساس بالجوع، بل من الخلق الكريم. والدليل على ذلك أن كثيرين من الصائمين لا يبالون فى أثناء الصوم بهؤلاء أو أولئك. وإن تصدقوا أحياناً عليهم فى أثنائه، قلما يبالون بهم بعد انتهائه. فضلاً عن ذلك لو كان الغرض من الصوم هو الإحساس بالجوع، لما كان للفقراء أن يصوموا أبداً، وذلك لإحساسهم بالجوع فى كل يوم من الأيام. ولأن الصوم لمجرد احترام المظاهر الدينية بين من تعاشرهم، لا يعتبر فضلاً فى نظر الله، بل رياء وتظاهر منا بغير الحقيقة. ولأن تحسين الحالة الصحية ليس له علاقة بالله، إذ كثيراً ما يستغل الناس صحتهم الجسدية فى عمل الخطيئة، ومن ثم فلا ثواب من الله لمن يصوم لأجل غرض من الأغراض المذكورة.

ولذلك قال الله للذين يصومون عن الطعام دون أن يقلعوا أولاً عن الخطيئة والشر : «لمَا صمتم ونحتم، فهل صمتم لى أنا ؟ ولِمَا أكلتم وشربتم، أمَا كنتم أنتم الآكلين وأنتم الشاربين .. اقضوا قضاء الحق واعملوا إحساناً ورحمة» (زكريا ٧:٥ - ١٠). كما خاطب الذين ينادونه «لماذا صمنا ولم تنظر، ذللنا أنفسنا ولم تلاحظ»، بالقول اللاذع «ها إنكم فى يوم صومكم توجدون مسرة (لأنفسكم)، وبكل أشغالكم تسخرون (أجراكم) .. أمثل هذا يكون صوماً أختاره : يوماً يذلل الإنسان فيه نفسه، يحنى كالأسلة* رأسه ويفرش تحته مسحاً** ورماداً. هل تسمى هذا صوماً ويوماً مقبولاً للرب؟ أليس هذا

* «الأسلة» نبات له أغصان هزيلة تتدلى إلى أسفل.

** «المسح» هو الخيش الذى يصنع من أردأ الكتان. =

صوماً أختاره : حل قيود الشر (والخطيئة) فك عقد النير# (عن المظلومين)، اطلاق المسجونين (الأبرياء) أحراراً؟ أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك؟» (إشعياء ٥٨: ٣ - ٧).

٢ - ماهية الصوم والغرض الحقيقي منه :

الصوم لغة، هو الانقطاع عن شئ ما، وبالرجوع إلى الكتاب المقدس يتضح لنا أنه يراد به ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب، أو الشرور والآثام، بل والامتناع لمدة من الزمن أيضاً عن كل ما يشغل المرء عن قضاء مدة طويلة فى حضرة الله، حتى يتفرغ الصائم تفرغاً تاماً لسكب قلبه أمام الله والتضرع بلجاجة إليه فى هذه المدة. وذلك إما لأجل النمو فى الحياة الروحية، أو خلاص بعض الأشخاص من الخطية، أو إنقاذ آخرين من ضيقة أو بلية، أو غير ذلك من الأمور التى تمجّد الله وتعود بالخير على الناس. فالصوم إذاً ليس غرضاً مقصوداً لذاته حتى يكون له جزاء خاص، بل هو وسيلة للقيام بالصلاة على أفضل حال. لذلك يقرن الوحى الصوم بالصلاة، فسجل عن الرسل أنهم صاموا وصلوا (أعمال ١٣: ٣)، وأنهم كانوا يخدمون الرب ويصومون (أعمال ١٣: ٢)، وأن الروح النجس العنيد لا يخرج إلا بالصوم والصلاة (متى ١٧: ٢١)، وأن المؤمنين يجب أن يتفرغوا للصوم والصلاة (١كورنثوس ٧: ٥) - اقرأ أيضاً (عزرا ٨: ٢٣ ، نحميا ١: ٤ ، دانيال ٩: ٣ ، يوئيل ٢: ١٢).

فالصوم فى المسيحية مثل الصلاة تماماً، ليس فرضاً بل عملاً حيوياً لا نستطيع الاستغناء عنه.

٣ - شروط الصوم : يجب :

أولاً : أن يكون بدافع من رغبتنا الشخصية للحصول من الله على بركات روحية أو مادية لنا أو لغيرنا من الناس، وليس لمجرد الطاعة لأمر أو وصية. ولذلك لم يحدد الكتاب المقدس لنا أوقاتاً خاصة للصوم. ومع كلٍ فأكثر المؤمنين قرباً من الله، أكثرهم صياماً.

ثانياً : كما أن الصوم عندما يكون خاصاً، يجب أن لا يبدو لأحد من الناس، بل يجب أن يكون بين الصائم وبين الله فحسب (متى ٦: ١٦و ١٧).

ثالثاً : أن لا يتجه الصائم إلى شئ من المتع الجسدية (مثل الاستماع إلى الأغانى العالمية أو الانصراف إلى التسليات الدنيوية أو .. أو ...)، لأن هذه الأمور إن لم تعمل على إثارة الشهوات

= وكان بعض الناس يجلسون عليه أو يلبسونه بعد صبغه باللون الأسود، كعلامة للحزن والاتضاع أمام الله.

«النير» هو قطعة الخشب التى توضع على عنق الثيران فى أثناء الحرث وغيره، وتستعمل هنا مجازاً للدلالة على الذل والاستعباد.

والأهواء فى النفس، فهى تبعدها عن التوافق مع الله فى قداسته الخاصة، ومن ثم فالواجب على المؤمنين الحقيقيين أن يتجنبوها ليس فى وقت الصيام فحسب، بل وفى غيره من الأوقات أيضاً، حتى لا تتعطل صلتهم الروحية بالله.

مما تقدم يتضح لنا أن اتهام المسيحيين بأنهم لا يصومون عن الطعام والعلاقات الزوجية إلا فى وقت نومهم، هو محض افتراء.

٣ - عجز الخاطئ عن القيام بالصوم حسب مشيئة الله :

والآن لنتساءل : *من هو الذى يدرك معنى الصوم، ويستطيع ممارسته والحصول على الفوائد المترتبة عليه؟*

الجواب : طبعاً ليس الشخص السالك فى الخطيئة، بل البعيد عنها والمتمتع أصلاً بالعلاقة الحقيقية مع الله. كما أن هذا الشخص لا يريد من الله جزاء عن صومه، إذ يكفيه أنه بواسطة الصوم يستطيع أن يتمتع بالله أكثر ويخدمه أكثر.

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد هذه الحقائق، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ - إن الصوم يضعف الجسد ويؤدى إلى التخلص من الخطيئة، كما يساعد المرء على التحلى بالصبر والتسامى إلى حياة الصفاء مع الله، لذلك يكون هو السبيل إلى الغفران والقبول أمامه تعالى.

الرد : (أ) إن الخطيئة ليست فى الجسد المادى حتى يمكن تجنبها بإضعافه عن طريق الامتناع عن الطعام والشراب مدة من الزمن، بل إنها فى النفس. فيد السارق ، مثلاً، لا تختلف فى تركيبها الجسمانى عن يد الأمين فى شئ، إنما الفارق بينهما هو أن نفس الثانى أمينة، ولذلك توحى إليه بمراعاة الأمانة، أما نفس الأول فغير أمينة ومن ثم توعز إليه بالسرقة. ومما يثبت ذلك أيضاً أن معظم الصائمين، وإن كانوا لا يفعلون فى الظاهر الخطايا التى اعتادوا عليها ، غير أنهم قد يشتهونها ويفكرون فيها ويتحدثون عنها ، وهذا هو الخطيئة بعينها - ومن ثم فالصوم وحده لا يعيد إلى الخطاة حياة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة، وبالتالى لا يؤهلهم للتمتع بالله أو التوافق معه فى صفاته الأدبية السامية.

(ب) فضلاً عما تقدم فالصوم وإن كان فى أحسن حالاته مظهراً من مظاهر الاتضاع والتذلل أمام الله، غير أنه لا يعيد إلى عدالته حقها بالدرجة التى تصبح معها كأنه لم يعتد عليها ، لأن أثر الصوم

محدود ، ومطالب عدالة الله ليس لها حدود ، والشئ المحدود لا يفى مطالب أمر ليس له حدود ، لذلك فالصوم وحده لا يكون أيضاً وسيلة للحصول على الصفح والغفران.

٢ ـ إن هل يستوى الخاطئ الذى يصوم بتذلل وإخلاص لله لكى يرحمه ويغفر خطاياه، والذى لا يصوم أو يصوم للأغراض الشخصية السابق ذكرها؟

الرد : طبعاً لا يستويان، بل من المؤكد أن الله ينظر إلى الأول بعين العطف والشفقة، لكن عطف الله وشفقته شئ، والاعتقاد بأن الصوم هو الذى يأتى لنا بالغفران ويؤهلنا للتمتع بالله شئ آخر. إذ أن الصوم، لأنه لا يفى وحده مطالب عدالة الله وقداسته، لا يمكن أن يكون ثمناً للغفران أو التمتع بالله. وكل ما فى الأمر أنه إذا كان بإخلاص، فهو يهيئ القائم به للحصول على هذين الامتيازين، على شرط أن يكون هناك أولاً إيفاء لمطالب عدالة الله وقداسته بوسيلة إلهية خاصة، كما كانت الحال مع كرنيليوس (أعمال ١٠) كما ذكرنا فيما سلف.



(٣)

التوبة وعلاقتها بالغفران

١ ـ ماهية التوبة :

التوبة ليست هى الندم على فعل الخطيئة فحسب، بل وأيضاً هى الانصراف الكلى عنها ، وذلك إكراماً لله ومحبة فيه. أما الامتناع عن الخطيئة لمجرد الخوف من نتائجها ، أو الامتناع عنها مع بقاء التفكير فيها واشتهائها ، فلا يعتبر فى نظر الله توبة على الإطلاق، بل يعتبر فى الحالة الأولى خدمة للصحة والذات، وفى الحالة الثانية خداعاً للنفس وتضليلاً لها . ولذلك قال الوحى عن الخطاة إنه يجب أن يتوبوا عن خطاياهم وليس هذا فقط بل وأيضاً أن يرجعوا إلى الله، عاملين أعمالاً تليق بالتوبة (أعمال ٢٦ : ٢٠). كما قال لهم «توبوا وارجعوا عن كل معاصيكم. واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة» (حزقيال ١٨ : ٣٠ و ٣١).

٢ ـ توبتنا فى ضوء الحقيقة :

بما أننا مهما تبنا عن الخطيئة إكراماً لله ومحبة فيه، قد نخطئ أحياناً بالقول والفكر، إن لم يكن

بالفعل أيضاً. وبما أن الخطأ أياً كان نوعه، يحرم النفس من التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية. إذاً فليست هناك فى الواقع توبة كاملة لأحد منا أمام الله.

٣ - أثر التوبة من جهة الغفران والقبول أمام الله :

لنفرض أن إنساناً اختلس مبلغاً من المال من الهيئة التى يعمل فيها. وكانت الضرورة تقضى بسداد هذا المبلغ إليها، وإلا فُصل من عمله وقُدِّم للمحاكمة. ولكن عوضاً عن أن يسعى هذا الإنسان لسداد المبلغ المذكور، أخذ يبكى على جريمته ويعلن توبته عنها، فهل يستطيع بتصرفه هذا أن يمحو ما لحق به من وزر، أو يصبح أهلاً للبقاء فى عمله! طبعاً كلا. وإذا كان الأمر كذلك، ألا يكون بكاؤه وتوبته بدون جدوى، إلا إذا أشفق عليه إنسان كريم، وقام بسداد المبلغ المختلس للهيئة المذكورة نيابة عنه؟!

وعلى هذا النسق نقول : بما أننا بارتكاب الخطيئة نتعدى على حق الله ونفسد أنفسنا أيضاً، وبما أن التوبة مهما صدقت لا تعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التى يصبح معها كأنه لم يعتد عليه (لأن أثر هذه التوبة محدود، وحق الله غير محدود، والشئ المحدود لا يفى مطالب أمر ليس له حدود)، أو تعيد إلى نفوسنا حياة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة (لأن التوبة مهما بلغت أسمى درجات الإخلاص والأمانة، لا تجعلنا كاملين فى كل ناحية من النواحى)، لذلك لا نستطيع بالتوبة وحدها أن ننال غفراناً من الله أو قدرة على التوافق معه والتمتع بحضرته، إلا إذا وفيت أولاً مطالب عدالته وقداسته من نحونا بوسيلة إلهية خاصة، كما ذكرنا.

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد هذه الحقائق، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ - كيف لا تكون التوبة الحقيقية، أو بالحرى بدء صحيفة جديدة فى الحياة، وسيلة للصفح عما مضى من الخطايا؟!

الرد : إذا تاب إنسان توبة حقيقية عن الخطيئة فى كل مظهر من مظاهرها (وإن كان هذا من المتعذر على الإنسان القيام به من تلقاء ذاته، كما ذكرنا)، فإنه لا يكون قد فعل أكثر مما يجب عليه، أو بالحرى لا يكون قد أتى جميلاً يمكن أن يكون تعويضاً عن خطاياه الماضية. حقاً قد ينسى الإنسان هذه الخطايا، وقد ينساها الناس أيضاً، لكن الله لا ينساها، فالماضى والحاضر والمستقبل حاضر أمامه. ولذلك قال الحكيم «الله يطلب ما قد مضى» (جامعة ٣:١٥). ومن ثم فالتوبة مهما كان شأنها، ليست بكافية للصفح عما مضى من خطايا - ولإيضاح هذه الحقيقة إلى حد ما، لنفرض أن

الموظف السابق ذكره تاب عن جريمته عقب ارتكابها ولكن بعد مدة من الزمن، فحص مفتش ، مثلاً، دفاتر هذا الموظف واكتشف ما فيها من اختلاس، فهل يعتبر هذا الموظف أميناً فى عمله ولا تجوز معاقبته؟ **الجواب:** طبعاً كلا. وإذا اعتذر هذا الموظف بأن الاختلاس حدث من مدة طويلة، وأنه كان أميناً بعد ذلك كل الأمانة، فهل يقبل المفتش اعتذاره ويقرر براءته؟ طبعاً كلا. وهكذا الحال من جهتنا أمام الله بالنسبة إلى الخطايا السالفة، على فرض أننا عشنا بعدها دون أن نعمل خطيئة على الإطلاق.

٢ ـ ألم يصفح الله عن أهل نينوى عندما صاموا وتابوا (يونان ٣:٥ ـ ١٠)، فكيف لا تكون التوبة هى الوسيلة للغفران والقبول أمام الله؟!

الرد : إن الصفح عن أهل نينوى لم يكن الغرض منه تقريبهم إلى الله أو إعطاءهم طبيعة روحية يتوافقون بها معه إلى الأبد، بل كان الغرض الأول والأخير من هذا الصفح (كما يتضح من سفر يونان)، هو فقط رفع الكارثة التى كان الله مزمعاً أن يصبها عليهم بسبب فداحة آثامهم . وقد ذكرنا فيما سلف أن الله يسمع للخطاة عندما يطلبون منه بكل قلوبهم أن ينجيهم من ضيقة ما .

٣ ـ هل يستوى عند الله من يتوب ابتغاء مرضاته تعالى، ومن يتوب لأغراض شخصية، أو لا يتوب على الإطلاق؟!

الرد : طبعاً لا يستويان، بل من المؤكد أن الله يعطف على الأول ويفتح أمامه المجال للغفران والقبول لديه تعالى، إذا تم إيفاء مطالب عدالته وقداسته من جهة هذا الإنسان بوسيلة إلهية خاصة كما ذكرنا ، لأن الله بقدر ما هو رحيم رؤوف هو عادل وقدوس.



(٤)

الصدقة وعلاقتها بالغفران

١ـ حدود الصدقة والأعمال الصالحة فى المسيحية :

إن المبلغ الذى يجب أن نقدمه نحن المسيحيين للأعمال الخيرية، إن لم يزد عن عُشر ما نكسبه من مال، يجب أن لا يقل عنه بحال (تثنية ١٢:١٧، متى ٥ : ٢٠). ولذلك قال الوحى لنا : كونوا أسخياء فى العطاء، كرماء فى التوزيع (١تيموثاوس ٦:١٨) ـ هذا مع العلم بأن عمل الخير والصلاح، يجب أن يكون موجهاً إلى جميع الناس (١تسالونيكى ٥:١٥) حتى إلى الأعداء منهم. فقد قال الوحى «إن جاع عدوك فاطعمه وإن عطش فاسقه» (رومية ١٢ : ٢٠)، كما قال «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم» (متى ٥:٤٤).

٢ـ الصدقة فى نظر الله :

إن الصدقة وغيرها من الأعمال الصالحة ليست فى المفهوم المسيحى أعمالاً اختيارية يجوز للمرء إتيانها أو الامتناع عنها تبعاً لإرادته، حتى يكون له فضل عند الله إذا ضحّى بشئ فى سبيل القيام بها، بل هى واجب يتحتم عليه القيام به وإلا اعتبر مذنباً كما مر بنا فى الباب الأول. ومن ثم إذا ارتكب إنسان خطيئة، ثم قدم بعد ذلك صدقة أو عمل عملاً صالحاً، لا يكون قد أتى جميلاً يمكن اعتباره تعويضاً عن الخطيئة التى ارتكبها، حتى يستحق الصفح والغفران. لذلك قال الوحى لنا «متى فعلتم ما أمرتم به (من الخير والصلاح) فقولوا إننا عبيد بطالون * لأننا إنما فعلنا ما كان يجب علينا (فحسب)» (لوقا ١٧ : ١٠) ـ فضلاً عن ذلك لو كانت الصدقة والأعمال الصالحة تغفر الخطايا، لكان الذين يتمتعون بالغفران هم فقط الأغنياء ومن لهم القدرة على القيام بهذه الأعمال، وهذا ليس بمعقول على الإطلاق.

---

* ـ «بطالون» أى عاطلون، كما ذكرنا فى الباب الأول.

٣ ـ صاحب الفضل فى المال الذى بين أيدينا وفى الأعمال الصالحة التى نقوم بها :

أضف إلى ذلك أن المال الذى بين أيدينا والصحة التى نتمتع بها فى حياتنا، ليستا فى الواقع ملكاً لنا بل هما من فضل الله علينا. لأنه لو كان قد سمح ، مثلاً، بولادتنا من عائلات فقيرة جاهلة، أو أصابتنا بأمراض مستعصية عضالة، لكنا الآن فقراء معدمين أو مقعدين عاجزين عن القيام بعمل من الأعمال مثل كثيرين من بنى جنسنا. لذلك فإننا عندما نعطى للفقراء شيئاً من المال الذى بين أيدينا، أو نستخدم صحتنا فى القيام بأى عمل من الأعمال الصالحة، لا نكون قد ضحينا بشئ من عندياتنا أو نكون قد أسدينا لله جميلاً نستحق عنه ثواباً.

وقد أدرك داود النبى هو ورجاله هذه الحقيقة الثمينة، ولذلك بعد أن قدموا ما يعادل ملياراً من الجنبهات الذهبية* لأجل بناء الهيكل، قال داود لله «لكن من أنا ومن هو شعبى، حتى نستطيع أن ننتدب (أو بالحرى أن نقوم من أنفسنا بعمل) هكذا!! لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك ... أيها الرب إلهنا، كل هذه الثروة التى هيأناها لنبنى لك بيتاً لاسم قدسك. إنما هى من يدك ولك الكل» (أخبار الأيام ٢٩: ١٤ و ١٦)، كما قال بطرس الرسول من بعده «إن كان يخدم أحد، فكأنه من قوة يمنحها الله» (١بطرس ٤: ١١).

٤ ـ العيوب الكامنة فى الصدقة والأعمال الصالحة :

كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن الصدقة والأعمال الصالحة التى يقوم بها الخطاة، كثيراً ما تكون ملوثة بجراثيم البخل والتقتير، أو الفخر والتباهى، أو الرغبة فى جزاء من الله أو الناس (وذلك بسبب صدورها من الطبيعة البشرية الفاسدة السائدة عليهم)، اتضح لنا أن هذه الصدقة والأعمال الصالحة مملوءة بنقائص متعددة، الأمر الذى يجردها من كل صلاح حقيقى يمكن أن يبقى فيها. وقد أدرك إشعياء النبى مرة هذه الحقيقة فى نور الله فصرخ قائلاً «وقد صرنا كلنا كنجس وكثوب عدة ** كل أعمال برنا (وليس أعمال شرنا فحسب)» (إشعياء ٦٤: ٦).

وإن كانت هذه الحقيقة تسمو فوق إدراك الكثيرين، لكن من سمت نفوسهم وارتقت، استطاعوا أن يدركوها كما أدركها هذا النبى. فمثلاً قال كير كجارد رائد الوجودية الروحية [١] «إن أفضل أعمالنا مثل أشرها يحتاج إلى غفران الله». ولإيضاح هذه الحقيقة إلى حد ما نقول : إذا تطلعنا إلى خضروات مغسولة، قد لا نرى فيها قذارة ما. لكن إذا وضعنا شيئاً يسيراً منها تحت عدسة

---

* هذا المبلغ يوازى الآن ثمانين ملياراً من الجنيهات الذهبية تقريباً.

** هو الثوب الملطخ بالطمث، والذى كان يعتبر فى الشريعة اليهودية نجساً غاية النجاسة.

الميكرسكوب، قد نرى فيها آلاف الجراثيم - وهكذا الحال من جهة الأعمال الصالحة التى نقوم بها، فإننا وإن كنا نراها طيبة، غير أن الله يرى فيها الكثير من النقائص والعيوب. ولا غرابة فى ذلك، ففى ضوء كماله المطلق تبدو السماء نفسها غير طاهرة، ويبدو الملائكة أنفسهم حمقى (أيوب ٤:١٨)!!

٤ - أثر الصدقة والأعمال الصالحة من جهة الغفران والتمتع بالله :

لنفرض أن ملكاً عظيماً نبيلاً تعدى عليه خادم ما وأهانه إهانة شنيعة، وبعد ذلك تقدم إليه هذا الخادم حاملاً فى يده هدية ثمينة، فهل تستطيع هذه الهدية وحدها أن تمحو عن الملك العظيم النبيل ما لحقه من إهانة؟ أو تجعله يسر بالخادم المذكور ويقربه إلى حضرته؟ طبعاً كلا وكلا. وعلى هذا النسق نقول : نظراً لأن الصدقة والأعمال الصالحة التى يقوم بها بعض الخطاة (حتى إن كانت خالية من كل العيوب)، لا تستطيع أن تعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التى يصبح معها كأنه لم يعتد عليه (لأن هذه الأعمال محدودة فى قدرها وحق الله لا حد لقدره، والأشياء المحدودة فى قدرها لا تفى مطالب أمر لا حد لقدره)، أو تؤهل الخطاة للتوافق مع الله فى قداسته وكماله (لأنها لا تستطيع أن تعيدهم إلى حياة الاستقامة التى كانت لآدم قبل السقوط فى الخطيئة)، لذلك لا يمكن أن تكون هذه الأعمال وحدها ثمناً للغفران أو التمتع بالله.

وقد أدرك الأنبياء هذه الحقيقة، ولذلك كانوا يبكون بسبب خطاياهم على الرغم من الأعمال الصالحة الكثيرة التى كانوا يقومون بها. فداود النبى كان يعوّم سريره بدموعه ويذوّب فراشه كل ليلة (مزمور ٦:٦)، ويقول : «خسفت من الغم عينى، نفسى وبطنى. لأن حياتى قد فنيت بالحزن وسنينى بالتنهد» (مزمور ٣١ : ١٠)، و «بليت عظامى من زفيرى اليوم كله» (مز ٣٢:٣)، و «ليست فى عظامى سلامة من جهة خطيتى، لأن آثامى قد طمت فوق رأسى. كحمل ثقيل أثقل مما أحتمل. وقد أنتنت فاحت حُبُر* ضربى من جهة حماقتى» (مزمور ٣٨:٣ و ٥)[٢].

***

أما الاعتراض الذى يوجه ضد الحقائق السابقة، ففيما يلى بيانه مصحوباً بالرد عليه :

هل يستوى الخاطئ الذى يقوم بالأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله، والذى يقوم بها لأغراض شخصية، أو لا يقوم بها إطلاقاً؟

---

* الحُبُر (بضم الحاء والباء) هى الجروح العميقة التى وإن شُفيت، لا تزول آثارها من الجسم.

الرد : طبعاً لا يستويان، لأن الله لعدالته لا يمكن أن يهمل ذرة من الخير يقوم بها إنسان ابتغاء مرضاته، بل لابد أن يجازيه عنها خيراً. لكن بما أن الجزاء يكون من جنس العمل، وليس فى الأبدية مجال للمال أو الخدمات المادية التى يقوم بها الناس فى العالم الحاضر حتى يكافئهم الله هناك بمثل ما فعلوا، لذلك فالخطاة الذين يتصدقون ويعملون أعمالاً صالحة ابتغاء مرضاة الله، يكافئهم تعالى فى العالم الحاضر بجزاء من نوع أعمالهم. فيزيد مثلاً من ثروتهم، ويهيئ لهم سبل النجاة من الضيقات التى يتعرضون لها. لكن عند انتقالهم من العالم الحاضر، سوف يكونون بطبيعة الحال بعيداً عن الله مثل غيرهم من الخطاة. لماذا؟ طبعاً لأن الصدقة والأعمال الصالحة لا تفى فى ذاتها مطالب عدالة الله، ولا تمد القائمين بها بطبيعة روحية تؤهلهم للتوافق معه فى قداسته وصفاته الأدبية الأخرى، كما ذكرنا فيما سلف.

أما الذين، مع قيامهم بأعمال الخير، يمقتون الخطيئة ويتضرعون إلى الله بتذلل لكى يخلصهم منها، فإنه يتجه إليهم بكل عطف، ويهيئ لهم السبيل للحصول على الغفران والتمتع بشخصه، إذ وفيت مطالب عدالته وقداسته بوسيلة خاصة، كما كانت الحال مع كرنيليوس السابق ذكره.



(٥)

الشفاعة وعلاقتها بالغفران

١ - عدم قدرة الأنبياء على الشفاعة أمام الله :

بما أن هؤلاء الأنبياء وإن كانوا أفضل من غيرهم من الناس، غير أنهم فى ذواتهم خطاة مثلهم، إن لم يكن بالفعل، فبالقول والفكر كما ذكرنا فى الباب الأول، لذلك فإنهم من تلقاء أنفسهم لا يتوافقون مع الله فى صفاته السامية، كما يقعون من جهة استحقاقهم الذاتى تحت طائلة قصاصه الأبدى. ومن ثم لا يستطيعون أن يتشفعوا لأجل خلاص أحد من قصاص خطاياه أو تأهيله للوجود مع الله، لأنهم أنفسهم مفتقرون إلى هذا وذاك. والكتاب المقدس بإعلانه أن القديسين خطاة مثل باقى الناس (جامعة ٧: ٢٠) لا يقصد التشهير بهم، بل يعلن حقيقة أمرهم حتى لا يعتمد عليهم أحد فى أمر الخلاص من الخطيئة ونتائجها.

٢ - عدم قدرة الملائكة على الشفاعة لدى الله :

كما أن الملائكة وإن كانوا فى نظرنا كائنات سامية طاهرة، لكنهم ليسوا كذلك فى نظر الله الكلى

الكمال. فقد قال الوحى إنه تعالى يُنسب إلى ملائكته حماقة (أيوب ٤:١٨). فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة كائنات محدودة، والكائنات المحدودة لا تستطيع أن تفى مطالب عدالة الله وقداسته غير المحدودة، أدركنا أن شفاعة الملائكة (إن كانت لهم شفاعة) لا تجلب لنا الغفران أو تقربنا إلى الله، لأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بعد إيفاء مطالب عدالته وقداسته كما ذكرنا مراراً أو تكراراً.

***

أما الاعتراضات التى توجه ضد الحقائق السابقة، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ ـ إذا كانت شفاعة القديسين لا تجدى، فلماذا أراد الله أن يعفو مرة عن الأشرار الذين كانوا فى سدوم وعمورة، لو كان بينهم عشرة أبرار* (تك ١٨:٣٣)؟

الرد : لا شك أن للقديسين مقاماً خاصاً لدى الله كما ذكرنا، لكن لا شك أيضاً أن هذا المقام لا يطغى على مطالب عدالته وقداسته. لذلك إذا أمعنا النظر فى حادثة سدوم وعمورة نرى أن وجود بعض الأبرار فيهما، لم يكن ليرفع القصاص الأبدى عن الأشرار الذين كانوا معهم، أو يمنحهم طبيعة روحية تهيئهم للتوافق مع الله فى قداسته وصفاته الأدبية السامية إلى الأبد، بل كان يرفع عنهم فقط قصاصاً وقتياً دنيوناً، وهذا من الممكن حدوثه كما ذكرنا فى حديثنا عن الصلاة.

ومع كل فمن مواضع أخرى فى الكتاب المقدس، يتضح لنا أن وجود الأبرار فى العالم لا يحمى الأشرار من مثل هذا القصاص. إذا كان مكيال شرهم قد طفح أمام الله. فقال تعالى : «إن أخطأت إلىَّ أرض وخانت خيانة، فمددت يدى عليها وكسرت لها قوام الخبز وأرسلت إليها الجوع، وقطعت منها الإنسان والحيوان، وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب، فإنهم يخلصون أنفسهم (فحسب) ببرهم» (حزقيال ١٤:١٢ ـ ١٤).

وهكذا الحال من جهة الأبدية، فإنه ليس هناك قديس مهما كان شأنه، يستطيع أن ينقل، على أساس مكانته لدى الله، خاطئاً من الهاوية إلى الفردوس. وكفى على ذلك دليلاً أن الرجل الغنى الذى عاش على الأرض بعيداً عن الله، لما نادى وهو فى الهاوية إبراهيم أبا المؤمنين قائلاً له : «يا أبى إبراهيم ارحمنى. وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرّد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهيب. أجابه إبراهيم قائلاً : يا ابنى أذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك، وكذلك لعازر البلايا، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أُثبتت، حتى أن الذين يريدون العبور من

* لا يراد بالأبرارهنا، أشخاص خالون من الخطيئة، بل أشخاص كانوا يخافون الله ويحاولون جهد الطاقة أن يعملوا بوصاياه، كما كانوا يقدمون له الذبائح الكفارية عن الخطايا التى يأتونها، كما سبقت الإشارة فى الباب الأول، وكما سيتضح بالتفصيل فى الباب التالى.

ههنا إليكم لا يقدرون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا ...» (لوقا ١٦: ٢٣ - ٢٦).

٢ ـ إذا كان القديسون خطاة بطبيعتهم وأعمالهم مثل غيرهم من الناس، فكيف غفر الله لهم وقربهم إليه كما نؤمن جميعاً؟!

الرد : لا شك أنه تم إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته التى لا حد لها من جهتهم بوسيلة خاصة، وهذه الوسيلة ليست طبعاً من جانبهم بل من جانبه تعالى كما ذكرنا. لأنهم لا يستطيعون بكل تقواهم وأعمالهم الصالحة أن يعيدوا إلى حق الله كرامته بالدرجة التى يصبح معها كأنه لم يعتد عليه، أو يعيدوا إلى أنفسهم حياة الاستقامة التى كان عليها آدم قبل السقوط فى الخطيئة - والوسيلة التى على أساسها خلّص الله هؤلاء القديسين من خطاياهم ونتائج خطاياهم، هى التى على أساسها يخلص كل الخطاة فى كل زمان ومكان، كما يتضح من الأبواب الآتية إن شاء الله.

٣ ـ إذا كان الأمر كذلك، ألا يوجد شفيع بيننا وبين الله؟

الرد : نعم هناك شفيع هناك شفيع (أو محام) قادر على الوقوف بيننا وبين الله، لأن هذا هو ما تتطلبه محبته لنا وعطفه علينا تعالى. لكن قبل أن نعرف من هو هذا الشفيع والوسيط لنسأل أنفسنا هل إذا كان إنسان قد عصى الله مرة أو لم يعمل كل البر الذى أمر تعالى به هل يستطيع أن يتبوأ مركز الشفاعة والوساطة؟ وإذا كان بطبيعته عاجزاً عن الإحاطة بمطالب عدالة الله وقداسته التى لا حد لها، وبالتبعية كان عاجزاً عن إيفائها جميعاً، هل يمكن أن يقبل الله شفاعته؟ طبعاً كلا.

وإذا كان الأمر كذلك أدركنا أن الشخص الجدير بالشفاعة أو الوساطة يجب أن يكون شخصاً معصوماً من الخطية، وفى الوقت نفسه يكون كاملاً كل الكمال فى الباطن والظاهر، كما يجب أن يكون قادراً على الإحاطة بمطالب عدالة الله وقداسته التى لا حد لها، وقادراً أيضاً على إيفائها جميعاً بالدرجة التى ترضى الله تماماً، فمن هو هذا الشخص يا ترى؟

للإجابة على هذا السؤال اقرأ بإمعان الباب التالى.

✍



الفداء أو الطريق الإلهى* للغفران

- ضرورة الفداء أو التعويض
- نشأة الفداء، والفداء فى عصر الآباء
- الفداء قبل ظهور المسيحية
- أهمية سفك دم الذبائح فى الحصول على الغفران
- تطور الآراء من جهة الفداء بدم الذبائح

* يسمى الإلهى، لأن الله هو الذى قام به لأجلنا.

(١)

ضرورة الفداء أو التعويض

اتضح لنا مما سلف أنه لا سبيل للحصول على الغفران أو التمتع بالله، إلا إذا تم أولاً إيفاء مطالب عدالته وقداسته بوسيلة ما. لكن الذين لا يدركون هذه الحقيقة، أو يدركونها لكن يتغاضون عنها لعدم معرفتهم بكيفية إتمامها، يريحون ضمائرهم من جهة الغفران والتمتع بالله، بترك الأمر إلى رحمته تعالى. ونحن وإن كنا نعتز برحمة الله كل الاعتزاز، ونؤمن أنه لا حد لها على الإطلاق، وأنها وحدها هى الكفيلة بالإتيان إلينا بالصفح والغفران، لكن لكى لا يكون الاعتماد عليها مؤسساً على مجرد الأمل أو العشم، بل على الحق والواقع نقول :

لنفرض أن قضية رفعت إلى قاض مشهور بالرحمة والرأفة، لكنه بالإضافة إلى ذلك يقدّس العدل ولا يفرّط فى حق، فهل يجوز للمذنب أن يطمئن نفسه بأن هذا القاضى سوف يبرئ ساحته لأن قلبه الرحيم الرؤوف لا يرضى بتوقيع العقوبة القانونية عليه؟ الجواب : طبعاً لا. وعلى هذا النسق تماماً نقول : بما أن الله كما أنه رحيم رؤوف، هو عادل وقدوس أيضاً، إذاً لا يجوز أن نطمئن نفوسنا بما هوعليه من رحمة ورأفة. قبل أن نعرف الوسيلة التى تؤهلنا للتمتع بهما دون الإجحاف بمطالب عدالته وقداسته، فما هى هذه الوسيلة يا تُرى؟

الجواب : بما أننا لا نستطيع بالصلاة والصوم والتوبة والأعمال الصالحة أن نفى مطالب عدالة الله وقداسته التى لا حد لها. ومن ناحية أخرى بما أن عدالة الله وقداسته لا تقلان فى شئ عن رحمته ومحبته، وذلك لكماله المطلق وتوافق كل صفاته معاً كما ذكرنا. إذاً إن كان هناك مجال للتمتع بالغفران والقبول أمام الله (ومن المؤكد أن يكون هناك مجال للتمتع بهما، لأن صفتى الرحمة والمحبة فى الله لا يمكن أن تكونا بلا عمل)، لابد من الفداء * أو التعويض، أو بالحرى لابد من إيفاء مطالب

---

* الفداء فى اللغة العبرية هو الترضية وإزالة الأحقاد بعد دفع التعويض. وفى اللغة العربية هو الإنقاذ، ليس بلا مقابل، بل بعد تقديم التضحية اللازمة، وقد تكون هذه الفدية مالاً أو غير مال. فقد جاء فى القاموس المحيط «فداه» أى دفع شيئاً فأنقذه، ومن ثم يكون قد اشتراه ثانية. أما فى اللغات الأوربية فيراد بالفداء أربعة أمور : الأول ـ استرداد الشرف المُعتَدَى عليه. الثانى ـ إطلاق سراح الأسير. الثالث ـ استعادة الشئ المرهون. الرابع ـ إنقاذ شخص من أزمة أو موت ـ وكل ذلك بواسطة تضحية أو مجهود ما.

عدالة الله وقداسته بواسطة كائن عوضاً عنا - وإيفاء هذه المطالب يستلزم طبعاً من هذا الكائن أن يقبل على نفسه القصاص الذى نستحقه بسبب خطايانا **تنفيذاً لمطالب عدالة الله**، وأن يهبنا أيضاً طبيعة روحية تجعلنا أهلاً للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية **تنفيذاً لمطالب قداسته**.

***

أما الاعتراضات التى توجّه ضد هذه الحقيقة، ففيما يلى بيانها والرد عليها :

١ ــ إن القاضى الوارد ذكره فى المثل السابق، مقيد بقوانين يجب عليه تطبيقها، فضلاً عن ذلك له رؤساء يراقبون كل أحكامه. لكن الله لا يتقيد بقوانين ولا يراقب عمله رؤساء، لذلك له أن يصفح عنا ويقربنا إليه بدافع من رحمته وحدها.

الرد : إن الله وإن كان لا يتقيد بقوانين ولا يراقب عمله رؤساء، لكن له كماله الذاتى الذى ينزهه عن القيام بأى عمل لا يتفق مع عدالته وقداسته. حقاً إن الله يستطيع أن يعمل كل شئ، لكن استطاعته هذه لا تتعدى خواصه الذاتية، لأنه لكماله، لا يستطيع* (مع قدرته التى لا حد لها) أن يعمل عملاً يتعارض معها. فهو، مثلاً، لا يستطيع أن يكون كاذباً أو ماكراً، لأن الصدق والاستقامة صفتان ثابتتان فيه. وكذلك لا يستطيع أن يكون متساهلاً أو متهاوناً مع الشر، لأن العدالة والأمانة صفتان ثابتتان أيضاً فيه. وإذا كان الأمر كذلك، لابد من إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته بواسطة كائن عوضاً عنا يكون قادراً على القيام بهذه المهمة (أى يكون قادراً على أن يعيد إلى حق الله قدسيته بالدرجة التى يكون معها كأنه لم يعتد عليه، وأن يعطينا حياة روحية تسمو بنا إلى حالة التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السابقة، طالما نحن غير قادرين على القيام بهذين العملين. وإلا فلا غفران لنا على الإطلاق.

٢ ــ هل من العدالة أن يقوم كائن برئ بالتعويض عن خطايا أحد المذنبين؟

الرد : فضلاً عن أن البرئ هو الذى يحق له قانوناً التعويض عن المذنبين، لأن هؤلاء لا يستطيعون التعويض عن مذنبين مثلهم، إذ أنهم فى ذواتهم يحتاجون إلى من يقوم بالتعويض لهم عن ذنوبهم، نقول :

إن مبدأ النيابة مبدأ سليم تشهد العدالة بقانونيته، طالما كان النائب قادراً وموافقاً على القيام بمطالب النيابة. لذلك نرى الشخص الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه فى قضية ما، ينتخب نائباً

---

* مما تجدر الإشارة إليه أن الإنسان، مثلاً، يستطيع ألا يكذب، أما الله فلا يستطيع أن يكذب - فالعبارة الأولى تدل على القدرة على عدم الكذب، أما الثانية فتدل على استحالة التكلم بالكذب، أو بالحرى تدل على التنزه المطلق عن الكذب، وهذا ما يليق بالله دون سواه.

قانونياً للدفاع عنه، ولا تمانع المحكمة فى هذا التصرف بل تلتزم به. والمدين الذى يعجز عن سداد دينه يقوم النائب أو الضامن بسداده نيابة عنه، وبذلك يخلص المدين من دينه وما يترتب عليه من مسئولية أمام العدالة. والأب الفاضل يتحمل فى نفسه نتائج أخطاء أبنائه عوضاً عنهم. والجندى الباسل يبذل نفسه فدية عن أهله ووطنه ـ وليس من يعترض على واحد من هؤلاء، بل إننا جميعاً نبجلهم ونشيد بأعمالهم.

٣ ـ أليس عجزنا جميعاً عن إيفاء مطاليب عدالة الله وقداسته مبرراً كافياً يدعوه للعفو عنا وتقريبنا إليه، دون أن يلزمنا بالبحث عن كائن يفى هذه المطالب عوضاً عنا، لا سيما إذا كان من المتعذر علينا العثور عليه؟

الرد : إذا عفا الله عنا وقرّبنا إليه لمجرد عجزنا عن إيفاء مطالب عدالته وقداسته، يكون قد تنازل عن المطالب المذكورة مضطراً. وبما أنه حاشا لله أن يرغم على القيام بعمل يتعارض مع عدالته أو قداسته، لذلك لا مفر من إيفاء مطالب عدالة الله وقداسته بواسطتنا أو بواسطة كائن آخر عوضاً عنا، وإلا فلا خلاص لنا على الإطلاق، كما ذكرنا فيما سلف.

٤ ـ إننا كثيراً ما نصفح عن المسيئين إلينا دون أن نلزمهم بتعويض ما، فهل يكون الله أقل عطفاً أو شفقة منا؟

الرد : (ا) لا تجوز المقارنة بين معاملة الله معنا وبين معاملة بعضنا البعض الآخر، لأننا تارة نصفح تحت تأثرنا بعواطفنا البشرية دون أن يكون هناك مبرر كاف للصفح، وتارة نعاقب تحت تأثرنا بمصالحنا الشخصية دون أن يكون هناك مبرر كاف للعقوبة. فضلاً عن ذلك فإننا كثيراً ما نصفح عن المسيئين إلينا بسبب نسياننا لإساءتهم أو لهبوط درجة تأثرنا بها، أو بسبب شعورنا بنقائصنا ورغبتنا الباطنية فى أن يصفح الناس عنا عندما نخطئ نحن إليهم. أما الله ففضلاً عن أنه لا ينسى شيئاً من الأشياء ولا يتغير بأى حال من الأحوال، فإنه بسبب كماله المطلق من جهة، وتوافق كل صفاته معاً من جهة أخرى، لا يمكن أن يكون متساهلاً بمراعاة الرحمة دون العدالة فى حالة الصفح، أو قاسياً بالتمسك بالعدالة دون الرحمة فى حالة العقوبة، بل يصفح إذا كان الصفح لا يتعارض مع مطالب عدالته، ويعاقب إذا كان العقاب لا يتجاوز عن مطالب رحمته. لأنه ليس رحيماً فى وقت وعادلاً فى وقت آخر، بل إنه رحيم وعادل معاً فى كل وقت من الأوقات. وإذا كان الأمر كذلك، فلا سبيل إلى الغفران إلا إذا وفيت مطالب عدالته، ولا سبيل إلى التمتع بالوجود معه إلا إذا تحققت مطالب قداسته، إما بواسطتنا أو بواسطة كائن آخر عوضاً عنا.

(ب) كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن الناموس الأدبى الذى وضعه الله لنا، يتوافق مع صفاته تعالى

كل التوافق، وأن هذا الناموس نفسه هو الذى يربط الخطيئة بعقوبتها، أدركنا :

أولا : أنه لا يمكن الفصل بين هذه وتلك، إذ أن هذا الفصل يكون بمثابة قطع العلاقة بين الله وبين ناموسه الأدبى الذى يتوافق مع صفاته - وهذا ما لا يمكن حدوثه، إذ يترتب عليه أن يكون الله قد نهى عن السرقة والزنا، مثلاً، وفى الوقت نفسه سمح للصوص والزناة بالتمتع به فى سمائه، مناقضاً نفسه بنفسه.

ثانياً : إن تجاوز الله عن خطايانا يكون موافقة منه عليها، أو تنحياً منه عن المحافظة على الناموس الأدبى الذى وضعه، وهذا الأمر وذاك باطلان. وإذا كان الأمر كذلك، فطبعاً لا سبيل إلى الغفران، إلا بعد الفداء أو التعويض كما ذكرنا.

٥ ـ إن الملوك يصفحون عن بعض المذنبين المحكوم عليهم بالإعدام بواسطة أمر ملكى يصدرونه. فكيف لا يستطيع الله الصفح عن الخطاة على هذا النحو؟

الرد : إن الملوك الذين يقومون بهذا العمل، لا يكونون متأثرين شخصياً بجرائم هؤلاء الأشخاص، أو بالعدالة المطلقة فى بلادهم، أو بقوانين الأخلاق العامة فيها، أو يكونون مضطرين للقيام به لوجود علاقة تربطهم بالأشخاص المذكورين، أو لاجتذاب فريق من الناس إلى جانبهم، أو لتجنيب بلادهم انقلاباً أو ثورة داخلية. لكن الله يتأثر مع روحانيته المطلقة بالخطايا التى نأتيها (كما ذكرنا فيما سلف)، كما أن العدالة لديه ليست مجرد قانون مكتوب أو غير مكتوب، بل إنها صفة ثابتة فيه يجب إيفاء مطالبها مهما كانت الظروف والأحوال. فضلاً عن ذلك ليس هناك من يرغمه على القيام بعمل، مجاملة لبعض الناس أو خوفاً منهم، ومن ثم لا يمكن أن يصفح إلا إذا كان الصفح قانونياً، أو بالحرى متوافقاً مع عدالته المطلقة كل التوافق.

أخيراً نقول إن الذين يريدون أن يصفح الله عنهم بكلمة، ينظرون إلى الخطيئة نظرة سطحية. لكن الحقيقة غير ذلك، لأن الخطيئة ليست مثل القذارة التى يمكن إزالتها بالماء أو بغيره، بل إنها بالإضافة إلى كونها أكبر إهانة لجلال الله (كما ذكرنا فيما سلف)، هى شر ينبع من طبيعة فاسدة كل الفساد. لذلك لا مفر من التسليم بأنه لا يمكن الصفح عن الخطاة أو تقريبهم إلى الله، إلا إذا وفيت أولاً مطالب عدالته وقداسته معاً بوسيلة ما.

٦ ـ إن الكمال المطلق الذى يتصف الله به، يجعله لا يتقيد بأى قيد، ومن ثم تكون له الحرية المطلقة فى الصفح عن الخطاة دون أن يلزمهم بتعويض ما.

الرد : إن الحرية المطلقة فى نظر الله ليست هى الحرية المطلقة فى نظر الناس فهؤلاء ينظرون إلى الحرية المطلقة كأنها المجال الذى يفعلون فيه ما يريدون، بغض النظر عن الكمال وقوانينه الثابتة،

لذلك فإن الحرية المطلقة فى نظرهم هى الإباحية بأوسع معانيها. أما الحرية المطلقة فى نظر الله، فهى المجال الذى يفعل فيه كل ما يريد فى حدود كماله الذاتى*. لذلك فكما أنه لا يمكن أن يرفض شخصاً متوافقاً معه فى صفاته الأدبية، لا يمكن أيضاً أن يقبل فى حضرته شخص غير متوافق معه فيها ـ فقد قال الوحى إن إدانة البرئ وتبرئة المذنب كلاهما مكرهة عند الرب (أمثال ١٧:٥).

وإننا بذلك لا نقسو على أنفسنا أو نقيم العراقيل أمامها من جهة الحصول على الغفران، بل نبحث السبيل إليه من الناحية التى تتناسب مع موقف عدالة الله وقداسته إزاء الخطيئة وشناعتها، حتى لا تكون نظرتنا إلى الغفران مؤسسة على تصوراتنا الشخصية بل على الحقائق الإلهية. لأننا لا نحصل عليه بمجهودنا الذاتى، بل الله هو الذى يمنحه لنا، وذلك بناء على نواميسه الخاصة. وهذه النواميس ثابتة راسخة، فلا تتغير أو تتطور على الإطلاق.



(٢)

نشأة الفداء، والفداء فى عصر الآباء

أولاً : نشأة الفداء

ذكرنا فى الباب الأول أن آدم عندما أكل من الشجرة المنهى عنها ومات موتاً أدبياً، لم ينفذ الله فيه حكم الموت الجسدى، الذى أنذره به فى حالة العصيان، بل أنقذه من هذا الموت، وأنقذه أيضاً من الموت الأبدى أو العذاب الأبدى الذى كان سيتعرض له** فى العالم الآخر، وذلك بتوقيع الموت على حيوان وحرقه بعد ذلك عوضاً عنه. وإن كانت هذه الذبيحة الحيوانية فى حد ذاتها غير كافية للفداء، لكن لأنها كانت رمزاً إلى ذبيحة عظمى فى نظر الله، لذلك اكتسبت وقتئذ شرعاً قوة الفداء ـ ولبيان هذه الحقيقة نقول :

سجل الوحى أن الله بعدما اقتاد آدم وحواء للاعتراف بعصيانهما والندم عليه، **صنع** لهما أقمصة

---

* كما أن الحرية التى أقام الله المؤمنين فيها، لا تدعهم يتصرفون حسب أهوائهم، بل حسب كلمته التى أعطاها لهم. فقد قال لهم «كأحرار، وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر، بل كعبيد الله» (١بطرس ٢:١٦). كما قال «لا تصيروا الحرية فرصة للجسد، بل بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً» (غلاطية ٥:١٣).

** أما الإنقاذ من الموت الأدبى فيتم بعمل الله الروحى فى النفس، كما سيتضح بالتفصيل فى الباب السابع.

من جلد وألبسهما (تكوين ٣: ٢١). وبما أن الوحى لا يستعمل كلمة إلا فى معناها الصحيح، لذلك لا ندحة من التسليم بأن الله **لم يخلق** هذه الأقمصة من العدم بل **صنعها**. ولما كانت صناعتها تستلزم وجود جلد وقتئذ لكى تصنع منه، والله لم يخلق جلداً بمفرده، بل خلق حيوانات يكسوها الجلد، إذاً فمن المؤكد أنه بوسيلة ما تم ذبح حيوانين، ومن جلدهما صنعت هذه الأقمصة.

لكن إذا تأملنا الظروف المحيطة بهذا الموضوع، يتضح لنا أن الغرض من ذبح الحيوانين المذكورين لم يكن مجرد الحصول على الجلد بل التكفير بهما (أو بالحرى التعويض بهما) عن آدم وزوجته، وذلك للأسباب الآتية:

(١) إن الله الذى خلق العالمين بكلمة، لم يكن من العسير عليه أن يخلق أقمصة من الجلد بكلمة أيضاً، وذلك بدلاً من ذبح حيوانين لاستخدام جلدهما فى صنع الأقمصة المذكورة.

(٢) إن آدم وحواء لم يستثمرا لحم هذين الحيوانين فى شئ ما، لأنهما (أى آدم وحواء) كانا يأكلان النباتات فحسب*، ومن ثم لم يكن هناك مبرر لذبح الحيوانين المذكورين، لولا أن الله قصد بهما كفارة أو فدية عن آدم وامرأته، كما ذكرنا.

(٣) إن هابيل بن آدم قدم عن نفسه (كما سنرى فيما بعد) ذبيحة حيوانية لله، وطبعاً ما كان من الممكن أن يعرف كيفية تقديمها أو ضرورة تقديمها من تلقاء ذاته (لأنه لم يكن يأكل لحماً حتى يعرف كيفية ذبح الحيوان، أو يدرك استحقاقه للموت بسبب أى خطيئة يأتيها، حتى يقدم هذا الحيوان كفارة عن نفسه)، بل لابد أنه عرف هذين الأمرين من أبيه. وطبعاً ما كان أبوه ليعرفهما، لولا أنه أدرك أن الله قصد بذبح الحيوانين (اللذين لم ينتفع هو بشئ منهما سوى الجلد)، أن يكونا كفارة عنه وعن امرأته.

مما تقدم يتضح لنا:

أولا: أن الموت الذى كان يجب أن يحل بآدم وحواء بسبب عصيانهما، رتب الله أن يحل بحيوانين بريئين عوضاً عنهما رحمة بآدم وحواء من جهة، وإيفاء لمطالب عدالته تعالى على النحو الذى ارتضاه من جهة أخرى.

ثانياً: إن الله ستر عرى آدم وحواء الذى ترتب على عصيانهما، أو بالحرى غطى نتائج خطيتهما، بجلد هذين الحيوانين. ولذلك يكون الله قد جعل الفداء أساس الخلاص من قصاص الخطيئة ونتائجها السيئة، التى كان يشار إليها بالعرى وقتئذ.

* إن أول من أكل اللحم هو نوح وأولاده (تكوين ٩: ٢)، أما من سبقوهم من البشر فكانوا يأكلون النباتات فحسب. وعلماء التاريخ الطبيعى يؤكدون هذه الحقيقة، فهم يقولون إن الإنسان لم يعرف أكل اللحوم إلا بعد فترة طويلة من وجوده على الأرض.

ثانياً ـ الفداء فى عصر الآباء

عصر الآباء هو العصر الذى عاش فيه المؤمنون بالله قبل نزول أى شريعة من لدنه، ومن ثم كانوا يتقربون إليه ويتعبدون له على أساس الذبيحة التى سلم تعالى مبدأها لآدم، عندما سمح بذبحها نيابة عن نفسه، كما يتضح مما يلى :

١ ■ إن هابيل (كما ذكرنا فيما سلف) قدم ذبيحة لله، ويسجل الوحى أنه قدمها من أبكار غنمه ومن سمانها (تكوين ٤:٤)، وأنه قدمها بإيمان، أن الله يرضى عنه على أساسها، وأنه لإيمانه هذا، شهد الله عنه أنه بار (عبرانيين ١١:٤) ـ وهذه أول مرة يوصف فيها إنسان بأنه «بار» فى الكتاب المقدس. ومن مواضع كثيرة منه، يتضح لنا أن البار لدى الله، ليس هو الإنسان الخالى من الخطيئة (لأنه ليس هناك مثل هذا الإنسان)، بل هو الإنسان الذى يدرك استحقاقه للقصاص الأبدى بسبب خطاياه. وبالإضافة إلى توبته عنها، يعتمد فى أمر القبول أمام الله على كفارة يرتضيها تعالى، بناء على وصاياه فى العصر الذى تقدم فيه، وذلك لإيفاء مطالب عدالته على النحو الذى يقبله.

٢ ■ ونوح بعد خروجه من الفلك بنى مذبحاً للرب، وأخذ من كل البهائم الطاهرة والطيور الطاهرة[٢]، وأصعد محرقات على المذبح، فتنسم الله رائحة الرضا (تكوين ٨:٢١). ومن هذه الآية يتضح لنا أن نوحاً وإن كان أفضل من معاصريه الذين أهلكهم الطوفان، غير أنه أدرك ببصيرته الروحية أنه على أى حال خاطئ ومستحق للهلاك مثلهم (لأن الخطيئة لا تكون بالفعل فقط، بل وبالقول والفكر أيضاً كما ذكرنا)، وإن إنقاذ الله إياه من هذا الهلاك، إنما يرجع إلى رحمته تعالى. ومن ثم قدم الذبائح ليكفر بها عن نفسه، ويعلن أيضاً أنه بجملته لله*. كما نراه ينتخب هذه الذبائح من البهائم الطاهرة والطيور الطاهرة عالماً بالإيمان أنها وحدها هى التى يليق تقديمها كفارة لله.

٣ ■ وإبراهيم أبو المؤمنين، عندما ظهر له الله بالقرب من شكيم، بنى مذبحاً له هناك. ولما حلّ بعد ذلك شرقى بيت إيل، بنى مذبحاً آخر له (تكوين ١٢:٦ ـ ٨)، وعندما نقل خيمته إلى بلوطات ممرا، بنى هناك مذبحاً ثالثاً (تكوين ١٣:١٨) ـ وبناء هذه المذابح دليل على أن إبراهيم كان يقدم عن نفسه ذبائح لله، ودليل أيضاً على أنه كان يعبد الله، ويكرّس حياته له. فضلاً عن ذلك فإن الله عندما

---

* لأن تقديم الذبائح لله يتضمن تقديم أصحابها ذواتهم له، لكى تكون بأسرها ملكاً له. ويتفق معنا بعض المسلمين على ذلك إلى حد كبير، فقد جاء فى كتاب الحج ص ٥٠ إن النحر رمز لنحر النفس الأمارة بالسوء.

طلب منه أن يقدم ابنه ذبيحة، لم يتردد لحظة واحدة. لكن نظراً لأن هذا الطلب كان مجرد امتحان، أراه الله كبشاً. فقدمه إبراهيم ذبيحة عوضاً عن ابنه، أو فدية عنه (تكوين ٢٢:١٣) (٣).

٤ ـ وإسحق، عندما ظهر له الرب ووعده بمباركة نسله، بنى مذبحاً ودعا باسم الرب (تكوين ٢٦:١٥)، معلناً بذلك أنه للرب، وأنه يذبح له دون سواه، كما كان يفعل إبراهيم أبوه.

٥ ـ ويعقوب، لما أتى سالماً إلى مدينة شكيم، أقام مذبحاً ودعاه (وبالحرى دعا عليه اسم) «إيل»* إله إسرائيل**(تكوين ٣٣: ٢٠). وبناء على عهد سابق منه، أمره الله بعد مدة، أن يصعد إلى «بيت إيل» ويبنى هناك مذبحاً، فصعد وبنى المذبح كما أمره الله. ودعا المكان «إيل بيت إيل»، لأن هناك ظهر له الله (تك ٣٥: ١ ـ ٨). وقبل نزوله إلى مصر لكى يرى ابنه يوسف، ذبح ذبائح لله (تكوين ٤٦: ١). فظهر له الله ووعده بأنه سيرافقه فى طريقه إليها.

٦ ـ وأيوب، كان من عادته أن يصعد ذبائح بعدد أبنائه لله، ليفديهم بها من قصاص ما يمكن أن يكون قد صدر منهم من خطأ فى تصرفاتهم (أيوب ١: ٥)، حتى لا يقع هذا القصاص (٧).

مما تقدم يتضح لنا أن المبدأ الذى على أساسه كان الله يظهر الرحمة للبشر (حتى الذين اصطفاهم تعالى من بينهم) هو اعترافهم بأنهم خطاة وأنهم يستحقون القصاص الأبدى بسبب خطاياهم، ثم تقديمهم بعد ذلك الذبائح عوضاً عن نفوسهم.



---

* «إيل» كلمة عبرية معناها «الله»، وفى اللغة العربية أيضاً يسمى الله «الإل» (مختار الصحاح ص ٢٢)، ويرجع السبب فى هذا التشابه إلى أن أصل اللغتين العربية والعبرية (والسريانية والأرامية أيضاً) واحد.

** «إسرائيل» هو الإسم الذى أطلقه الله على يعقوب، عندما أظهر استماتته فى التمسك به تعالى ومعناه «المجاهد مع الله».

(٣)

الفداء قبل ظهور المسيحية

أولاً : الفداء فى اليهودية

يشمل هذا الفداء الذبائح التى كان يقدمها بنو إسرائيل، وفق الشرائع التى أعلنها الله لموسى النبى، وكانت هذه الذبائح تنقسم إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : الذبائح العامة :

وهى الذبائح القومية التى كانت تقدم لله فى كل يوم، وفى كل موسم من المواسم الدينية، وأهمها :

(١) **الذبيحة اليومية** : وكانت تتكون من خروفين حوليين* صحيحين : الخروف الأول يعمل صباحاً والخروف الثانى بين العشاءين (عدد ٢٨:٣ و ٤).

(٢) **ذبيحة يوم السبت**** : وكانت تتكون من خروفين حوليين صحيحين، بالإضافة إلى خروفى الذبيحة اليومية (عدد ٢٨:٧ و ٨).

(٣) **ذبيحة أول الشهر** : وكانت تتكون من ثورين وكبش وسبعة خراف حولية صحيحة وتيس (عدد ٢٨:١١ ـ ١٥).

(٤) **ذبيحة الفصح** : وتتكون من ثورين وكبش وسبعة خراف صحيحة وتيس واحد، فى كل يوم من أيام الفصح السبعة (عدد ٢٨:١٦ ـ ٢٥) ـ هذا عدا ذبيحة الفصح العائلية التى كانت تعملها كل أسرة بنفسها (تثنية ١٦:٢).

(٥) **ذبيحة باكورة الحصاد** : وتتكون من ثورين وكبش واحد وسبعة خراف حولية صحيحة وتيس (عدد ٢٩:١ ـ ٥).

---

* «الحولي» هو الذى مر عليه حول، أو سنة.

** كلمة «السبت» معناها «الراحة»، ولذلك تطلق على يوم الراحة الأسبوعية لدى بنى إسرائيل.

(٦) **ذبيحة عيد الكفارة** : وتتكون من ثور وكبش وسبعة خراف حولية صحيحة وتيس (عدد ٢٩: ٧ ـ ١٠).

(٧) **ذبيحة عيد المظال** (٤) : وتتكون من ٧١ ثوراً و ١٥ كبشاً و ١٠٥ خروفاً حولياً و ٨ تيوس، تقدم فى ثمانية أيام متتالية (عدد ٢٩: ١٢ ـ ٤٠).

(٨) **ذبيحة البقرة الحمرا.** : وكان رمادها يوضع فى ماء، ويستعمل للتطهير الرمزى لكل من مسّ ميتاً أو قتيلاً *(عدد ١٩: ١ و ٢).

القسم الثانى : **الذبائح الشخصية** :

وهى الذبائح التى كان يقدمها الأفراد، كل حسب الظرف الذى يجتاز فيه، وأهمها :

(١) **ذبيحة المحرقة** : وكان يأتى بها كل من أراد التقرب إلى الله والتمتع برضائه (لاويين ١: ١ ـ ٩)، فمثلاً عندما تبوأ سليمان الملك بعد أبيه، قدم لله فى يوم واحد ألف ذبيحة محرقة (١ملوك ٣: ٤).

(٢) **ذبيحة السلامة** : وكان يأتى بها كل من أراد أن يشكر الله لأجل إحسان أسداه تعالى إليه، أو أراد أن يقدم له نافلة (أو بالحرى ذبيحة تطوعية)، للدلالة على الإخلاص له والرغبة فى التفانى فى إكرامه (لاويين ٣: ١ ـ ٥ ، ٧: ١١ ـ ٢١) وعند تكريس الهيكل أراد سليمان الملك أن يعبر عن شكره لله، فقدم ذبائح سلامة عددها إثنان وعشرون ألفاً من البقر ومائة وعشرون ألفاً من الغنم** (١ملوك ٨: ٦٣).

(٣) **ذبيحتا الخطية والإثم** : وكان يأتى بإحداهما من عمل سهواً شيئاً من الأمور التى نهى الله عنها (لاويين ٤: ١ ـ ٣٥، ٥: ١١ ـ ١٩)، غير أن الذبيحة الأولى كانت تقدم لله باعتبار الخطيئة نجاسة. أما الثانية فكانت تقدم له باعتبار الخطيئة ذنباً ـ لأننا بإرتكاب الخطيئة لا ننجس أنفسنا فقط، بل نسيئ إلى الله أيضاً.

(٤) **ذبيحة الملء أو التكريس الكامل** : وكانت تقدم عند التكفير عن الكهنة يوم إقامتهم بأعمالهم، للدلالة على أنهم أصبحوا مقدسين لله ولخدمته (لاويين ٨: ٢٢ ـ ٢٦).

(٥) **ذبائح التطهير الخاصة** : بالأم عندما تلد (لا ١٢: ١ ـ ٧)، والأبرص عندما يبرأ

---

* بوصف الموت نتيجة للخطيئة، وصورة ظاهرية لما تسببه من فساد باطنى.

** ولا غرابة فى ذلك فالسلطان محمد قلاوون (كما يقول المقريزى) ذبح ٢٠,٠٠٠ رأس عند زواج أحد أبنائه.

(لاويين ١٤: ١ - ٢٠)، والمصاب بسيل* عندما ينقطع سيله (لاويين ١٥: ١ - ١٥). وعدا هذه الذبائح، كانت تقدم ذبيحة عن كل بكر يولد من البشر أو البهائم النجسة**. أما كل بكر بهيمة من الحيوانات الطاهرة، فكان يقدم بنفسه ذبيحة (عدد ١٨: ١٧)، لأنه، دون البكر من الحيوانات النجسة، كان يليق تقديمه لله.

ومما تجدر ملاحظته فى هذه الذبائح ما يأتى :

(١) إنها كانت تقدم عن خطايا السهو التى لا يعلم المرء بها إلا بعد صدورها منه، الأمر الذى يدل على أنها (على العكس مما يظن بعض الناس) ذنوب أمام الله ، كما ذكرنا فى الباب الأول(٥).

(٢) إن الذبائح لم يكن يعفى من تقديمها أحد حتى إذا كان فقيراً، لكن رأفة بالفقراء سمح الله لهم بتقديم ذبائح رخيصة الثمن، مثل الحمام أو اليمام (لاويين ١٤: ٢١ و ٢٢).

(٣) إن هذه الذبائح كانت تقدم على مذبح النحاس القائم فى هيكل الله، ومن ثم كان المفهوم لدى الجميع أنها مقدمة لأجل الحصول على الغفران منه تعالى. كما كان الذين يقدمونها يضعون أيديهم على رؤوسها ويقرّون عليها بخطاياهم، رمزاً لانتقال خطاياهم إلى الذبائح المذكورة، ومن كانت تعتبر كفارة أو فدية عنهم (لا ٤: ٤).

(٤) إن ذبيحة السلامة كان يأكل جزءاً منها الشخص الذى أتى بها والكاهن الذى قدمها، رمزاً لاشتراكهما فى التمتع بإحسان الله (لاويين ٧: ١١ - ٣٨). وذبيحة الإثم التى لا يدخل الكاهن بدمها إلى قدس الأقداس، كان يأكل منها وحده جزءاً رمزاً لأنه مسئول عن إثم الناس الذين يوجدون فى دائرة خدمته. أما ذبيحته المحرقة وذبيحة الخطية اللتان كان يدخل بدمهما إلى قدس الأقداس، فلم يكن يأكل منهما أحد - غير أن الأولى كانت تحرق على المذبح لأنها كانت تعتبر قرباناً طاهراً لله للحصول على رضاه (لاويين ٦: ٨ - ١٣)، أما الثانية فكانت تحرق خارج المحلة لأنها كانت تعتبر نجسة بسبب نيابتها عن خطاة يستحقون العذاب الأبدى بعيداً عن الله كل البعد (لاويين ٦: ٨ و ٢٤ - ٣٠).

---

* وذلك بوصف أوجاع الولادة جزءاً من العقاب الذى وقعه الله على المرأة بسبب خطيتها (تكوين ٣: ٦). أما مرض البرص والسيل فصورتان للخطيئة : الأول من الناحية الظاهرية، والثانى من الناحية الباطنية.

** ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الله كان قد أنقذ أبكار بنى إسرائيل وحيواناتهم من القتل عندما كانوا فى أرض الفراعنة (خروج ١٢: ٢٩)، وبذلك أصبح كل بكر من هؤلاء وأولئك ملكاً له، ومن ثم كان من الواجب أن يفتدى بذبيحة أو يقع عليه قضاؤه تعالى بالموت (خروج ١٣: ٢ و ٥).

: [illegible] بصفة عامة كان من الواجب أن تكون بلا عيب، فالحيوان الأعمى أو المكسور أو مجروح أو البثير أو الأجرب أو الأكلف أو مرضوض الخصية أو مسحوقها أو .. أو .. ، لم يكن يسمح بتقديمه ذبيحة لله (لاويين ٢٢:٢١ ـ ٢٥)، وكان ذلك رمزاً إلى أن الفادى الذى يصلح كفارة عن الناس يجب أن لا يكون طاهراً فحسب، بل وأن يكون كاملاً من كل الوجوه أيضاً.

*

ثانياً : الفداء فى الوثنية *

إن معظم الناس نبذوا الوثنية من عهد بعيد، لكن نظراً لأنها كانت ولا تزال منتشرة فى بلاد متحضرة، ويعتنقها إلى الآن أشخاص نالوا قسطاً وافراً من الثقافة، لذلك لا شك أنها قامت على آراء جديرة بالبحث، وبدراسة هذه الآراء يتضح لنا :

(١) أن الوثنيين كانوا فى أول الأمر يعبدون الله الواحد[٦]، لكن لعجزهم عن إدراكه، عبدوا الكائنات التى تصوّر لهم الصفات التى تخيلوا اتصافه بها. ومن ثم رفعوا هذه الكائنات إلى مرتبة الألوهية لديهم، وتقدموا إليها بكل خشوع واحترام بعد غسل أجسادهم بماء كانوا يدعونه «الماء المقدس»، كما قربوا لها الذبائح الحيوانية لكى ينالوا (حسب اعتقادهم) غفرانها ورضاها. وكان معظم الوثنيين يعتزون بهذه الذبائح اعزازاً عظيماً، فكانوا يزينونها بأزهار جميلة ويرقصون حولها كثيراً، وبعد ذلك كانوا يسلمونها إلى الكاهن لديهم ليتولى تقريبها إلى آلهتهم.

(٢) وكان قدماء المصريين يواظبون على تقريب الذبائح الحيوانية لآلهتهم، وكانوا يعدّون لهذا الغرض مذبحاً خاصاً فى كل هيكل من هياكلهم. وكان من الواجب على الكهنة الذين يقربونها أن يكون شعرهم محلوقاً وملابسهم نظيفة، حتى لا يكون بهم شئ من الهوام. وكانوا فى أثناء تقريب الذبائح المذكورة ينشدون ترانيم معينة، ويقومون بشعائر دينية خاصة ـ أما عند استعطافهم للإله «تيفون»** فكانوا يحرقون الضحايا وهى حية. وبعد حرقها كانوا يذرون رمادها فى الهواء، لكى ينتزع منه (كما يعتقدون) كل شر يمكن أن يكون فيه.

---

* انظر : (١) كلمة «Sacrifice» فى Encyclopaedia Britannica (٢) Hindu Religion, Customs and Manners (٣) World faith (٤) تاريخ مصر القديمة (٥) البرهان الصحيح.

** وهو اسم آخر للإله «ست» الخاص بالشر، لدى قدماء المصريين.

(٣) وبلغ شعور الفرس والبابليون بشر الخطيئة شأواً عظيماً، حتى أنهم كانوا يشعلون ناراً أمام آلهتم ويطرحون فيها أبناءهم لكى يكونوا كفارة عنهم، أو رواداً يفسحون لهم الطريق إلى العالم الآخر، أو رسلاً يحملون المعونة لأقاربهم الذين رحلوا إلى هذا العالم من قبل. ومما يثير الدهشة أنهم كانوا يحرقون أبناءهم وسط قرع الطبول وهتاف المغنيين!!

(٤) وكان الهنود يعذبون أنفسهم بطرق كثيرة مثل المشى على المسامير، وعدم تحريك أيديهم أو أرجلهم، أو قطع بعض أجزاء من أجسامهم. ظناً منهم أنهم بهذه الوسائل يكفرون عن خطاياهم ويتخلصون منها ومن عقابها. كما كانوا يقدمون أبناءهم طعاماً للحيوانات المؤلهة كالتماسيح، لكى يحصلوا (حسب اعتقادهم) على عفوها ورضاها. فقد جاء فى كتاب الفيدا، وهو الكتاب المقدس عندهم، إن الإنسان كفر عن نفسه أولاً بنبات الأرض، ثم بالحيوان، ثم بأولاده. ويقول المؤرخون إن بعض الهنود، تحت تأثرهم بشناعة خطاياهم، وفداحة التضحيات التى كانوا يبذلونها فى سبيل التكفير عنها، كانوا يقولون "متى يا ترى نخلص نهائياً من خطايانا!!".

(٥) ومن المأثور عن الكاهن الذى كان يقدم الذبائح، أنه كان يطهّر أولاً نفسه بما كان يدعى "بالماء المقدس" ثم يطهر الجو المحيط به بواسطة رسم دائرة واسعة فى الفضاء بذراعه. وبعد فحصه للذبائح وتأكده من سلامتها، كان يدور حولها ثلاث مرات، وهو يحمل مشعلاً فى يمينه. أما أصحاب الذبائح فكانوا يظلون بالقرب منها حتى يذبحها الكاهن ويأخذوا أنصبتهم منها، ويشاهدوا بعد ذلك بقاياها وهى تحترق بالنار. وكانوا يعتقدون أن من يأكل من الذبائح تنتقل إليه صفات الآلهة المقدمة هذه الذبائح إليها. فقد جاء فى الترانيم الفيدية "إن من يقدم محرقة يصل إلى براهما، ويتحد به، ويسكن فى دائرته".

(٦) وإذا تطلعنا إلى اليونان والرومان، نرى أنهم كانوا يؤمنون بآلهة متعددة للزراعة والإخصاب والجمال والحرب وغير ذلك. وخشية أن يكونوا قد نسوا واحداً منها بنوا مذبحاً وكتبوا عليه : "لإله مجهول(٧)"، وكانوا يقدمون لهذا الإله وغيره من الآله الكثير من الذبائح الحيوانية. ولم تكن هذه العادة عند عامتهم فحسب، بل وعند خاصتهم أيضاً. فسقراط عندما تذكر قبل موته أنه مدين بديك لإله الطب "اسكولابيوس"، أوصى تلميذه أن ينوب عنه فى تقديم هذا الديك*. كما أن أفلاطون الذى ارتقى روحياً عن معاصريه، وأدرك الشئ

---

* جاء فى قاموس الأساطير (Mythology) أنه نظراً لأ هذا الطائر يصيح قبل الفجر، فمن المحتمل أن يكون سقراط قصد به رمزاً إلى يوم جديد، أو بالحرى إلى الخلود الذى كان يؤمن به ويأمل التمتع به.

الكثير عن وحدانية الله والفضيلة التى يجب مراعاتها ، ذهب إلى حقيقة سامية من جهة الذبائح لم يدركها كثيرون منهم. فقال "إن الذبائح ضرورية، لكنها لا تنفع البشر إلا إذا توافرت فيهم النية الصالحة" ، ولعله قصد بهذه النية، التوبة عن الخطيئة والعزم الوطيد على السلوك حسب قوانين الفضيلة.

***

ونظراً لانتشار الذبائح فى الوثنية واليهودية معاً، ظن بعض الناس إن اليهود نقلوا عادة تقديمهامن الوثنيين الذين كانوا يختلطون بهم. لكن هذا الظن لا نصيب له من الصواب، وذلك للأسباب الآتية :

الأول : إن تقديم الذبائح لدى الوثنيين كان مقترنا بالفسق* فى كثير من الأحيان. أما تقديم الذبائح لدى اليهود فكان مقترناً بالقداسة والخشوع التام أمام الله، لأنه كان قد أعلن لهم أنه قدوس ويبغض الشر حتى فى أبسط مظاهره. (اقرأ مثلاً : لاويين ١١:٤٤، يشوع ١٩:٢٤، ١صموئيل ٢:٢). ولذلك عندما حاول اليهود مرة أن يقتدوا بالوثنيين المذكورين، أمر الله موسى أن يعمل بالسيف فيهم، فقتل منهم وقتئذ ثلاثة آلاف رجل (خروج ٣٢:٤ ـ ٢٩)، فضلاً عن ذلك فقد هددهم بالموت الزؤام إذا تشبهوا بالوثنيين فى نجاستهم ورجسهم وشربهم للدم وتفاؤلهم وتشاؤمهم ونقش الوشم على أجسامهم، والاتصال بالجان فى تدبير شئونهم (لاويين ١٨ و ١٩ و ٢٠).

الثانى : إن الوثنيين كانوا يقدمون الذبائح ليس للتفكير عن خطاياهم فحسب، بل أيضاً لكى يرضوا الأرواح الشريرة التى كانوا يعتقدون أنها تزعجهم، أو لكى يبعدوها عن أجساد الذين لبستهم وترحل إلى عالمها ، ولذلك كان تقديم الذبائح لديهم مقترناً بالشعوذة. فضلاً عن ذلك فقد كانوا يقربون لآلهتهم وحوش البرية والطيور الجارحة (التى كان من المحرّم على اليهود تقديمها لله)، كما كانوا يشربون الدم ولا يحرقون أى ذبيحة بأكملها ، على النقيض مما كان يفعله اليهود أيضاً.

الثالث : إن الوثنيين كان لديهم فى كل بلد الكثير من المذابح، كما كانوا ينظرون إليها كالهدف الذى يتجهون إليه، ومن ثم كانوا يبالغون فى تزيينها ونقش صور آلهتم عليها ، كما كانوا يشيدونها على المرتفعات ليفخروا بها. أما اليهود ففضلاً عن أنه لم يكن لهم سوى مذبح واحد، هو الموجود فى هيكل أورشليم، فإنه قبل بناء هذا الهيكل، كان الله يطلب منهم أن يصنعوا المذبح من التراب أو من حجارة لم يمسسها أزميل، لكى تكون منخفضة، وفى الوقت نفسه لكى لا تكون ذا شكل يجذب الأنظار إليها فى ذاتها (خروج ٢:٢٤ و ٢٥).

---

* ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الوثنيين كانوا ينسبون إلى آلهتهم الميل العنيف إلى هذا الشر، وغيره من الشرور.

الرابع: إن الملوك لدى الوثنيين كانوا يقومون أحياناً بتقديم الذبائح. لكن هذا العمل كان مقصوراً لدى اليهود على الكهنة الذين أقامهم الله. وقد حاول مرة واحدة أحد ملوك بنى إسرائيل أن يرفع فقط بخوراً فى الهيكل لله، فضربه الله بالبرص (٢ أخبار الأيام ٢٦:١٨ و ١٩).

الخامس : كان كهنة الوثنيين يحلقون رؤوسهم بالموسى، أو يربون خصلاً، كما كانوا يشربون الدم ويقتنون الأملاك. أما كهنة اليهود فكانوا يجزون شعر رؤوسهم، ولا يربون خصلاً، ولا يشربون الدم. كما كانوا لا يقتنون أملاكاً، لكى تكون كل آمالهم وجهودهم مركزة فى خدمة الرب.

السادس : أخيراً نقول : بالرجوع إلى التاريخ نرى أن الذبائح ليست دخيلة على اليهودية بل أصلية فيها. فقد كان يقدمها آباء اليهود الأوائل مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب. كما كان يقدمها قبلهم رجال الله الأتقياء مثل هابيل ونوح، قبل ظهور الوثنية على الأرض بأجيال متعددة كما ذكرنا فيما سلف. أما الذى نقله اليهود عن الوثنيين فى فترة من الزمن، فهو عادة تقديم أبنائهم ذبيحة للوثن مولوك، وقد نهاهم الله كثيراً عن هذه العادة، كما أنزل عليهم بسببها قصاصاً شديداً (إرميا ٧:٣١ - ٣٤).

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تسرب إلى الوثنيين الاعتقاد بوجوب تقديم الذبائح الحيوانية لآلهتهم؟ طبعاً تسرب إليهم من أجدادهم الأوائل، وهم حام وسام ويافث، لأن هؤلاء هم الذين تكونت منهم الأجناس البشرية فى آسيا وإفريقية وأوربا على التوالى، كما يتضح من الكتاب المقدس وكتب الجغرافية البشرية - سام وحام ويافث هؤلاء كانوا بحكم علاقتهم مع نوح أبيهم (تكوين ٦:١٠)، يعرفون وجوب تقديم الذبائح لله كما ذكرنا فيما سلف. لكن على ممر الأيام نسى أبناؤهم (الذين عرفوا فيما بعد بالوثنيين) المولى جل شأنه، وبقى اسمه فقط عالقاً بأذهانهم، لذلك كانوا يطلقونه على الكائنات التى تخيلوا أنها تتصف بصفاته، ومن ثم كانوا يقدمون الذبائح والقرابين إليها وفقاً للمراسيم التى اخترعوها كما ذكرنا - هذا ومن المحتمل أن يكون المفكرون منهم مثل سقراط وأفلاطون رأوا وجوب تقديم هذه الذبائح نتيجة لشعورهم الشخصى بشناعة الخطيئة، ورغبتهم فى تجنب القصاص الذى يستحقونه من العدالة الإلهية بسببها، وبذلك سرت عادة تقديم الذبائح بين بعض الوثنيين(١٣).



(٤)

أهمية سفك دم الذبائح فى الحصول على الغفران

تعترى بعض الناس دهشة عظيمة عندما يرون الأضاحى الكثيرة التى كانت ولا تزال تقدم فى معظم بقاع الأرض، لكن لا داعى للدهشة على الإطلاق. لأنه لما كان الصفح عن الخطيئة أثمن شئ لدى المؤمنين بالله. ولما كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على هذا الصفح هى الفدية، لذلك كان أمراً بديهياً أن يضحى هؤلاء المؤمنون بهذه الكمية الهائلة من الذبائح، ولزيادة الإيضاح نتحدث عن النقاط الآتية :

١ - أهمية سفك دم الذبائح للتكفير، فى اليهودية والمسيحية :

قال الله لموسى النبى «لأن نفس الجسد هى فى الدم*. فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم، لأن الدم يكفّر عن النفس» (لاويين ١٧ : ١٠). وقال بولس الرسول للمسيحيين «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة» (عبرانيين ٩:٢٢)[١٤].

أما السبب فى كون الدم هو الوسيلة الوحيدة للمغفرة أو الفداء، فيرجع إلى أن نفس الحيوان هى فى دمه كما ذكرنا. وبما أنه بسفك دمه تفارقه نفسه، كان من البديهى أن يعتبر سفك الدم تعويضاً عن نفس الخاطئ، ومن ثم كان ينجو من القصاص الذى يستحقه، أو بالحرى يحصل على المغفرة التى يحتاج إليها.

٢ - عدم صلاحية القرابين غير الدموية للتكفير عن النفس :

ولذلك إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس نرى أن الله رفض قربان قايين (أخى هابيل) لأنه لم يكن ذبيحة دموية، بل كان ثمراً من أثمار الأرض. فقد قال الوحى عن الله «إلى قايين وقربانه لم ينظر» (تكوين ٤:٥).

---

* بما أن دم الحيوان يجرى فى جميع أجزاء جسمه ويبعث الحياة إليها، وبما أن الذى يقوم بهذه المهمة هو النفس، لذلك تكون نفس الحيوان فى دمه، كما أعلن الكتاب المقدس. ويتفق معنا بعض المسلمين على هذه الحقيقة. فقد جاء فى حاشية البيجورى على متن السنوسية (ص ١٥) "واعلم أن النفس تطلق .. على الدم".

وهنا يسأل بعض الناس "إذا كان الغفران يتوقف على سفك الدم، فلماذا لم يرشد الله قايين، كما أرشد هابيل أخاه، إلى ضرورة تقديم ذبيحة دموية؟" وللرد على ذلك نقول : إن الله أرشده كما أرشد أخاه تماماً، لكن قايين هو الذى شاء أن يقدم قرباناً حسب استحسانه. ومن ثم استحق أن يلومه الله بالقول «إن أحسنت (اختيار الذبيحة) أفلا رفع؟» أو بالحرى أما كان يرتفع وجهك، وتنال القبول أمامى مثل أخيك (تكوين ٤:٧) ـ واللوم لا يوجه (كما نعلم) إلا للشخص الذى يخالف وصية سبق تبليغها إليه.

مما تقدم يتضح لنا أن السبب فى قبول الله لهابيل يرجع إلى أن قربانه ينم عن الاعتماد على الفداء بالدم. وأن السبب فى رفضه لقايين، يرجع إلى أن قربانه ينم عن الاعتماد على الاجتهاد الشخصى فى القبول أمامه تعالى، لأن هذا الاجتهاد مهما كان شأنه، لا يستطيع أن يكفر عن الخطيئة. إذ أن «أجرة الخطية هى موت» : موت فاعلها أو موت من ينوب عنه، وليس القيام بعمل من الأعمال التى ندعوها الصالحة أو النافعة.

أما عن الدعوى "بأن الله رضى عن هابيل لأنه كان تقياً، ورفض قايين لأنه كان شريراً" فنقول : إن هابيل كان مولوداً بطبيعة تميل إلى الخطيئة مثل أخيه تماماً. ولذلك لا شك أنه كان يعملها مثله إن لم يكن بالفعل فبالفكر أو القول، ومن ثم يكون السبب فى قبول الله لهابيل ورفضه لقايين راجعاً فقط إلى نوع القربان الذى قدمه كل منهما ـ وقول الوحى عن هابيل إن الله شهد لقرابينه (وليس شهد له أو لأعماله) كما يتضح من عبرانيين ١١:٤، خير دليل على صدق ما ذكرناه.

٣ ـ تحريم شرب الدم :

ولما كان الدم هو الوسيلة التى عينها الله للغفران، حرّم على البشر شُربه. فقال لبنى إسرائيل «كل إنسان من بيت إسرائيل ومن الغرباء النازلين فى وسطكم يأكل دماً، أجعل وجهى ضد النفس الآكلة الدم وأقطعها من شعبها» (لاويين ١٧: ١٠). كما قال لنوح وأولاده من قبل، عندما سمح لهم لأول مرة فى التاريخ بأكل اللحم : «كل دابة حية تكون لكم طعاماً، كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. غير أن لحماً بحياته دمه (أى بدمه الذى فيه الحياة) لا تأكلوه» (تكوين ٩:٤). وبذلك نهى تعالى ليس عن شرب الدم فحسب، بل وأيضاً عن الحيوانات التى لم يسفك دمها. لأنه قال فى موضع آخر «ولحم فريسة فى الصحراء لا تأكل» (خروج ٢٢:٣١). كما قال عن الكاهن فى العهد القديم «وميتة وفريسة لا يأكل» (لاويين ٢٢:٨). ولما جاءت المسيحية نهت أيضاً عن شرب الدم وأكل لحم الحيوان الذى لم يسفك دمه، فقد قال الرسول للمؤمنين «وأن تمتنعوا عن الدم والمخنوق[١٥]» (أعمال ١٥:٢٩).

أما الذين ينكرون أن السبب فى تحريم شرب الدم، هو جعل الله إياه كفارة عن النفس، ففيما يلى آراؤهم مصحوبة بالرد عليها :

١ ـ إن الله نهى عن شرب الدم لأنه شرٌّ فى ذاته، وليس لنا أن نسأل عن ماهية هذا الشر، إذ يكفى أن نطيع الله فى كل ما يأمرنا به.

الرد : إن المادة فى ذاتها ليست شراً، بل الشر هو فى سوء استعمالها. فالمواد المخدرة مثلاً، من حيث هى مواد نباتية أو كيمائية، ليست شراً، لأنها تستعمل بأمر الأطباء فى علاج بعض الأمراض، إنما الشر،كما نعلم، هو فى استعمالها لخدمة الأهواء الجسدية. وبما أن الدم فضلاً عن أنه ليس شراً فى ذاته، يحتوى على عناصر مغذية للجسم، ومنه يصنع الهيموجلوبين (Haemoglobin) لعلاج حالات فقر الدم، إذاً ليس من المعقول أن يكون الله قد نهانا عن شرب الدم لذاته.

٢ ـ إن الله نهى عن شرب الدم، لأن حاسة الذوق فينا لا تقبله.

الرد : إن الإنسان، بل والحيوان أيضاً، يعرف بالطبيعة طعم الأشياء، فيأكل منها ما يتفق مع ذوقه ويرفض ما لا يتفق معه، دون أن يكون فى حاجة إلى أمر أو نهى من الله عن هذا أو ذاك. فضلاً عن ذلك فهناك أشياء كثيرة (كسلوفات الصودا مثلاً) لا تقبلها حاسة الذوق فينا، ومع ذلك ليس هناك من يقول بأنه محرم علينا استعمالها.

٣ ـ إن الله نهى عن شرب الدم لأنه يثير الشهوة فى الإنسان، كما يحوّله إلى وحش مفترس.

الرد : إن كانت بعض الأطعمة تبعث النشاط إلى جسم الإنسان، لكن الذى يثير الشهوة فيه ليس تناول هذه الأطعمة، بل التفكير فى الشهوة المذكورة. فضلاً عن ذلك فإن كثيرين من المرضى يأكلون (بناء على نصيحة الأطباء) الكبدة دون طهى أو شى (والكبدة كما نعلم كلها دم)، ومع ذلك لم يفترسوا أحد على الإطلاق.

مما تقدم يتضح لنا أنه ليس هناك سبب معقول لتحريم شرب الدم سوى ذاك الذى ذكره الوحى الإلهى، وهو «أن الدم يكفِّر عن النفس» (لاويين ١٧ : ١١)، الأمر الذى يدل على أن الوسيلة الوحيدة التى عينها الله للقبول أمامه، هى الفداء بالدم، أو بالحرى بالحياة.



(٥)

تطور الآراء من جهة الفداء بدم الذبائح

وإن كانت الذبائح الحيوانية لا تزال تشغل إلى الآن مركزاً عظيماً بين كثير من الناس فى بلاد متعددة، غير أن فكرة تقديمها لأجل الحصول على الغفران أخذت فى التطور بين رجال الله من عهد بعيد، ولكى نقف على الأسباب التى أدت إلى هذا التطور نقول :

١ - عدم كفاية الذبائح الحيوانية للفداء :

بما أن الفدية التى تصلح للتكفير عن الإنسان يجب أن تكون معادلة له فى القيمة، حتى تكون كافية للتعويض عنه، وبما أن نفس الإنسان روحية خالدة وذات خواص أدبية وعقلية سامية، بينما نفس الحيوان فضلاً عن كونها دموية لا خلود لها، هى خالية من هذه الخواص، إذاً لا يمكن أن تكون فى ذاتها كافية لفداء الإنسان والتكفير عنه أمام عدالة الله.

٢ - أسباب استعمال الذبائح الحيوانية للفداء :

وهنا يتساءل بعض الناس "إذا كانت الذبائح الحيوانية غير كافية فى ذاتها للتكفير عن الإنسان، فلماذا أمر الله بتقديمها ؟"

وللرد على ذلك نقول : إن الإنسان فى العصر الأول كان لا يقدّر القيم الأخلاقية تقديراً صحيحاً، كما يشهد بذلك الكتاب المقدس وكتب التاريخ. ولعدم تقديره لهذه القيم، كان يتعذر عليه إدراك نتائج الخطيئة فى نفسه، أو مقدار الإساءة التى يوجهها إلى الله بفعلها. لذلك كان من البديهى أن يبدأ الله وهو الحكيم العارف بطباع البشر وطرق تعليمهم وتهذيبهم، بإظهار خطورة الخطيئة ووخامة عواقبها بوسائل ملموسة تستطيع عقولهم البدائية فهمها وإدراكها. وذلك بتصوير الموت الذى هو النتيجة الحتمية للخطية بعمل يمكنهم رؤيته بعيونهم وفهم مرماه بعقولهم (كما هى الحال فى تعليمنا للأطفال مثلاً، فإننا نقدم لهم الصور قبل الكلمات المعبرة عنها، لأنهم يستطيعون إدراك مدلول الصور قبل إدراك معانى الكلمات المذكورة). ولما كان الحيوان هو أقرب الكائنات إلى الإنسان شعوراً بالراحة والألم، كما تظهر عليه بوضوح علامات الحياة والموت، كان من البديهى أن يعلن الله للخطاة ما

يستحقونه من عذاب مصوراً فى ذبح حيوان وحرقه. ومن ثم كانوا يدركون أنه بسبب خطاياهم، كان من الواجب أن يكونوا مكان هذا الحيوان، لكن الله من باب العطف عليهم سمح لهم به كفارة عنهم. ولذلك كانوا يشعرون بشناعة الخطيئة. ويشكرون الله لأنه جعل لهم طريقاً للخلاص من قصاصها.

٣ ـ أسباب تطور الآراء من جهة الذبائح الحيوانية :

لكن بارتقاء البشر أدبياً وروحياً، أخذوا يدركون نجاسة الخطيئة وتأثيرها الشنيع على نفوسهم، كما أخذوا يدركون فداحة الإساءة التى يوجهونها إلى الله بارتكابها. ومن ثم أدركوا أن الذبائح الحيوانية لا يمكن أن تكون فى ذاتها هى الفدية التى قصدها تعالى للخلاص من عقوبة الخطيئة. وقد صادق الله على إدراكهم هذا فقال «اسمع يا شعبى فأتكلم. لا على ذبائحك أوبخك، فإن محرقاتك هى دائماً قدامى. لا آخذ من بيتك ثوراً ولا من حظائرك أعتدة (أى جداء)، لأن لى حيوان الوعر (أى الغابة)، والبهائم على الجبال الألوف، ... هل آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس. اذبح لله حمداً وأوف العلى نذورك وادعنى فى يوم الضيق أنقذك فتمجدنى» (مزمور ٥٠: ٧ ـ ١٥). ولذلك قال داود النبى مرة لله «لأنك لا تسر بذبيحة. وإلا فكنت أقدمها. بمحرقة لا ترضى» (مزمور ٥١: ٦). وميخا النبى تساءل بينه وبين نفسه قائلاً «بما أقدم إلى الرب وأنحنى للإله العلى؟ هل أتقدم بمحرقات، بعجول أبناء سنة؟! هل يسر الرب بألوف الكباش، بربوات أنهار زيت؟! هلى أعطى بكرى عن معصيتى، ثمرة جسدى عن خطيئة نفسى؟!» (ميخا ٦: ٦ و ٧).

هذا هو ما انتهى إليه الأنبياء الذين كانوا يؤمنون بالله ويعملون كل ما فى وسعهم لينجوا من عقابه ويحصلوا على ثوابه، كما كانوا يكثرون من الصلوات والأصوام وأعمال الرحمة والإحسان وتقديم الذبائح والقرابين، ومع ذلك كانت خطاياهم على الرغم من قلتها أكثر وأشنع من أن يجدوا لها بهذه الوسائل غفراناً. لذلك قطعوا الأمل من جهة القبول أمام الله، فقال أيوب «ليس بيننا (أي بينه وبين الله) مصالح يضع يده على كلينا لكى يرفع (الله) عنى عصاه ولا يبغتنى رعبه». وقال أيضاً «فكيف يتبرر الإنسان (إذاً) عند الله؟» (أيوب ٩: ٣٣). كما قطعوا الأمل من وجود أى فدية عن نفوسهم. فقال داود النبى «الأخ لن يفدى الإنسان فداء، ولا يعطى الله كفارة عنه. وكريمة هى فدية نفوسهم، فغلقت إلى الأبد» (مزمور ٤٩: ٧ و ٨). أى أن الإنسان لا يستطيع أن يفدى أخاه الإنسان مهما كانت علاقة المحبة التى بينهما، لأن الفدية الحقيقية ليست فى متناول البشر على الإطلاق (كما سيتضح فى الباب الرابع). وقد صادق المسيح على اعتقادهم فقال «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه؟» (متى ١٦: ٢٦).

والحق أنه لا غرابة فى استيلاء الحيرة على هؤلاء الأفاضل، وشعورهم بالعجز عن معرفة الفدية الحقيقية التى تصلح للتكفير عنهم، لأنهم لتأثرهم بقداسة الله تأثراً حقيقياً كانوا يرون الخطيئة كما

هى بكل شناعتها وخطورتها. أما البعيدون عن الله فلا يستطيعون رؤية الخطيئة فى هذه الصورة، ومن ثم يظنون أنه من السهل الحصول على الغفران بواسطة أى عمل من الأعمال التى يطلقون عليها الأعمال الصالحة. لكن لو تطلعوا إلى ذواتهم فى نور عدالة الله وقداسته اللتين لا حد لهما كما فعل هؤلاء الأفاضل، لاستطاعوا أن يدركوا مثلهم عجزهم الكلى عن محو خطاياهم، بكل أعمالهم الخيرية وممارساتهم الدينية، وذبائحهم الكفارية، ولصرخ كل واحد منهم كما صرخ إشعياء النبى قديماً «ويل لى إنى هلكت، لأنى إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين !!» (إشعياء ٦:٥)، ولتهيئوا تبعاً لذلك لمعرفة الطريق الذى أعلنه الله للخلاص من عقوبة الخطيئة ونتائجها الشنيعة، والذى سنتولى إيضاحه بشئ من التفصيل فيما يلى.

***

أما الاعتراضات الموجهة ضد هذه الحقائق ففيما يلى بيانها والرد عليها :

إن عدم طلب الله لأى ذبيحة من بنى إسرائيل الوارد فى مزمور ٥٠:٧ ـ ١٥ السابق الإشارة إليه، يدل على عدم ضرورة تقديم الذبائح لأجل الحصول على الغفران. كما أن قول الله على لسان إرميا النبى لليهود "ضموا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحماً، لأنى لم أكلم آباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة" (إرميا ٧:٢١ ـ ٢٦) يدل على وجوب عدم تقديم الذبائح المذكورة.

الرد : بالرجوع إلى الآيات الواردة فى مزمور ٥٠:٧ ـ ١٥ نرى أن المرادبها ليس النهى عن تقديم الذبائح للحصول على الغفران، بل عدم استطاعة البشر تقديم الذبيحة الكافية عن خطاياهم، والدليل على ذلك أن الله حرضهم بعد هذه الآيات بـ ٦٠٠ سنة تقريباً على لسان ملاخى النبى على تقديم الذبائح التى لا عيب فيها، فقال لهم «إن قربتم الأعمى ذبيحة، أفليس ذلك شراً؟ وإن قربتم الأعرج والسقيم، أفليس ذلك شراً؟» (١:٨).

كما أنه بالرجوع إلى الآيات الواردة فى سفر إرميا (٧:٢١ ـ ٢٦)، نرى أن المراد بها ليس وجوب امتناع اليهود عن تقديم الذبائح، بل وجوب توبتهم لله ،وإصلاح طرقهم أمامه، لأنهم كانوا يظلمون الغريب واليتيم والأرملة، كما كانوا يسفكون دماء الأبرياء ويركضون وراء العبادة الوثنية، وبعد ذلك كانوا يتقدمون بذبائحهم إلى الله !! (إرميا ٧:١ ـ ١٥).



الباب الرابع

تفرّد الله بالقدرة على الفداء الحقيقى

- الشروط الواجب توافرها فى الفادى وإمكانية تحقيقها
- قانونية قيام الله بالفداء
- ظهور الله فى ناسوت للقيام بالفداء
- شخصية المسيح

(١)

الشروط الواجب توافرها فى الفادي، وإمكانية تحقيقها

عرفنا مما سلف أن الأنبياء وهم صفوة الناس، عجزوا عن الاهتداء إلى الفدية التى تصلح للتكفير عنهم، على الرغم من أصوامهم وصلواتهم وصدقاتهم وذبائحهم المتعددة، فما السبب فى ذلك؟

الجواب : طبعاً لأنهم وجدوا وجوب اشتمال هذه الفدية على مميزات يتعذر تحقيقها فى نظرهم. ولذلك سنبحث فيما يلى على قدر ما يتسع المجال أمام عقولنا، عن الشروط الواجب توافرها فى الفدية، أو بالحرى فى الفادى، حتى يكون قادراً على التكفير عن خطايانا تكفيراً حقيقياً (أو بالحرى على تحمل قصاصها بأسره، إيفاء لمطالب عدالة الله التى لا حد لها، وأيضاً على امدادنا بالحياة الروحية التى تؤهلنا للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، إيفاء لمطالب قداسته التى لا نهاية لها)، حتى يمكن الحصول على الغفران والتمتع بحضرة الله، ولذلك نقول :

أولاً - الشروط الواجب توافرها فى الفادى

١ - بما أن الفدية يجب أن تكون على الأقل مساوية فى قيمتها للشئ المطلوب فداؤه، وبما أنه لا يعادل الإنسان إلا إنسان مثله لأنه ليس له نظير بين الكائنات يعادله، لذلك فالفدية أو بالحرى الفادى الذى يصلح للتكفير عن نفوسنا، **يجب أن لا يكون حيواناً بل أن يكون على الأقل إنساناً**.

٢ - وبما أن هذا الفادى سيكون فادياً ليس لإنسان واحد بل لكل الناس، (وذلك لتعذر وجود فاد لكل واحد من بلايين البشر الذين يعيشون فى العالم، فى كل العصور والبلاد)، **يجب أن تكون قيمته معادلة لكل هؤلاء الناس**.

٣ - وبما أنه لو كان الفادى من جنس يختلف عن جنسنا (على فرض وجود مثل هذا الجنس)، لما استطاع أن يكون نائباً عنا، (لأن النائب يكون من جنس الذين ينوب عنهم)، لذلك فإنه مع عظمته التى ذكرناها، **يجب أن يكون واحداً من جنسنا**.

٤ - وبما أنه لو كان الفادى خاطئاً مثلنا، لكان محروماً من الله وواقعاً تحت قضاء القصاص

الأبدى نظيرنا، ولا يستطيع تبعاً لذلك أن ينقذ واحداً منا من هذا المصير المرعب، لأنه يكون هو نفسه محتاجاً إلى من ينقذه منه، لذلك فالفادى مع وجوب كونه واحداً من جنسنا، **يجب أن يكون خالياً من الخطيئة خلواً تاماً**.

٥ ـ وبما أن خلوه من الخطيئة وإن كان أمراً سامياً، لا يقوم دليلاً على كماله، وبالتالى على أهليته ليكون فادياً ـ فآدم مثلاً رغم أنه خلق خالياً من الخطيئة غير أنه لم يكن معصوماً منها، لأنه عندما عاش على الأرض سقط فيها، لذلك لا يكفى أن يكون الفادى خالياً من الخطيئة، **بل يجب أن يثبت بالدليل العملى أنه معصوم منها أيضاً**.

٦ ـ فضلاً عن ذلك، بما أنه لو كان مخلوقاً، لكان بجملته ملكاً لله، وشخص ليس ملكاً لنفسه بل ملكاً لله، لا يحق له تقديم نفسه فدية لله عن إنسان ما، إذاً فالفادى **يجب أن يكون أيضاً شخصاً غير مخلوق**، لكى يكون من حقه أن يقدم نفسه كفارة عن غيره.

٧ ـ أخيراً، بما أنه لا يمكن الحصول على الغفران والتمتع بالوجود فى حضرة الله إلا إذا تم أولاً إيفاء مطالب عدالته وقداسته التى لا حد لها، إذاً فالفادى **يجب أن يكون أيضاً ذا مكانة لا حد لسموها** حتى يستطيع إيفاء مطالب الأولى بتحمل كل قصاص الخطيئة عوضاً عنا، وإيفاء مطالب الثانية بإمدادنا بحياة روحية ترقى بنا إلى درجة التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، كما ذكرنا.

فترى من يكون هذا الفادى العظيم القدر، الخالى من الخطيئة والمعصوم منها، غير المخلوق فى ذاته وغير المحدود فى مكانته، حتى يستطيع متطوعاً أن يفى مطالب عدالة الله التى لا حد لها عوضاً عنا، ويبعث فينا أيضاً حياة روحية ترقى بنا لدرجة التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، وليس من يتصف بهذه الصفات أو يستطيع القيام بهذه الأعمال سوى الله؟ فهل هذا الفادى بجانب إنسانيته الممتازة **يجب أن يكون هو الله**؟!

حقاً إنه لسؤال خطير، لكن جوابه واضح كل الوضوح، ولا مفر منه على الإطلاق.

*

ثانياً - إمكانية تحقيق الشروط السابقة

١ - إن اتخاذ الله ناسوتاً* من جنسنا ليكون فيه فادياً لنا، فضلاً عن أنه أمر لا يتعذر عليه القيام به، فإنه باتخاذه هذا الناسوت :

أولاً : لا ينحصر فى مكان ما. لأن اللاهوت** لا يتحيز بحيز، إذ أن وجوده فى مكان (حسب تقديراتنا البشرية) لا يمنع وجوده فى مكان آخر فى نفس الوقت.

ثانياً : إنه باتخاذه هذا الناسوت، لا يفقد شيئاً من مجده الذاتى، لأن هذا المجد لا يتعرض للزيادة أو النقصان على الإطلاق.

ثالثاً : إن اتخاذه هذا الناسوت أمر تتطلبه رغبته فى أن تكون لنا جميعاً علاقة حقيقية معه، إذ لا يمكن أن تقوم لهذه العلاقة قائمة إذا ظل بعيداً عن مداركنا، وظللنا نحن بعيدين عن التوالف معه.

٢ - والشرط الخاص بخلو هذا الناسوت من أى ميل للخطية لا يستحيل تحقيقه، لأن الله عندما يتخذ لنفسه ناسوتاً، لا يحتاج الأمر فى تكونه إلى بذرة حياة من رجل ما، لأنه تعالى هو الحياة نفسها. وبما أن الطبيعة التى تميل إلى الخطيئة لا تنتقل إلى الإنسان إلا بواسطة التناسل الطبيعى، إذاً من البديهى أن يكون هذا الناسوت خالياً من الطبيعة المذكورة، ويكون أيضاً بسبب كماله الذاتى قادراً على أن يكون معصوماً من السقوط فى الخطيئة.

٣ - والشرط الخاص بوجوب مساواة نفسه لنفوسنا فى القيمة، من السهل علينا إدراك إمكانية تحقيقه، حينما نضع أمامنا أن ناسوت الله فضلاً عن كونه مقترناً به تعالى كل الاقتران، الأمر الذى يجعل قيمته لا حد لها على الإطلاق، فإن هذا الناسوت قدوس كل القداسة، والقدوس أعظم من كل الخطاة بما لا يقاس.

٤ - والشرط الخاص بوجوب امتلاك الفادى لناسوته (أو بالحرى بكونه غير مخلوق بواسطة كائن

---

* «الناسوت» مصدر من «الإنسان»، ومن ثم يراد به الطبيعة البشرية بما تحويه من جسد ونفس وروح.

** كلمة «اللاهوت» على وزن الناسوت والجبروت، يراد بها جوهر الله، وجوهر الله هو عين ذاته لأنه لا تركيب فيه على الإطلاق. أما الألوهية فهى مصدر منسوب إليه تعالى، مثل الفروسية المنسوبة إلى الفارس.

ما) من البديهى أن يتوافر فيه، لأن هذا الفادى هو الله، والله هو الخالق لكل الأشياء ومالكها.

٥ - والشرط الخاص بوجوب احتمال قصاص الخطيئة عوضاً عنا إيفاء لمطالب العدالة الإلهية التى لا حد لها، من البديهى أنه يتوافر فيه أيضاً، لأنه بوصفه هو الله، يحيط بمطالب هذه العدالة، ويستطيع أيضاً تحقيقها فى الناسوت الذى يتخذه.

٦ - والشرط الخاص بوجوب استطاعته أن يرقى بنا إلى حالة التوافق مع الله، من البديهى أن يتوافر فيه كذلك، لأنه فى ذاته هو الله، والله هو الذى يستطيع القيام بهذه المهمة.

مما تقدم نرى أن الشروط الواجب توافرها فى الفادى ليست معقولة فحسب بل ويمكن تحقيقها بوسيلة معقولة أيضاً.



(٢)

قانونية قيام الله بالفداء

إن موضوع «ظهور الله فى الناسوت للقيام بالتكفير عن خطايانا»، وإن كان لا ندحة من التسليم به للأسباب التى ذكرناها فى الباب السابق، غير أن البعض تساورهم الشكوك من جهته، ولذلك لنفحص فيما يلى اعتراضاتهم عليه، لنرى مكانتها من الصواب :

١ - الله منزه فى ذاته كل التنزيه، ومن ثم لا يمكن أن يتخذ لنفسه ناسوتاً مثلنا. لأى غرض من الأغراض.

الرد : إذا وضعنا أمامنا أن الله يحبنا محبة شديدة، لأنه خلقنا على صورته كشبهه كما ذكرنا فى الباب الأول، أدركنا أنه لا يمكن أن يكون متباعداً عنا بل لابد أن يكون حانياً علينا أكثر مما نفتكر أو نتصور. وهذا ما يدعوه إلى أن يشق لنفسه طريقاً من اللامحدودية إلى المحدودية مع بقائه غير محدود فى ذاته، ومن جو القداسة المطلقة الذى يحيط به إلى عالم الخطيئة الذى نعيش فيه، مع بقائه قدوساً فى ذاته. كما أن هذه المحبة تدعوه أن يعلن ذاته لنا بهيئة نستطيع إدراكه بها كل الإدراك، وهذه الهيئة هى الهيئة البشرية. إذ بدونها لا نستطيع أن نؤمن أنه يحبنا، وبالتالى لا نستطيع أن نحبه أو نثق أنه يمكننا الاقتراب منه والتوالف معه، ومن ثم فإن الله عندما يريد أن يعلن لنا محبته

ويكفر بنفسه عن خطايانا، لا يكون هناك ما نع لديه من الظهور فى ناسوت خاص*، طالما أن هذا الناسوت خال من الخطيئة ومعصوم منها.

وإذا كان الأمر كذلك، أدركنا أن التنزيه الذى يليق بالله هو التنزيه عن الخطأ وعن العجز والضعف، وليس التنزيه عن الاتصال بالناس الذين خلقهم على صورته، أو إظهار المحبة لهم والعطف عليهم بكل وسيلة من الوسائل.

٢ - كيف يشق الله لنفسه طريقاً من اللامحدودية إلى المحدودية مع بقائه غير محدود فى ذاته، ومن جو القداسة المطلقة الذى يحيط به إلى عالم الخطيئة الذى نعيش فيه مع بقائه قدوساً فى ذاته؟

الرد : بما أن وجود الله مع جماعة من الناس فى وقت ما، لا يمنعه كما نؤمن جميعاً من الوجود مع آلاف غيرها فى جهات متباعدة فى نفس الوقت، لذلك لا اعتراض على إمكانية ظهوره لنا فى ناسوت مع بقائه غير محدود فى ذاته. كما أن قداسة الله المطلقة لا تسمح، لأى شر بالتسرب إليه مهما كان هذا الشر على مقربة منه، لأن القداسة المطلقة التى يتصف بها الله عازل يحول دون ذلك، فهو والحالة هذه يشبه (إن جاز التعبير) النور الذى يشق طريقه فى وسط الظلمة، دون أن تختلط به أو يختلط هو بها.

٣ - كيف يظهر الله الذى لا حد لعظمته، فى ناسوت مثلنا؟

الرد : إن محبة الله الشديدة لنا، لا تسمح لأى عقبة بالوقوف فى سبيل تحقيق أغراضها، لا سيما وأن العظمة الحقيقية ليست فى تشامخ العظيم بل فى تواضعه، وليست فى تعاليه بل فى تنازله، كما أنها ليست فى الأثرة والأنانية بل فى الإيثار والتضحية. ولذلك لا يمكن أن يستنكف الله من أن يظهر لنا فى ناسوت خاص، طالما أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لفدائنا، وفى الوقت نفسه هى الوسيلة الوحيدة التى بها نستطيع إدراك محبته الفائقة لنا، ونستطيع بها أيضاً الدنو منه والتوالف معه. فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن الله كان يتراءى أحياناً لأصفيائه بهيئة مدركة [١] لديهم، اتضح لنا أن ظهوره فى ناسوت لكى يعلن لنا جميعاً محبته الفادية، لا يتعارض مع طبيعته أو مقاصده من نحونا، لا سيما إذا كان هذا الناسوت قدوساً خالياً من الخطيئة ومعصوماً منها كما ذكرنا.

٤ - إن القول "بظهور الله فى ناسوت خال من الخطيئة لكى يعلن محبته الفادية لنا". هو

---

* لأنه لو ظهر لنا فى هيئة ملائكية مثلاً، لما استطعنا إدراكه حق الإدراك، إذ ليس هناك مجال للتوافق الحقيقى بيننا وبين الملائكة.

محاولة لإخضاع الله لعقولنا، والحال أن عقولنا هى التى يجب أن تخضع لله فى روحانيته المطلقة وتنزهه عن كل عرض من الأعراض.

الرد : إن هذا الموضوع ليس محاولة منا لإخضاع الله لعقولنا ، بل إنه من مستلزمات طبيعته وعلاقته بنا كما اتضح لنا مما سلف. فالله ليس مثل الملك المحفوف بالكبرياء الذى لا عمل له إلا قبول الإكرام والإحترام من أتباعه، ومعاقبة الذين يسيئون إليه ومكافأة الذين يخلصون له منهم، وإظهار شئ من العطف فى بعض الأحيان على من تنزل بهم الكوارث مثلاً، مع بقائه فى برجه العاجى مترفعاً عنهم أجمعين. لكنه مثل الأب الطيب الذى لا يدع فاصلاً بينه وبين أولاده، بل وفى محبة شديدة يقترب إليهم ويقربهم إليه، كما ينزل إلى مستوى مداركهم لكى يعلن لهم ما خفى عنهم من جهة شخصه وأغراضه الصالحة من نحوهم. وإذا استلزم الأمر فإنه يضحى بكل ما لديه من أجلهم، لكى يرقى بهم إلى أسعد حالة ممكنة.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الله لا يريد أن ندنو منه ونحن فى حالة الرعب أو الذعر (لأن هذه الحالة لا تتوافق مع كماله ولا تعود علينا بخير ما) ، بل أن ندنو منه ونحن فى حالة المحبة له والشوق إليه. وأنه لا يمكن أن ندنو منه فى الحالة الثانية إلا إذا أعلن لنا ذاته ومحبته بهيئة مدركة لنا كل الإدراك، اتضح لنا أن اتخاذ الله لنفسه ناسوتاً قدوساً لإعلان محبته لنا وتكفيره عن خطايانا ، أمر يتوافق مع ذاته ومع علاقته بنا كل التوافق كما ذكرنا.

٥ ـ إن الفداء لا يكون إلا بين جماعة تربطها رابطة خاصة أو يجمعها جنس واحد، والله فى ذاته لا تربطنا به هذه الرابطة، كما أنه ليس من جنسنا، فكيف يكون فادياً لنا؟

الرد : إننا نقول بكل فخار إن الله خلقنا على صورته كشبهه، وأعطانا نسمة حياة خالدة من لدنه، كما جعلنا أعز الكائنات وأقربها إليه، وعرفنا بالكثير عن ذاته ومقاصده من نحونا بواسطة وحيه الذى كان يرسله إلينا من وقت إلى آخر ـ فضلاً عن ذلك، قال لنا بعبارة صريحة إنه ألصق نفسه بنا وألصقنا به (إرميا ١٣:١١) ، وليس هناك رابطة فى الوجود مثل هذه الرابطة. أما من جهة وجوب كون الفادى واحداً من جنسنا ، فهذا يتحقق بالتمام باتخاذ الله لنفسه ناسوتاً مثلنا (إنما خالياً من الخطية خلواً تاماً كما ذكرنا) ـ وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال «وإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما ، لكى يبيد بالموت ذاك الذى له سلطان الموت أى إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية (عبرانيين ٢:١٤ و ١٥).

٦ ـ كيف نعلم أن الله يريد فداءنا، أو التكفير عنا بنفسه؟

الرد : (أ) فضلاً عن الأدلة المتعددة الواردة فى التوارة والإنجيل عن قيام الله بفدائنا أو التكفير

عنا، كما ذكرنا فيما سلف، نقول : بما أن الله لم ينفذ حكم الموت فى آدم بعد سقوطه فى الخطيئة مباشرة، بل أبقاه حياً. وبما أنه ليس من المعقول إزاء كمال الله أن يكون قد أبقاه حياً لكى يلد ملايين البشر للشقاء الأبدى. إذاً فعدم قضاء الله على آدم بالموت بعد سقوطه فى الخطيئة مباشرة، دليل على أنه تعالى لا يريد هلاك البشر بل خلاصهم. وبما أن خلاصهم لا يتحقق إلا بفدائه إياهم بنفسه، إذاً فمن المؤكد أنه أراد أن يقوم بهذه المهمة منذ القديم.

(ب) كما أننا إذا وضعنا أمامنا، أن الذبائح الحيوانية التى كانت تقدم بقصد التكفير عن الخطيئة، لم تكن صالحة فعلاً لهذا الغرض كما مرّ بنا، وأنه على الرغم من عدم صلاحيتها كان الله يأمر الناس بوجوب المواظبة على تقديمها طوال العهد القديم، بل وجعل تقديمها وقتئذ الوسيلة الوحيدة لقبولهم أمامه، اتضح لنا أنه لابد أنها كانت ذات معنى لديه، وهذا المعنى (كما يتضح من دراسة التوراة والإنجيل) ينحصر فى أنها (أى الذبائح) كانت رمزاً إلى فاد يستطيع التكفير عن الخطية تكفيراً حقيقياً إلى الأبد (١كورنثوس ٥:٧، عبرانيين ١٣:١١ و ١٢). وبما أن الذى يقوم بهذه المهمة هو الله دون سواه، إذاً لابد أنه تعالى قصد أن يفتدينا بنفسه منذ القديم كما ذكرنا.

(جـ) أخيراً نقول : إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس، نرى أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى خلقه الله على صورته كشبهه، وهو المخلوق الوحيد الذى عندما يطيع الله، تصبح الملائكة خداماً له. فقد قال الوحى عن الملائكة إنهم جميعاً أرواحاً خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص (عبرانيين ١:١٤)، الأمر الذى يدل على أن الإنسان هو أعظم المخلوقات وأقربها إلى الله وأحبها إليه، وأن الله قصد منذ الأزل أن تكون له مع هذا الإنسان علاقة وثيقة مستمرة. وبما أنه لا مجال لهذه العلاقة مع وجود الخطيئة، ولا مجال لمحو الخطيئة إلا بفداء الله للإنسان (أو بالحرى إلا بتكفيره عن خطاياه وإمداده بحياة روحية يستطيع بها التوافق معه تعالى)، إذاً لا شك أن الله قصد منذ الأزل أن يفتدينا بنفسه.

٧ - ألا توجد وسيلة للخلاص من خطايانا إلا بافتداء الله لنا بنفسه؟

الرد : (ا) حقاً ما أصعب هذا السؤال أمام بعض الناس، وما أكثر الحيرة التى يسببها لهم، لكن دون تحيز لأى رأى من الآراء نقول : إننا لا نستطيع بعقولنا أن نعرف كل أفكار الله وتدبيراته، لأن إدراكنا محدود وهو تعالى فوق الحدود، لذلك فمن الشطط أن نتصور خطة خاصة يتحتم عليه تعالى استخدامها فى أمر خلاصنا من الخطيئة. لكن بحسب العقل الذى تفضل وأعطاه لنا نقول : لو كان من الجائز أن تقل عدالة الله وقداسته عن رحمته ومحبته، لكان من الجائز أن ينقذ جميع البشر من خطاياهم ويقربهم إلى حضرته بكلمة واحدة، كما خلق العالم من قبل بمثل هذه الكلمة. لكن بما أن

عدالته توازى رحمته، وقداسته توازى محبته (وذلك بسبب كمال كل صفة من صفاته وتوافقها معاً توافقاً تاماً)، إذاً فمع رحمته ومحبته اللتين لا حد لهما، فإن من مستلزمات الكمال الذى يتصف به تعالى، ألا يتساهل فى شئ من مطالب عدالته وقداسته. وبما أنه لا يستطيع إيفاء مطالب هذه وتلك سواه كما مر بنا، إذا لا سبيل للخلاص من الخطيئة ونتائجها إلا بقيامه تعالى بافتدائنا بنفسه.

(ب) أما لو صفح الله عنا وقربنا إليه دون أن يفتدينا بنفسه، لكانت عدالته وقداسته قد انخفض قدرهما عن رحمته ومحبته، أو لكان قد انحاز إلى رحمته ومحبته دون عدالته وقداسته. وبما أنه لكماله المطلق لا يمكن أن تقل عدالته عن رحمته أو قداسته عن محبته، ولا يمكن أيضاً أن ينحاز إلى صفة فيه دون أخرى، إذاً فمن المؤكد أنه يقبل القيام بافتدائنا بنفسه، لأن هذا يكون أكثر موافقة لكماله من الصفح عنا وتقريبنا إليه بوسيلة لا تتفق مع عدالته وقداسته. وبالإضافة إلى كل ما تقدم، فإنه أيسر لنا أن نؤمن بإله يحب خليقته ويبذل كل ما لديه فى سبيل إسعادها، من أن نؤمن بإله غير كامل الصفات أو ينحاز إلى صفة دون الأخرى.

٨ ــ إن الله (كما أعلن الوحى) بطئ الغضب وكثير الإحسان (خروج ٣٤:٦)، ومن ثم يمكنه أن يصفح عن الخطاة من مجرد رحمته، لا سيما وأن هذا التصرف يكون أحسن لدى الله من الفداء الذى يكلفه كثيراً.

الرد : (ا) إذا كان الله يصفح عن الخطاة دون مراعاة لعدالته ويقرّبهم إليه دون مراعاة لقداسته، تكون عدالته قد قلت فى قيمتها عن رحمته، وتكون قداسته قد قلت فى قيمتها عن محبته، وهذا ما لا يمكن حدوثه بسبب كماله المطلق وتوافق صفاته معاً كما ذكرنا. كما أنه إذا كان الله يترك الأشرار يطغون ويعبثون، وفى نهاية الأمر يأتى بهم إلى سمائه لكى ينعموا فيها (إذا كانوا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً)، لا يكون رحيماً أو رؤوفاً بل متساهلاً مع الشر والإثم. ولكن بتكفيره عن البشر بنفسه (أو بالحرى بتحمله نتائج خطاياهم عوضاً عنهم، وإمداده إياهم بحياة روحية يمكنهم بها التوافق معه فى صفاته السامية) يظهر منتهى العدالة ومنتهى الرحمة، كما يظهر منتهى القداسة ومنتهى المحبة. فضلاً عن ذلك فإنه يذيب قلوب المخلَّصَين منهم، فيقبلون إليه بكل حب وإخلاص، وهم على استعداد تام لخدمته وإكرامه مهما كلفهم الأمر من جهد.

ولا مجال للاعتراض على وضعنا لعدالة الله وقداسته نصب أعيننا دائماً عند البحث فى مسألة الغفران والقبول لديه تعالى، لأن العدالة والقداسة لديه ليستا مبدأين أخلاقيين منفصلين عن ذاته يراعيهما عند القيام بأعماله كما هى الحال عند المخلصين من الحكام والقضاة، بل أنهما (مع المبادئ الأدبية الأخرى) صفتان كائنتان فى ذاته. ومن ثم لا يمكن أن يتخلى عنهما أو يتصرف بالرحمة

والمحبة. دون إيفاء مطالب كل منهما أولاً.

(ب) أخيراً نقول : إن الأحسن لدى الله ليس هو الأسهل فى نظرنا، لأن الله لا ينظر إلى أمر من الأمور التى يعملها من جهة كونه سهلاً أو صعباً، إذ أن كل الأمور سهلة لديه. لكنه ينظر إلى كل أمر من جهة كونه متوافقاً مع كماله كل التوافق، لأنه يتمشى مع عدالته وقداسته التى يجب إيفاء مطالبهما على أى نحو من الأنحاء، لذلك فهو الشئ «الأحسن» لديه - إن كان هناك مجال لوجود شئ «حسن» وآخر «أحسن» فى الأعمال التى يقوم بها تعالى.

٩ - إذا كان ولابد من الفداء، فهل يعجز الله عن خلق شخص يقوم به نيابة عنه تعالى؟

الرد : بما أنه لا يستطيع القيام بالفداء إلا الله كما مر بنا، وبما أنه ليس من المعقول أن يخلق الله شخصاً نظيره، لأن المخلوق يكون محدثاً والمحدث لا يكون مثل القديم الأزلى فى شئ من خصائصه، إذاً ليس هناك كائن غير الله يستطيع أن يفدينا ويكفّر عنا سيئاتنا.

فضلاً عن ذلك لو أن الله خلق شخصاً نظيره للقيام بهذه المهمة، لكان قد ظلم هذا الشخص وعاقبه بأشنع عقوبة دون ذنب جناه. أما إذا كان تعالى يقوم بافتدائنا بنفسه، فلا يكون قد ظلم أحداً أو قسا عليه، بل يكون قد أظهر منتهى المحبة والرحمة لنا، الأمر الذى هو خليق به. كما أنه لو قام شخص غير الله بفدائنا، لأصبح هذا الشخص مصدر حياتنا وولى نعمتنا (لأنه يكون بالنسبة لنا المنقذ من العذاب الأبدى والواهب الحياة الأبدية لنا)، ولصرنا كلنا تبعاً لذلك عبيداً له من دون الله. كما يكون الله قد تنازل لهذا الشخص عن مجده الذاتى كالسيد الرب الوحيد الذى له وحده الإكرام والعبادة، والحال أن الله لا يمكن أن يتنازل عن مجده هذا لكائن ما (إشعياء ٤٢:٨)، لأنه فضلاً عن أنه لا إله إلا هو، لا يجوز أن يكون هناك إله معه على الإطلاق (وإلا لكان تعالى محدوداً فى قدرته، وهذا محال)، لذلك كان أمراً بديهياً أن يقوم الله نفسه بافتدائنا كما ذكرنا.

١٠ - إن محبة الله للبشر، مهما بلغت شدتها، لا يمكن أن تصل إلى الدرجة التى يقوم معها بفدائهم بنفسه، لما يتطلبه الفداء من تضحية لا قبل لنا على تصورها.

الرد : إذا كان الأب البار بأبنائه، مع ما فيه من نقائص، يحبهم محبة شديدة ويحتمل بنفسه نتائج أخطائهم عوضاً عنهم، لذلك لا غرابة إذا كان الله الكامل كل الكمال يرضى، فى محبته التى تفوق محبة الآباء بدرجة لا حد لها، أن يتحمل عنا نتائج خطايانا، بل يعوّض لنا أيضاً ما نكون قد فقدناه (بل وأكثر مما نكون قد فقدناه) من امتيازات، بسبب جهلنا وانحرافنا عنه. والكتاب المقدس ملئ بالآيات التى تدل على أن الله يسرّ بنا ويحبنا محبة لا حد لها، الأمر الذى يدل على أن فداءه لنا أمر يتوافق ليس فقط مع ذاته وما بها من كمال مطلق، بل ويتوافق أيضاً مع علاقته بنا كما ذكرنا.

ففى التوراة، أعلن الوحى أن لذّات الله هى مع بنى آدم (أمثال ٨ :٣١)، وأنه أحب المؤمنين محبة أبدية، ولذلك أدام لهم الرحمة (إرميا ٣١ :٣). وأنهم أعزاء ومكرمون فى عينيه (إشعياء ٤٣ :٤)، وبمثابة حدقة العين لديه (تثنية ٣٢ :١٠)، وأنه بمحبته ورأفته يفكهم من ضيقاتهم (إشعياء ٦٣ :٩)، وأنه يجذبهم بربط المحبة إذا ضلوا عنه (هوشع ١١ :٤)، وأنه أحبهم ليس لصلاح فيهم بل أحبهم فضلاً (هو شع١٤ :١٢)، أو بالحرى دون أن يكون هناك شئ فيهم يدعوه إلي إظهار المحبة لهم.

وفى الإنجيل، أعلن الوحى أن مسرة الله هى فى الناس (لوقا ٢ :١٤)، وأنه أحب العالم بأسره[٢] (يوحنا ٣ :١٦)، وأنه أحب المؤمنين به إلى المنتهى (يوحنا ١٣ :١) وأنهم لذلك يدعون أحباء الله (رومية ٨ :٧) وأولاده (١يوحنا ٣ :١).

فضلاً عن ذلك فقد أعلن الوحى أن المحبة ليست مجرد صفة من صفات الله بل أنها ذات طبيعته، فقد قال «الله محبة» (١يوحنا ٤ :٨)، أى أنه بكلياته وجزئياته (إن جاز التعبير) محبة. ولذلك فإنه لا يقف عند حد الاهتمام بالناس أو الإحسان إليهم، بل إنه أيضاً يتوق إليهم ويريد الاتصال بهم اتصالاً وثيقاً. ومن ثم فإننا بقولنا إن الله يحب البشر، نعنى (سواء اعترفنا بشفاهنا أو لم نعترف) أنه يضحى بكل شئ لديه فى سبيل خيرهم وإسعادهم.

١١ ـ من هو الإنسان بالنسبة إلى الكون المترامى الأطراف، حتى يحبه الله بهذا القدر؟

الرد : إن العظمة ليست فى الضخامة بل فى الفهم والإدراك، وإلا لكان الفيل أعظم قدراً من الإنسان لأنه أكبر حجماً منه ـ حقاً إن الإنسان مخلوق ضعيف، إذ أن أصغر الميكروبات تستطيع الفتك به. لكن الله فى نعمته الغنية ميّز الإنسان عن كل المخلوقات بمميزات سامية، إذ فضلاً عن أنه خلقه على صورته كشبهه، فقد جعله الممثل له على الأرض والمتسلّط عليها من قبله (تكوين ١ :٢٨). والواقع يؤيد هذه الحقيقة كل التأييد، فإن آثار الإنسان فى العالم تدل على أنه أسمى المخلوقات وأعظمها إدراكاً وذكاء، فقد أخضع قوى الطبيعة لسلطانه، واستأنس الحيوانات واستخدمها لقضاء حاجاته، وزرع النباتات وألف منها أنواعاً جديدة، وكشف عن مصادر الثروة فى البر والبحر معاً. كما عرف الكهرباء والطاقة الذرية واستخدمها فى قضاء مآربه. وفى الوقت الحاضر انطلق إلى الفضاء وهبط على القمر والمريخ وأخذ يحاول الهبوط على غيرهما من الكواكب أيضاً. وحقاً لقد صدق شكسبير فى قوله قديماً عن الإنسان "إنه أعظم من كل ما فى الكون من كائنات، وإنه أقرب إلى الآلهة* منه إلى المخلوقات". ومهما كان قصد شكسبير من هذه العبارة، فليس فى العالم كائن يشبه الإنسان فى الفهم والإدراك والطموح إلى العلاء، ومن ثم لا عجب إذا كان الله يحب الإنسان محبة لا

* لا شك أن شكسبير يقصد بالآلهة هنا، آلهة الرومان واليونان فى الأساطير القديمة.

حد لها، ويقبل على افتدائه بنفسه طالما أنه ليس هناك من يفتديه سواه، كما ذكرنا فيما سلف.

١٢ - إن الله وإن كان لا يعسر عليه أمر، لكن تحمله نتائج خطايانا فى نفسه عوضاً عنا، أمر لا يتفق مع العقل.

الرد : (أ) إن الله ليس فقط مثل الحاكم الذى لا يعامل شعبه إلا بالحق والعدل، بل مثل الأب الذى يبذل النفس والنفيس من أجل إسعاد أبنائه كما سبقت الإشارة. فضلاً عن ذلك، فهناك فرق كبير بين الأمور التى لا تتفق مع العقل وبين تلك التى تفوق إدراكه. فالثانية هى ما تتفق مع العقل فى ذاتها، لكن لعظمتها تسمو فوق إدراكه فى كيفية تنفيذها، ومن ثم لا يستطيع الإحاطة بها، أما الأولى فلا تتفق مع العقل إطلاقاً، لا فى ذاتها ولا فى كيفية تنفيذها، فإذا قيل، مثلاً، إن الله لا يعبأ بالإنسان (كما ينادى بعض الفلاسفة)*، فإن هذا القول لا يتفق مع العقل، لأنه من المفروض أن يهتم الله بالإنسان الذى خلقه على صورته كشبهه. أما إذا قيل إنه تعالى أحب الإنسان وفداه بنفسه، فإن هذا القول لا يكون ضد العقل بل أسمى منه، لأنه من المفروض أن يحب الله الإنسان كما ذكرنا، ومن المفروض أيضاً أن تكون محبته له متناسبة مع ذاته تعالى. وبما أن ذاته لا حد لها، تكون محبته للإنسان لا حد لها أيضاً. وبما أن المحبة التى لا حد لها تظهر فى القيام بخدمات وتضحيات لا حد لها فى قدرها ونوعها، إذاً إن كان الله يقوم بأعظم تضحية فى سبيل إنقاذنا من قصاص خطايانا ومنحنا طبيعة روحية نتوافق بها معه فى صفاته السامية، لا يكون قد أتى أمراً ضد العقل، بل أسمى من العقل، وفى الوقت نفسه يتفق مع العقل كل الإتفاق - وهذا ما يدعونا إلى تصديقه وقبوله بكل شكر وحمد.

(ب) فضلاً عن ذلك إذا كانت الحكومات تبجّل من يضحون بعضو من أجسامهم - ومن بين الذين قاموا بهذا العمل فى جمهورية مصر العربية فى عام ١٩٦٤ سيدة، فاعتبرت أماً مثالية، وعامل فى عام ١٩٦٦ فمنح وسام الجمهورية، وسيدة فى عام ١٩٧٢ فمنحت وسام الكمال من الدرجة الثانية، واعتبرت أماً مثالية - وإذا كنا نحن نبجّل الفدائيين ونجلهم ونشيد بعظمتهم، مع أنهم فى سبيل إنقاذ بلادهم من أيدى المغتصبين، يقتلون أشخاصاً قد يكونون أبرياء كل البراءة، فلا شك أن فداء الله لنا الذى يترتب عليه أن يتحمل نتائج خطايانا عوضاً عنا، دون أن يسبب ضرراً أو أذى لواحد منا، لأمر عظيم كل العظمة وسام كل السمو، وجدير أيضاً بكل إكرام وتقدير.

---

* ويرجع السبب فى ذلك إلى اعتبارهم وحدانية الله، وحدانية مجردة أو مطلقة، لأنه لو كانت هذه وحدانيته، لما كانت له أية علاقة أزلاً. ومن ثم لا يمكن أن تكون له علاقة مع الكائنات التى وجدت فى الزمان . لأن نشوء علاقة له معها يقتضى تعرضه للتغير والتطور. إذ يصبح ذا علاقة بعد أن لم تكن له علاقة. والحال هو لا يتغير ولا يتطور على الإطلاق. ونظراً لأننا سنتحدث عن هذا الموضوع فيما يلى، نكتفى بهذه الإشارة.

١٣ ـ إن افتداء الله لنا بنفسه يفرض علينا التأثر، والتأثر يدل على التغير، والحال إن الله لا يتغير.

الرد : إذا نظرنا إلى الله كمجرد فكرة أو قوة، أو كإله جامد أو غير معين، أو كمقيم فى عزلة عن خليقته (كما ينظر إليه بعض الفلاسفة)، لا يمكن طبعاً إسناد التأثر إليه بحال. لكن إذا نظرنا إليه كما هو، ذات يتصف بكل صفات الكمال ويتصل بنا اتصالاً وثيقاً لمحبته التى لا حد لها لنا، ووضعنا أمامنا أن كل علاقة بين طرفين تقتضى حدوث تأثير فى كل منهما، اتضح لنا أنه لا مفر من التسليم بأن الله يتأثر (على نحو يتفق مع روحانيته المطلقة) بسبب علاقته بنا كما ذكرنا فى الباب الأول. غير أن تأثر الله هذا لا يؤدى إلى حدوث تغير فى ذاته، لأنه كان يعرف كل شئ عنا منذ الأزل، ومن ثم يكون قد قصد من الأزل أن يفتدينا بنفسه، لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لخلاصنا. ولذلك عندما أخطأنا فى الزمان وتطلب الأمر أن يعلن فداءه لنا، لا يكون قد طرأ عليه أمر جديد يستدعى حدوث تغير فى ذاته، إذ يكون فقط قد أعلن لنا ما قصد أن يعمله أزلاً، كما خلق العالم فى الزمان دون أن يطرأ عليه تعالى تغير ما، بسبب علمه بهذا العالم منذ الأزل.

١٤ ـ ما الذى يُلزم الله بافتدائنا، وما الذى يهدف إليه بهذا الإفتداء؟

الرد : (ا) طبعاً ليس هناك شئ فى الوجود يستطيع أن يفرض على الله القيام بعمل ما، بل إنه يقوم بكل أعماله بمحض إرادته الذاتية ومشيئته، لأنه ليس هناك مَن له أدنى سلطة أو تأثير عليه. لذلك من البديهى أن يكون الباعث الوحيد على افتدائه لنا، هو كماله المطلق ومشيئته الصالحة من نحونا. فقد قال الوحى عنه أنه يعمل كل شئ «حسب قصده» و «حسب مسرة مشيئته»، و «حسب مسرته التى قصدها فى نفسه» (أفسس ١:٥ ـ ١١).

كما أن الله لا يهدف بهذا الفداء إلى الحصول على خير منا، لأنه فضلاً عن أنه ليس فى حاجة إلى خير من أى كائن من الكائنات، لأنه كامل فى ذاته كل الكمال ومستغن عن كل شئ من الأشياء، فإن التضحية التى تعمل للحصول على خير تفقد قيمتها وتصبح عملاً تجارياً لا يليق بكائن عظيم مثل الله، ومن ثم فإنه لا يقصد بالفداء إلا خير البشر وإسعادهم، وفى خيرهم وإسعادهم تتحقق أغراضه السامية من نحوهم.

(ب) فضلاً عن ذلك، إذا كان الأمناء من البشر، كما نعلم جميعاً، يتصرفون فى الأعمال المسندة إليهم بكل نزاهة وإخلاص. وإن استلزم الأمر، فإنهم يضحون عن طيب خاطر بصحتهم ومالهم للقيام بهذه الأعمال على الوجه الأكمل، ليس خوفاً من رؤساء أو طمعاً فى جزاء بل لضمائرهم ومبادئهم لذلك ليس من المعقول إطلاقاً أن يترك الله، وهو الكامل فى كل صفاته، طريق الفداء الذى يتفق مع

عدالته وقداسته، ويلجأ إلى طريق التساهل معهما أو عدم المبالاة بهما، ألا وهو طريق الغفران بدون فداء.

ومن أمثلة الأمناء الذين أشرنا إليهم، كما طالعتنا الصحف أكثر من مرة، قضاة، عرضت عليهم قضايا ضد أشخاص يمتون إليهم بصلة القرابة. ولما درسوها وجدوا أن القانون يقضى على هؤلاء الأشخاص بغرامات مالية يعجزون عن دفعها. فأبت نزاهتهم أن يستغلوا مراكزهم لتبرئة أقربائهم أو تخفيض الغرامات الواجب تحصيلها منهم. ولذلك بعد أن أصدروا الأحكام عليهم بالغرامات القانونية، دفعوا من جيوبهم هذه الغرامات عوضاً عنهم، ومن ثم حفظوا للقانون كرامته، ولنفوسهم نزاهتها وعفتها، كما رفعوا رؤوس أقربائهم وصانوهم من نقد المنتقدين وتهكم المتهكمين. فإذا كان بعض البشر يتصرفون هذا التصرف النبيل، فلا شك أن الله الذى هو أسمى منهم بدرجة لا حد لها، لا يمكن أن يهمل مطالب عدالته وقداسته بسبب عطفه على الناس ومحبته لهم.

(جـ) أما عن الاعتراض بأن "القضاة المذكورين ربما دفعوا الغرامات خوفاً من المؤاخذة وبالأخص من رؤسائهم، لكن الله ليس عليه رقيب يحاسبه، ولذلك لا حرج عليه إذا كان يعفو عن الخطاة دون تضحية من جانبه". فنقول: إن الله وإن لم يكن عليه رقيب يناقشه الحساب، لكن له كماله الذاتى الذى ينزهه عن أى تصرف لا يتفق مع القداسة والعدالة، كما ذكرنا فى الباب الثالث.

١٥ - إن التضحية بالمال والصحة والوقت أمر جائز، لكن تحمل الآلام نيابة عن المذنبين أمر لا يتفق مع العدالة، لأن هذه تقضى بأن المذنب هو نفسه الذى يجب أن يسجن أو يجلد أو يقتل.

الرد: طبعاً لو كان المذنبون السابق ذكرهم محكوماً عليهم بالسجن أو الجلد أو القتل، لما كان من الجائز للقضاة مهما كانت درجة القرابة التى تربطهم بهم، أن يتحملوا عنهم هذه العقوبات. لكن لا يمكن أن يكون هذا هو الحال من جهة موقف الله إزاء الخطاة، لأنه هو وحده الذى وضع القانون الخاص بمعاقبتهم، وهو وحده الذى ينفذ هذا القانون، وذلك بالطريقة التى تتفق ليس مع عدالته فحسب بل ومع رحمته أيضاً، لأن هذه متحدة مع تلك كل الاتحاد فى ذاته. وإذا كان الأمر كذلك، فإن عقولنا لا تستبعد مطلقاً أن يقوم تعالى بالتكفير بنفسه عنا، لأنه بهذه الوسيلة يفى مطالب عدالته التى لا حد لها، وفى الوقت نفسه يظهر لنا رحمته التى لا حد لها أيضاً. ولو لم يقم بهذا العمل من تلقاء ذاته، لكان حرج موقف الأتقياء الذين يحبونه والبؤس الذى يهددهم فى الحاضر والمستقبل معاً مثل غيرهم من الناس، يطالبانه باسم رحمته ومحبته اللتين لا حد لهما، أن يقوم به على حساب نفسه، لأنه تعالى خالقهم ولا ملجأ لهم إلا شخصه ولا رجاء لهم إلا عنده، ولا ريب أنه كان يستجيب لهم، مهما تطلب

الأمر من تضحية، وهذا ما حدث فعلاً كما سنرى فى الباب التالى.

١٦ ـ إن العدالة، كما أعلن الوحى، هى أن لا يحمل الابن إثم أبيه، أو الأب إثم ابنه (تثنية ١٦:٢٤ ، حز قيال١٨: ٢٠)، بل أن النفس التى تخطئ هى تموت. فكيف يحمل الله إثمنا ويتألم بسببه عوضاً عنا؟

الرد : (ا) إن كلا من الأب والابن مخلوق بواسطة الله، ومسئول شخصياً أمامه عن الآثام التى يقترفها وحده، ولذلك لا يحمل أحدهما من إثم الآخر. ولكن الله وإن كان غير مسئول أمام كائن ما، غير أنه مسئول، إن جاز التعبير، أمام ذاته، وذاته لا تتصف فقط بالعدالة التى لا حد لها، بل وأيضاً بالرحمة التى لا نهاية لها، لأن هذه وتلك متحدتان فى ذاته دائماً أبداً، وذلك لكماله المطلق فى كل صفة من صفاته. ومن ثم فإن موقف الله إزاءنا لا يكون موقف العدالة المجردة، بل موقف العدالة المتحدة بالرحمة، أو بالحرى موقف التضحية. وهذا ما يدعوه إلى تحمل نتائج خطايانا إيفاء لمطالب عدالته، وتحملها نيابة عنا إيفاء لمطالب رحمته.

فناموس التضحية وإن كان يختلف عن ناموس العدالة، لكنه لا ينقض أحكامه بل يثبتها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الله فى قيامه بالتضحية لا يكون مرغماً أو مجبراً، بل متطوعاً للقيام بها بمحض اختياره ومشيئته لأجل الخير العام، لا يبقى هناك مجال للاعتراض.

(ب) حقاً ما أخطر النتيجة التى وصلنا إليها، لكنها على أى حال ليست مؤسسة على ظنون أو أوهام بل على حقائق واضحة معقولة، ولذلك فإن سموها عن إدراكنا لا يقلل مطلقاً من قانونيتها وأحقيتها، وإننا إذ نقرر ذلك، لا نكون قد سلكنا مسلكاً شاذاً بل مسلكاً طبيعياً مألوفاً، فنحن جميعاً نؤمن، مثلاً، بوجود الروح البشرية وتكوين الأفكار المعنوية فى المخ المادى، ليس لأننا أدركنا ماهية الأولى أو كيفية حدوث الثانية، بل لمجرد ظهور أدلة معقولة تثبت حدوث هذه ووجود تلك، ومن ثم لا يجوز رفض حقيقة افتداء الله لنا، طاما قد توافرت الأدلة على صدقها.

أما من جهة تهكم بعض الناس علينا بسبب اعتقادنا بتكفير الله بنفسه عن خطايانا، فلا يؤثر على موقفنا منه فى قليل أو كثير، لأنهم إذا كانوا على شئ من الإخلاص. فلينبئونا كيف يمكن أن يغفر الله لنا خطايا وهو عادل بقدر ما هو رحيم وكيف يمكننا أن ندنو منه وهو قدوس بقدر ما هو رءوف؟! وإن عجزوا عن الإجابة، ولا نخالهم إلا عاجزين، فإنهم كما قال الوحى يعترضون باب الخلاص، فهم لا يدخلون، ولا يدعون الراغبين فى الدخول أن يدخلوا (متى ٢٣: ١٣)، ومن ثم لا يكون لأقوالهم وزن أو قدر.



(٣)

ظهور الله فى ناسوت للقيام بالفداء

حقاً ليس هناك مؤمن فى الوجود إلا ويتوق لمعرفة الشخص (أو بالحرى الناسوت) الذى ظهر الله فيه للقيام بالفداء. فمن هو ذا الشخص يا ترى؟

الجواب : إذا تصفحنا حياة الأشخاص الذين ظهروا فى العالم نرى أن هذا الشخص هو المسيح، لأنه هو الذى توافرت فيه جميع الشروط التى ذكرناها فى الفصل الأول، كما تضح فيما يلى :

١ - فهو لم يرث الخطيئة فى طبيعته الإنسانية، لأنه ولد بدون الأب المورّث لها، إذ كانت ولادته من العذراء بقوة الروح القدس (لوقا ١ :٢٨).

٢ - وعاش بقوته الذاتية دون خطيئة، مع أنه كانت له كل الإحساسات الطبيعية مثل الشعور بالجوع والعطش والألم والحاجة إلى النوم (متى ٤ :٢، يوحنا ٤ :٧، ١٨ :٢٣، لوقا ٨ :٢٣)، وغير ذلك من الإحساسات التى كانت كافية (لولا كماله الذاتى) بأن تميل به إلى الإنحراف عن حق الله*، ولكنه لم ينحرف عنه على الإطلاق. وكذلك كان أسمى من آدم بما لا يقاس، فهذا عى الرغم من أنه خلق خالياً من الخطيئة، غير أنه مال إليها وسقط فيها، على النقيض من المسيح تماماً.

٣ - ومن ثم فإن نفس المسيح كانت توازى نفوس البشر جميعاً، بل وتفضل عنها قيمة وقدراً. لأنه هو الكامل، أما هم فبسبب خطاياهم ناقصون. وإن اجتمع بعضهم إلى البعض الآخر، فإن هذا لا يقلل من نقصهم، بل يزيده نقصاً.

٤ - ومع ذلك كان المسيح (من الناحية الناسوتية) إنساناً حقيقياً من جنسنا، فجسده وإن كان خالياً من الخطيئة، غير أنه كان جسداً مادياً مثل أجسادنا. فقد قال الوحى «فإذ قد تشارك الأولاد

---

* لأنه كان، مثلاً، بسبب إحساسه بالتعب والحاجة إلى النوم، معرضاً (لولا كماله الذاتى) لتأجيل خدمة للبشر طلباً للراحة أو النوم. ولو كان قد فعل ذلك لأعتبر منحرفاً عن محبة الله التى من شأنها أن تعمل الخير كل حين دون كلل أو ملل. لكنه له المجد لم ينحرف قيد شعرة عن محبة الله أو صفة أخرى من صفاته السامية، إذ كان يعمل الخير دائماً أبداً، كما كان يحيا حياة القداسة التى لا تشوبها شائبة.

فى اللحم والدم، اشترك هو (أى المسيح) أيضاً كذلك فيهما» (عبرانيين ٢:١٤). كما أنه لما ظن تلاميذه بعد قيامته من بين الأموات أنه روح، قال لهم :«انظروا يدىّ ورجلىّ، إنى أنا هو. جسونى وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى» (لوقا ٢٤:٣٦ - ٣٩).

٥ - ورغم أنه كان إنساناً حقيقياً، كانت نفسه ملكاً له. فقد قال عنها : «ليس أحد يأخذها منى، بل أضعها (أى أسلمها) أنا من ذاتى. لى سلطان أن أضعها، ولى سلطان أن آخذها (أى استردها) أيضاً» (يوحنا ١٠:١٧ و ١٨).

وقد برهن عملياً على صدق شهادته هذه، إذ أنه بعدما قدم نفسه كفارة عن البشر وأسلم روحه من أجلهم، استردها ثانية وقام من بين الأموات، كما ذكرنا بالتفصيل فى كتاب <قيامة المسيح - والأدلة على صدقها>.

٦ - وكان فى إمكانه أن يبعث حياة روحية فى البشر، ترقى بهم فوق قصورهم الذاتى وتجعلهم أهلاً للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية إلى الأبد. فقد قال عن رعيته : «وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد» (يوحنا ١٠:٢٨).

وقد اختبر المؤمنون به هذه الحياة عملياً فى نفوسهم، فقد قال أحدهم : «لأن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع، قد أعتقنى من ناموس الخطيئة والموت» (رومية ٨:٢).

٧ - فضلاً عما تقدم فقد كان من الناحية الباطنية (كما يتضح مما يلى) هو ذات الله، ومن ثم استطاع أن يكفر عن البشر جميعاً تكفيراً يفى مطالب عدالته التى لا حدّ لها، كما يتضح من الباب التالى.

وإذا كان الأمر كذلك فالمسيح هو أيضاً الشفيع أو المحامى الذى أشرنا إليه فى آخر الباب الثانى. ومن ثم قال الرسول للمؤمنين «أكتب إليكم هذا لكى لا تخطئوا (لأن الله قد أعطاكم بالمسيح حياة روحية تستطيعون أن ترتقوا بها فوق الخطية) وإن (حدث أن) أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار. وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١يوحنا ٢:١).



(٤)

شخصية المسيح*

نرى من الواجب، قبل التحدث عن شخصية المسيح أن نعلن بملء أفواهنا أننا نحن المسيحيين نؤمن أنه لا إله إلا الله، وأنه لا تركيب فيه على الإطلاق. فقد قال تعالى على لسان إشعياء النبى : «أنا الأول و الآخر، ولا إله غيرى» (٦:٤٤). وقال الوحى عنه إنه «روح» (يوحنا ٤:٤)، والروح لا تركيب فيه بحال. كما نؤمن أنه تعالى ذات**. وذاته وإن كان لا يحدها زمان أو مكان، تتصف بالصفات اللائقة بكماله، مثل السمع والبصر والكلام والعلم والإرادة والقدرة والعدالة والقداسة والمحبة والرحمة، وذلك دون أن تكون له أعضاء ما. أما ما نختلف فيه عن غيرنا من المؤمنين بالله، فهو نوع الوحدانية الخاصة به ودرجة علاقته بنا، ولذلك نحصر الحديث عنهما فيما يلى :

أولاً ـ نوع الوحدانية اللائقة بالله

١ ـ عدم توافق الوحدانية المطلقة مع الله :

بما أن الله ذات يتصف بصفات خاصة. وبما أن هذه الصفات لو كانت عاطلة أزلاً ثم صارت عاملة عندما خلق الكائنات، لكان تعالى :

أولاً : قد تعرّض للتغير، إذ تكون صفاته قد صارت عاملة بعد أن كانت عاطلة، ويكون قد دخل فى علاقات بعد أن كان لا علاقة أصلاً.

ثانياً : ولكان أيضاً قيامه بالخلق ضرورة لجأ إليها لكى يظهر ذاته ويمارس صفاته (كما يقول بعض الفلاسفة ورجال الدين)، الأمر اذى يتنزه عنه تعالى لتعارضه مع كماله الذاتى كل التعارض.

---

* ـ لولا ارتباط موضوع «شخصية المسيح » بالفداء كل الارتباط ، لما تعرضنا للتحدث عنه هنا، لأن المجال لا يتسع له فى هذا الكتاب. ولذلك من يريد المزيد من الإيضاح عن شخصية المسيح، يمكنه الرجوع إلى كتاب ‹الله ـ ثالوث وحدانيته ووحدانية ثالوثه›. ‹والله وطرق إعلانه عن ذاته› و ‹الله ـ ذاته ونوح وحدانيته›.

** أى ليس مجرد عقيدة فى الذهن، أو قوة تحرك الكون.

لذلك لابد أن صفاته وعلاقاته كانت بالفعل أزلاً، قبل وجود أى كائن من الكائنات سواء.

ووجود صفات الله وعلاقاته بالفعل أزلاً، يدل على أنه كان يمارسها أزلاً بينه وبين ذاته وحدها، لأنه لا شريك ولاتركيب فيه. لكن إذا وضعنا أمامنا أن هذه الصفات والعلاقات لا تقوم لها قائمة إلا بين كائنين عاقلين، أو بين كائن عاقل وذاته إذا كان مركباً، اتضح لنا أن وحدانية الله مع عدم وجود تركيب فيها، لا يمكن أن تكون وحدانية مطلقة، بل وحدانية من نوع آخر. وإذا جاز لنا أن نطلق عليها اسماً، يمكن أن ندعوها «الوحدانية الجامعة أو الشاملة» أى جامعة وشاملة لكل ما هو لازم لوجود صفات الله وعلاقاته بالفعل أزلاً، أو بالحرى قبل وجود أى كائن سواه.

٢ ـ توافق الوحدانية الجامعة أو الشاملة مع ذات الله الواحدة :

وهنا يتساءل البعض «كيف يكون الله واحداً لا تركيب فيه، وفى الوقت نفسه تكون وحدانيته وحدانية جامعة أو شاملة ؟» وللرد على ذلك نقول : من أن الله جوهر، لأنه تعالى قائم بذاته، وكل قائم بذاته جوهر (المدخل فى الفلسفة ص ١٧٧)، وفى الوقت نفسه له تعيّن خاص يدل عليه، لأنه ليس بلا تعيّن إلا غير الموجود، لذلك إذا قلنا إن الله جامع أو شامل من جهة وواحد من الجهة أخرى، لا يكون تناقض ما، لأن التناقض لا يكون إلا إذا كان الإختلاف فى أمر واحد من جهة واحدة (كما لو قلنا عن شخص ما، إنه ضعيف البنية وقوى فى نفس الوقت)، فمن أى جهة يكون الله واحداً ومن أى جهة يكون جامعاً أو شاملاً؟ طبعاً يكون واحداً من جهة الجوهر لأنه لا تركيب فيه، ويكون جامعاً أو شاملاً من جهة التعيّن، لأن وجود صفاته وعلاقاته بالفعل أزلاً، يدل على أنه جامع أو شامل من هذه الجهة.

وإننا بقولنا إن الله جوهر ذو تعين، لا نفرق بين جوهر الله وتعينه بل نقصد فقط أنه ليس جوهر مبهماً أو غامضاً بل جوهراً له وجود حقيقى يتميز به عن غيره. فجوهر الله هو اللاهوت، وهذا الجوهر نفسه بالنظر إلى تعيّنه هو الله. والله ليس شيئاً غير اللاهوت بل هو اللاهوت معيناً. واللاهوت ليس شيئاً غير الله بل هو الله جوهراً. ولذلك كثيراً ما تستعمل كلمة اللاهوت بدلاً من كلمة الله، وكلمة الله بدلاً من كلمة اللاهوت.

مما تقدم يتضح لنا أن جوهر الله الذى لا تركيب فيه، والجامع أو الشامل فى تعينه لكل ما هو لازم لوجود صفاته بالفعل أزلاً، واستغنائه بذاته عن كل شئ فى الوجود، منذ الأزل الذى لا بدء له إلا الأبد الذى لا نهاية له، أمر يتوافق مع كماله كل التوافق[٥].

٣ ـ ما هية الجمع أو الشمول الخاص بالذات الإلهية :

إن معظم الفلاسفة وعلماء الدين يعتقدون معنا أن وحدانية الله هى وحدانية جامعة يقولون إن هذه

الوحدانية هى ذاته وصفاته. لكن لو سلمنا باعتقادهم هذا، ووضعنا أن صفات الله وعلاقاته كانت بالفعل أزلاً كما اتضح لنا مما سبق، لانتهى بنا الأمر إلى أن الله كان فى الأزل يكلم صفاته ويسمعها ويبصرها ويريدها .. أو أن صفاته كانت تكلمه وتبصره وتريده .. أو أنها كانت يكلم بعضها بعضاً ويسمع بعضها بعضاً ويبصر بعضها بعضاً ويريد بعضها بعضاً .. وكل ذلك باطل، لأن الله لا يتعامل مع الصفات، ولا الصفات تتعامل مع الله، أو مع بعضها البعض. إذ أن التعامل لا يكون إلا بين التعيّنات العاقلة، والصفات معان وليست تعينات، ومن ثم لا يمكن أن يكون المراد بالجمع أو الشمول لدى الله، بل ذاته وحدها. فالله مع وحدانية جوهره وعدم وجود تركيب فيه، هو نفسه جامع أو شامل أو بتعبير آخر إنه قائم ليس بتعين واحد بل بتعينات.

وبما أن ذات الله تعيّنات، إذاً فكل تعين من تعيناته لا يكون جزءاً من ذاته، بل يكون ذاته بعينها (لأنه تعالى غير مركب من عناصر أو أجزاء)، وأن يكون أيضاً ذاته بكل خواصها وصفاتها (لأن تعينات الله هم عين جوهره)، ولذلك يكون كل تعين لله، هو الله الأزلى الأبدى السميع الكليم البصير المريد ..، إذ أنه على الأساس، يكون الله ممارساً لكل صفاته وعلاقاته بينه وبين ذاته منذ الأزل، إلى درجة الكمال الذى ليس بعده كمال، دون أن يكون هناك تركيب فى ذاته أو شريك معه.

٤ ــ عدد التعينات وأسماؤهم :

أما عدد التعيّنات أو أسمائهم فليس فى وسعنا أن نتكهن به، لأن المرجع الوحيد بشأنه هو الوحى الإلهى. وبالرجوع إليه يتضح أن العدد المذكور هو «٣» لا أكثر ولا أقل. وقد اصطلح المسيحيون منذ القديم على تسمية هؤلاء التعينات بالأقانيم (والمفرد أقنوم). فالأقانيم إذاً ليسوا كائنات فى الله أو مع الله، بل هم ذات الله الواحد الأحد، لأنهم تعينات اللاهوت أو اللاهوت معيناً. فضلاً عن ذلك فقد أطلق الوحى على تعينات الله اسماً واحداً، وليس أسماء كثيرة، فقال «باسم الآب والابن (أو الكلمة) والروح القدس» (متى ٢٨:١٩)، وفيما يلى معنى كل أقنوم من هؤلاء الأقانيم.

*

ثانياً - معانى الأقانيم

١ - «الابن» أو «الكلمة» : لا يراد بهذا الأقنوم أنه «ابن» بالمعنى الحرفى لأن الله لا يلد ولا يولد، بل يراد به ابن بالمعنى الروحى، وهذا المعنى كما يتضح من الكتاب المقدس هو «المُعلِن لله». كما دعى «الكلمة» (يوحنا ١:١و٢) بهذا المعنى بعينه، لأن الكلمة هى التى تعلن صاحبها*. ولذلك قال الوحى «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب** ، هو خبّر» (يو ١:٨)، ولا مجال للاعتراض على ذلك، لأن الأقانيم ليسوا هم الأب والأم والروح القدس، بل هم «الآب والابن والروح القدس».

وبما أنه لا يعلن الله إلا الله، لأنه لا نظير له على الإطلاق، لذلك "فالمُعلِن لله" (أو بالحرى ابن الله أو كلمته) هو نفسه الله معلناً - ولا غرابة فى ذلك فالاصطلاح "ابن الشئ" كثيراً ما يرد فى اللغة العبرية بمعنى "ذات الشئ"، فمثلاً قول الله «بنت شعبى» أو «ابنة شعبى» (إرميا ٨:١١)، لا يراد به إلا ذات شعبه. كما أن الاصطلاح "بنات الفكر" فى اللغة العربية، لا يراد به إلا «ذات الفكر واضحاً ومعلناً».

٢ - «الآب» : إن هذا الأقنوم لا يسمى «الوالد» بل «الآب». وهناك فرق عظيم بين الإسمين. فقد يكون هناك والد مجرد من كل صفات الأبوة، وقد يكون هناك شخص تتجمع فيه هذه الصفات، دون أن يكون متزوجاً أو له أولاد. ومن ثم لا يراد بهذا الأقنوم المعنى الحرفى بل الروحى. والمعنى الروحى للآب كما يتضح من الكتاب المقدس، هو القائم بالمحبة الباطنية. وهذا المعنى معروف لدينا جميعاً.

وقد أعلن الأقنوم الابن عندما كان فى الجسد على الأرض عن محبة الآب الأزلية له، فخاطبه قائلاً «لأنك أحببتنى قبل إنشاء العالم» (يوحنا ١٧:٢٤)، وبذلك كشف المسيح لنا عن سر من الأسرار التى كانت فى اللاهوت، أو بالحرى بين أقانيم اللاهوت، قبل خلق أى شئ فى الوجود. أو

---

* مما تجدر الإشارة إليه أن المسيح لم يدع كلمة الله، لأنه خلق بكلمة الله. إذ أن هناك فرقاً بين «الكلمة» و «أثر الكلمة». فالمخلوقات ليست كلمة الله بل أنها «أثر كلمة الله» لأنها مخلوقة بواسطتها.

** لا يراد بالحضن هنا المعنى الحرفى بل الروحى، لأن الآب ليس له صدر مادى. والمعنى الروحى للحضن هو الحب العميق والوحدة الروحية الكاملة.

بتعبير آخر فى الأزلية السحيقة التى لا يعرف معظم الفلاسفة وعلماء الدين عن الله فيها شيئاً، فوصفوها بالغيب ووصفوا الله فيها بالعزلة والتجرد من كل علاقة. لكن فى هذه الأزلية السحيقة المجهولة لديهم، أعلن لنا «الابن» أن المحبة كانت متبادلة بين الآب وبينه، ومتبادلة طبعاً بكل سموها وكمالها.

والوحى لا يسند المحبة إلى أقنوم أو أقنومين بل إلى الأقانيم جميعاً، أو بالحرى إلى اللاهوت الذى هو جوهر كل أقنوم وجوهر الأقانيم معاً، فقد قال: «الله محبة» (١يو حنا٤:٨). ولذلك فإن الآب يحب الابن كما ذكرنا، والابن يحب الآب (يو حنا١٤:٣١)، والروح القدس هو روح المحبة (٢تيموثاوس ١:٧) - وتبادل المحبة بين الأقانيم، هو النتيجة الحتمية لوحدة جوهرهم، والدليل على وحدتهم التامة فى كل أعمال اللاهوت وتصرفاته.

أخيراً نقول: إن كون «الآب» هو «الآب» منذ الأزل، دليل واضح على أن «الابن» هو «الابن» منذ الأزل أيضاً، لأنه ليس هناك أبوة إلا ومعها بنوة، كما أنه ليست هناك بنوة إلا ومعها أبوة. وإذا كان الأمر كذلك، لا يبقى لدينا أى شك فى أن «الابن» ليس مخلوقاً بواسطة الآب أو مولوداً منه، بل أنه واحد معه فى الأزلية. لأنه ليس من المعقول أن الله كان غير معلن أزلاً، ثم صار معلناً فى دور من الأدوار.

٣ - «**الروح القدس**»: إن هذا الأقنوم لا يدعى بهذا الإسم، لأنه يتميز دون الأقنومين الآخرين بروحانية الجوهر، كلا، لأن جوهر الأقانيم واحد كما ذكرنا. فقد قال الوحى بعبارة صريحة إن الله (من جهة أقانيمه الثلاثة) هو روح (يوحنا ٤:٤)، إنما دُعى بهذا الإسم لأنه يقوم (كما يتضح من اسمه) بأعمال اللاهوت بطريقة روحية - بينما يقوم الابن بها بطريقة علنية أو ظاهرية.

كما أن هذا الأقنوم لا يوصف بالقدس لأنه يتميز بالقداسة دون الأقنومين الآخرين، كلا، لأن الأقانيم الثلاثة يتصفون معاً بهذه الصفة وبكل صفات الكمال الأخرى بدرجة واحدة، ولكن يوصف بالقدس لأنه هو الذى يعلن بحالة روحية قداسة الله [٦] فى كل تصرفاته، ولأنه أيضاً هو الذى يقدّس نفوسنا حتى تتوافق مع الله فى قداسته.

مما تقدم يتضح لنا ما يأتى:

- ١ - أن كل أقنوم سُمى باسم خاص، ليس لأن أحدهم أقدم من الآخر زماناً، أو أفضل منه مقاماً، أو لأنه يختلف عنه جوهراً، بل لأن كلا منهم يقوم بعمل يتناسب مع أقنوميته، ولأن بين أحدهم والآخر نسباً روحية خاصة، بها للاهوت أو لله علاقات متكاملة بينه وبين ذاته منذ الأزل الذى لا بدء له إلى الأبد الذى لا نهاية له، بغض النظر عن وجود أى كائن من الكائنات سواه. فالوحى يسمى أحد

الأقانيم بالآب، لأنه يبطن كل معانى المحبة فى اللاهوت، ويسمى أقنوماً آخر بالابن لأنه يعلن كل معانى المحبة فى اللاهوت، ويسمى أقنوماً غيره بالروح القدس، لأنه يقوم بأعمال اللاهوت بطريقة روحية.

ـ ٢ ـ إن الله، لتبادل المحبة بين أقانيمه إلى درجة الكمال، هو مستغن بذاته عن كل شئ فى الوجود منذ الأزل الذى لا بدء له إلى الأبد الذى لا نهاية له، لأن حياة المحبة هى فى الواقع أسمى نوع من أنواع الحياة، إذ أن من يحياها لا يشعر أنه فى حاجة إلى شئ على الإطلاق. ومن ثم لا يكون الخلق ضرورة لجأ الله إليها لكى يظهر ذاته ويمارس صفاته كما يقول بعض الفلاسفة وعلماء الدين، بل يكون نتيجة طبيعية للمحبة العاملة فى ذاته، لأن من شأن المحبة أن تعمل وأن تعمل عملاً نافعاً.

أخيراً نقول : وإن كان «قيام الله بثلاثة أقانيم» أمر يتفق كل الاتفاق مع ذاته تعالى وما هو لازم لكمالها واستغنائها عن كل شئ فى الوجود، غير أن هذا الأمر فوق العقل كثيراً. ولا غرابة فى ذلك، فهو وصف لذات الله، والبحث فى ذات الله لا تصل إليه المدارك على الإطلاق، ومن ثم كان يتجنبه علماء الدين جميعاً، فقد قالوا "من خاض فى الذات بفكره، فهو عاص لله ورسوله". كما قالوا "إن الحق تعالى لا يُدرَك بالنظر الفكرى أبداً، وليس عندنا أكبر من ذنب الخائضين فى ذات الله بفكرهم" (كتاب الفتوحات ص ٦٥) ـ وإننا نتفق مع هؤلاء العلماء على تعذر البحث فى ذات الله، بل وأيضاً على عدم جواز البحث فيها. ومن جانبنا لولا أن الكتاب المقدس أعلن لنا أن الله هو «الآب والابن (أو الكلمة) والروح القدس»، وأن الأدلة العقلية والنقلية، أثبتت لنا صدق هذا الإعلان، لما خطر ببالنا مطلقاً أن يكون هذا هو كنه الله. وأقصى ما كان يخطر ببالنا عنه، أنه تعالى جامع فى ذاته ومستغن بها كل الاستغناء، كما يعتقد كل الفلاسفة ورجال الدين الذين يتأملون كثيراً فى ذاته.

*

ثالثاً ـ ظهور أقنوم الابن فى المسيح

بما أن أقنوم الابن هو الذى يعلن الله أو اللاهوت بطريقة منظورة كما ذكرنا فيما سلف، لذلك كان أمراً بديهياً أنه إذا أراد الله أن يظهر ذاته لنا (وعمل مثل هذا يتوافق مع كماله كل التوافق، لأن من دواعى هذا الكمال أن لا يكون تعالى فى عزلة عنا، بل أنه يظهر ذاته لنا لكى ندركه ونتوالف معه)، أن يتم هذا الظهور بواسطة أقنوم الابن. ومن ثم فالله الذى لا يمكن رؤيته أو إدراكه فى ذاته، يصبح من الميسور لنا أن نراه وندركه فى أقنوم الابن. وهذا ما حدث فعلاً، فقد اتحد الأقنوم المذكور بالمسيح اتحاداً تاماً*، ولذلك استطعنا به أن ندرك قداسة الله وقدرته ومحبته ومعرفته التى لا حد لها.

وفيما يلى بعض الأدلة التى تثبت هذه الحقيقة :

(ا) الأدلة الكتابية على شخصية المسيح

١ ـ شهادته عن ربوبيته وبنوته لله ووحدته الجوهرية مع الآب وإعلانه له :

فقد قال المسيح إنه الرب (متى ٢١:٣)، وإنه رب داود (متى ٢٢:٤٢ ـ ٤٥)، ورب الرسل (متى ٢٤:٤٢). كما قال إنه ابن الله (يوحنا ٩:٣٥ ـ ٣٨، ١٠:٣٦)، وإن الله أبوه بمعنى أنه معادل له، أو بالحرى واحد معه (يوحنا ٥:١٨)، وإنه والآب واحد (يوحنا ١٧:٢٢)، وإنه فى الآب والآب فيه. وإن كل من رآه فقد رأى الآب (يوحنا ٨:٥٨)، وإنه يجب على جميع الناس أن يكرموه كما يكرمون الآب (يوحنا ٥:٢٣).

٢ ـ شهادته عن أزليته وأبديته :

فقد قال إن له مجداً خاصاً قبل إنشاء العالم (يوحنا ١٧:٥)، وإنه قبلما ولد إبراهيم على الأرض، هو كائن أو بالحرى كائن بذاته (يو ١٤:٩و١٠)، وإنه الألف والياء. البداية والنهاية. الأول والآخر (رؤيا ١:٨ ـ ١٧).

---

* أما قبل ظهوره فى المسيح، فكان تارة يظهر فى هيئة ملاك وتارة أخرى فى هيئة إنسان (تك ٢١:١٧ ـ ٢٠، قض ٦:١١ ـ ٢٤). ولكن تدل كل القرائن على أنه لم يكن فى ذاته هذا أو ذاك، بل كان هو الرب نفسه الذى يستحق كل إكرام وسجود.

٣ ـ شهادته عن عدم تحيزه بزمان أو مكان :

فقد أعلن إبان وجوده على الأرض، أنه كان وقتئذ فى السماء أيضاً (يوحنا ٣:١٣)، وأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه على الأرض، يكون فى وسطهم (متى ١٨ : ٢٠)، وأنه يظل مع تلاميذه، أو بالحرى المؤمنين الحقيقيين به، إلى انقضاء الدهر (متى ٢٨ : ٢٠).

٤ ـ شهادته عن كونه الحياة والمحيي :

فقد شهد أنه الحياة (يوحنا ١١:٢٥)، وأنه يحيى من يشاء (يوحنا ٥ :٢١)، وأنه أتى لكى تكون لنا حياة وحياة أفضل (يوحنا ١٠ : ١٠)، وأن من يؤمن به إيماناً حقيقياً تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣:١٦).

٥ ـ شهادته عن سلطانه في غفران الخطايا وإدخال التائبين إلى الفردوس :

فقال للمفلوج «مغفورة لك خطاياك» (لوقا ٥ : ٢٠)، وقال عن المرأة الخاطئة «قد غُفرت خطاياها الكثيرة» (لوقا ٧:١٧)، وقال للص الذى التجأ إليه نادماً عما فعله من شر «اليوم تكون معى فى الفردوس» (لوقا ٢٣:٤٣).

٦ ـ شهادته عن تقديم السجود إليه :

فقد سجد له المجوس وهو بعد طفل صغير (متى ٢:٢ ـ ١١)، وسجد له الأبرص (متى ٨:٢)، والأعمى (يوحنا ٩:٣٨)، ورئيس المجمع (مرقس ٥:٢٢)، والكنعانية (متى ١٥:٢٥)، وبطرس الرسول (لوقا ٥:٨)، وكل الذين كانوا فى السفينة (متى ١٤:٣٣)، وأخيراً سجد له الرسل جميعاً (مت ٢٨:١٧).

٧ ـ شهادته عن محاسبته للناس وقضائه على الشيطان :

فقد قال إنه متى جاء فى مجده يجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن البعض الآخر، ويقيم الأبرار عن يمينه والأشرار عن يساره. ويقول للفريق الأول «تعالوا يا مباركى أبى، رثوا الملك المُعد لكم منذ تأسيس العالم». ويقول للفريق الثانى «اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية» (متى ٢٥:٣١ ـ ٤٦). كما أعلن أن الشيطان سقط أمامه كما يسقط البرق من السماء (لوقا ١٠ :١٨).

*

(ب) الأدلة العقلانية على لاهوت المسيح

١ - لو كان المسيح يسعى وراء العظمة الدنيوية، أو لو كان ذا بطش وقوة أو لو كانت شهادته قد وجدت قبولاً لدى الكثيرين من الناس، لكان هناك مجال للطعن فى شهادته السابق ذكرها، بدعوى أنه كان متكبر أو أن الناس هم الذين شجعوه على الادعاء بالألوهية. لكن المسيح على النقيض من كل ذلك. كان وديعاً كل الوداعة وحكيماً كل الحكمة وصادقاً كل الصدق (متى ١١:٢٩)، فضلاً عن ذلك، كان معاصروه يقاومونه كل المقاومة بسبب شهادته المذكورة (يوحنا ١٠:٣٢ و٣٣) فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان يصرّ على الشهادة عن نفسه أنه ابن الله على الرغم من إهانة الناس له (يوحنا ٥:١٧ - ٢٣، ٦:١٥، ١٠:٣٠ - ٣٨)، وأنه لو كان قد تنحى عن هذه الشهادة لما أصابوه بسوء ما، اتضح لنا أنه لابد أنه ابن الله كما قال.

٢ - إن اليهود كانوا قد التفوا حول المسيح فى أول الأمر ليجعلوه ملكاً عليهم، لأنهم وجدوا فيه المسيّا الذى كانوا يحلمون به (يوحنا ٦:١٥). ولو كان المسيح أراد أن يؤله نفسه لكان قد أجابهم إلى رغبتهم، لأن الملوك كانوا وقتئذ يعاملون معاملة الآلهة (أعمال ١٢:٢٢). لكن المسيح رفض رغبتهم هذه، وفى الوقت نفسه ظل يشهد أنه ابن الله وهو فى حالة الوداعة والفقر التى اختارها لنفسه، الأمر الذى يدل على أنه لم يكن مدعياً بل صادقاً كل الصدق فى شهادته عن نفسه.

٣ - كما أن المسيح لم يفرض على الناس الاعتقاد بأنه ابن الله، حتى كان يجوز الشك فى صدق شهادته عن نفسه، بل تركهم يستنتجون هذه الحقيقة من تلقاء أنفسهم (يوحنا ٦:٦٦ - ٧٩، مت ١٦:١٣ - ١٨)، ولذلك لم يطلب منهم أن يؤمنوا بشهادته المذكورة إيماناً أعمى، بل كان يثبت لهم بالدليل العملى صدقها. فمثلاً عندما أعلن لهم أن له سلطاناً على غفران الخطايا، الذى يتفرد به الله، أظهر أحقيته فى ممارسة هذا السلطان إذ شفى بكلمة واحدة مفلوجاً لم يكن يستطيع حراكاً على الإطلاق. ولذلك كان يقول للناس: «الأعمال التى أعملها باسم أبى تشهد لى» (يوحنا ١٠:٢٥)، و «صدقونى أنى فى الآب والآب فىّ. وإلا فصدقونى بسبب الأعمال نفسها» (يوحنا ١٤:١١)، وشخص يضع حياته وأعماله تحت الاختبار لكى يفحصها الناس بأنفسهم ويحكموا بواسطتها على حقيقة أمره، لشخص صادق كل الصدق فى شهادته

عن نفسه.

٤- **ولادته من عذراء** : إن ولادة المسيح من عذراء لم تعرف رجلاً على الإطلاق، دليل على أن له وجوداً ذاتياً قبل ولادته منها ، ودليل أيضاً على أن له حياة ذاتية تجعله فى غنى عن بذرة حياة من حياة رجل ما - وكائن له وجود ذاتى وله حياة ذاتية، هو الله، أو أقنوم من أقانيمه.

أما القول : "إن الله خلق آدم دون أب أو أم، وأخذ حواء من أب دون آدم، ولكى يبين قدرته سمح بأن يولد المسيح من أم دون أب، ومن ثم لا يكون إلا واحداً من البشر" ، فلا يجوز الأخذ به. لأن الله خلق آدم دون أب أو أم، لأنه لم يكن قبله رجل وامرأة يولد منهما. وأخذ حواء من آدم فقط لكى يكونا واحداً فلا ينفصل أحدهما عن الآخر (متى ١٩ :٥) ، وفى الوقت نفسه لأنه لم يكن قبل حواء امرأة لتولد منها. لكن بعد وجود الذكور والإناث على الأرض، لم يبق هناك داع لأن يأتى إنسان من أم دون أب، أو من أب دون أم، أو من دونهما معاً، لأن الله أوجد الجنسين فى بدء الخليقة لكى يتناسل منهما البشر جميعاً. ولذلك لو كان المسيح مجرد إنسان، لَمَا وُلد إلا من أب وأم مثل باقى الناس - حقاً إن الله أظهر قدرته فى ولادة المسيح من عذراء، ولكن يجب أن لا يفوتنا أن إظهار قدرته فى ولادة المسيح من عذراء، دليل على أنه ليس له مثيل أو نظير بين البشر على الإطلاق.

٥- **عصمته** : إن المسيح مع أنه عاش فى جسد من لحم ودم وسكن فى ذات العالم الذى نعيش فيه، وكانت كل مغريات هذا العالم تحيط به مثلنا سواء بسواء، لكنه لم يتجه إلى واحدة منها (على النقيض من كل الرسل والأنبياء، فقد عثروا جميعاً وتلوثت حياتهم بخطايا متنوعة) ، ولذلك لما اجتمع اليهود حول المسيح محاولين اختلاق التهم التى تبرر فى نظرهم القبض عليه، وقف بينهم عالى الرأس وقال لهم : «من منكم يبكتنى على خطية؟!» فلم يستطع واحد منهم أن يذكر له خطيئة واحدة فى أى دور من أدوار حياته. أما عن شهادة الأصدقاء عنه فكثيرة. ولذلك نكتفى بالقول : إن بولس الرسول الذى كان ألد أعداء المسيح فيما سلف، قال عنه عندما عرفه، إنه قدوس بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات فى الطهر والقداسة (عبرانيين ٧ :٢٦).

٦- **عمل المعجزات بسلطانه الذاتى** : كان أنبياء الله يعملون المعجزات ليس بناء على إرادتهم الشخصية بل بناء على إرادة الله، أما المسيح فكان يعملها بإرادته الذاتية، ولذلك كانت بالنسبة له أمراً عادياً. فكان يقول للأبرص «أريد فأطهر» فيطهر فى الحال (متى ٨ :٣). ويقول للمفلوج «قم واحمل سريرك وامش» ، فتزول علته كما تدب فيه العافية ويحمل سريره ويمشى (مرقس ٢ :٩). ويقول للميت «قم» فيقوم على الفور وليس به عرض من أعراض الموت

أو الضعف (لوقا ٧:١٤). فضلاً عن ذلك كان يمشى على الماء لينقذ أشخاصاً كانوا مشرفين على الغرق، ويدخل البيوت والأبواب مغلقة لكى يهدئ روع أشخاص تملكهم الخوف والفزع (مرقس ٤:٢٩، يوحنا ٢٠:٢٦)، وكان ينتهر العواصف فتهدأ فى الحال ويعود السلام إلى قلوب الذين فيها (متى ١٤:٢٥). فضلاً عن ذلك فقد استطاع أن يمنح تلاميذه سلطاناً على عمل المعجزات، فكانوا يعملونها باسمه (متى ١٠:١)، الأمر الذى لم يفعل مثله نبى من الأنبياء أو رسول من الرسل.

٧ ▪ **علمه بالغيب :** فقد كان يعرف أسماء الناس دون أن يكون قد التقى بهم من قبل، كما كان يعرف الأعمال التى كانوا يقومون بها فى الخفاء (يوحنا ١:٤٢ ـ ٤٧) والخواطر التى كانت تجول فى عقولهم (يوحنا ٤:١٨). والأسرار التى كانت تكمن فى أعماق نفوسهم (يوحنا ٧:١٥)، فضلاً عن ذلك كان يعرف ما جاء فى الكتب دون أن يدرسها (يوحنا ١٦:١٩)، وما يحدث فى الأماكن التى تبعد عنه كثيراً (مرقس ١٤:١٣)، وما يوجد فى أعماق البحار وما ابتلعه السمك من أشياء (متى ١٧:٢٧)، كما كان يعرف ما يخبئه المستقبل من مختلف الأحداث. فعرف أن أورشليم سيحل بها الخراب والدمار (لوقا ٢١:٦)، وأن لعازر سيموت وأنه سيقيمه من بين الأموات (يوحنا ١١:١١ و ١٤)، وأن يهوذا سيسلمه لليهود (متى ٢٦:٢٣)، وأن بطرس سينكره ثلاث مرات (متى ٢٦:٣٤)، وأنه هو نفسه (أى المسيح) سيصلب ويقوم من الأموات فى اليوم الثالث (مت ١٦:٢١). أضف إلى ذلك أن علمه بهذه الأمور لم يكن مرتبطاً بزمان ما، بل كان لديه أزلاً (يوحنا ٦:٦٤)، الأمر الذى يتفرّد الله به دون سواه.

٨ ▪ **قيامته من الأموات :** إن الذين قاموا من بين الأموات بقوة المسيح، ماتوا بعدما عاشوا فترة من الزمن. أما المسيح ففضلاً عن أنه لم يمت بعد قيامته، بل بعدما عاش على الأرض مدة من الزمن يثبِّت فيها إيمان تلاميذه، ارتفع إلى السماء (لوقا ٢٤)، فإنه له المجد قام من الأموات بقوته الذاتية وبإرادته الشخصية. فقد قال لليهود قبل صلبه* عن جسده «انقضوا هذا الهيكل، وأنا فى ثلاثة أيام أقيمه» (يوحنا ٢:١٩) وإنه هو «القيامة والحياة» (يوحنا ١١:٢٥) ـ وقال عن نفسه «لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضاً» (يوحنا ١٠:١٨). وشخص تكون نفسه ملكاً له، يسلمها إذا أراد ويستردها إذا أراد، ويكون أيضاً

---

* تحدثنا عن حقيقة صلب المسيح فى كتاب "صلب المسيح وموقف الفلاسفة الغنوسطيين إزاءه" و "قضية الصليب ـ بين الدفاع والمعارضة".

هو القيامة والحياة، لا يكون مخلوقاً. وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال عن المسيح إنه اتضح أنه ابن الله بالقيامة من الأموات (رومية ١:٤). ونظراً لأننا درسنا هذا الموضوع فى كتاب "قيامة المسيح والأدلة على صدقها" نكتفى بما ذكرناه.

أخيراً نقول:

أولاً: لو كان الله قد ظهر لنا فى مجده الخاص، لكى يعلن لنا ذاته ويقربنا إليه، وذلك بداع من كماله ومحبته لنا، لما استطاع إنسان ما أن يقف فى حضرته، بل لسقط ميتاً فى الحال أمامه *. وبما أن الله لا يريد أن يرعبنا بل يريد أن ندنو منه، حباً فيه وشوقاً إليه، فمن ثم كان من البديهى أن يظهر لنا فى ناسوت مثل ناسوتنا، وكل ما فى الأمر يكون ناسوتاً خالياً من الخطية، لكى يكون متوافقاً مع قداسته.

ثانياً: إن الله بظهوره فى المسيح لم يتحيّز بل ظل كما هو المنزه عن الزمان والمكان. وقد أشار المسيح من جهة لاهوته إلى هذه الحقيقة، فقال عندما كان بالجسد على الأرض إنه كان فى نفس هذا الوقت، فى السماء عينها (يوحنا ٣:١٣).

ثالثاً: كما أنه بظهوره فى المسيح ظل هو الله بكل خواصه. كما ظل ناسوت المسيح هو الناسوت بكل خواصه، لأنه لم يحدث بين اللاهوت وبين الناسوت اختلاط أو امتزاج يؤدى إلى طروء تغيير فى أيهما.

ومع كل فقد ظهر من خلال حياة المسيح الناسوتية مجد أدبى لا يقل فى شئ عن ذاك الذى ينتظر ظهوره من الله نفسه، ومن ثم استطاع الأتقياء من البشر أن يؤمنوا أنه «ابن الله» أو «الله الظاهر فى الجسد» كما يتضح من يوحنا ١:٤٩ ، ٢:١١و ٢٣، ٤:٣٩ ـ ٤١، ٧:٣١، ١١:٢٧ ، متى ١٦:١٦.

---

* فقد قال الله لموسى النبى «الإنسان لا يرانى ويعيش» (خروج ٣٣:٢).

الباب الخامس

قيام الله بالفداء
فى المسيح

- أدلة كتابية على موت المسيح كفارة أو فدية
- أدلة عقلانية على موت المسيح كفارة
- آلام الاستشهاد وآلام الكفارة

إن الذين ليست لهم دراية بشخصية المسيح، يظنون أن صلبه يرجع فقط إلى كراهية كهنة اليهود له، بسبب توبيخه إياهم من أجل شرورهم وآثامهم. ولذلك يكون المسيح بناء على رأيهم، قد مات شهيد الحق والواجب فحسب. لكن وإن كان هذا الرأى صواباً من جهة تصرف هؤلاء الكهنة إزاء المسيح، غير أننا إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس وإلى القرائن الخاصة بحادثة صلب المسيح الواردة فيه، نرى أنه لم يمت شهيداً فحسب، بل وكفارة أيضاً، كما يتضح مما يلى :

(١)

أدلة كتابية على موت المسيح كفارة أو فدية

أولاً : شهادة المسيح عن موته كفارة، والأدلة على صدقها :

١ - شهادة المسيح : قال المسيح عن نفسه قبل حادثة الصلب «أنا هو الراعى الصالح، والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يوحنا ١٠:٩)، قاصداً بالخراف المؤمنين الحقيقيين* وقال «كما رفع موسى الحية فى البرية[٣] هكذا ينبغى أن يُرفع ابن الإنسان (على الصليب) لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية .. لأنه هكذا أحب الله العالم حتى **بذل ابنه الوحيد** لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣:١٤ - ١٦). وقال أيضاً «إن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم بل ليخدِم **وليبذل نفسه فدية** عن كثيرين» أو بالحرى عوضاً عنهم (مرقس ١٠:٤٥). وأيضاً «لأن ابن الإنسان قد جاء ليطلب **ويخلص ما قد هلك**» (متى ١٨:١١). وعندما شبه نفسه بحبة الحنطة قال «إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت، فهى تبقى وحدها. ولكن **إن ماتت تأتى بثمر كثير**» (يوحنا ١٢:٢٤)، مشيراً بذلك إلى أنه على أساس موته ستكون لكثير من الناس

---

* وأوجه الشبه بينهما أن الخراف تكره القذارة وتطيع راعيها، والمؤمنون الحقيقيون يكرهون الشر ويطيعون الله.

حياة أبدية، أو بالحرى سيكون موته موتاً كفارياً نيابة عنهم.

وعندما تحدث عن نفسه كالخبز النازل من السماء ليهب حياة أبدية للذين يتناولون روحياً منه، قال «والخبز الذى أنا أعطي هو جسدى، الذى **أبذله من أجل** حياة العالم» (يوحنا ٦:٥١). كما قال لتلاميذه مرة بأن جسده سيبذل وبأن دمه **سيُسفك عنهم وعن كثيرين** (لوقا ٢٢:٩ - ٢٢)، الأمر الذى يدل على أن موت المسيح لم يكن مجرد استشهاد، بل كان أيضاً كفارة عن الخطاة.

٣ - الأدلة على صدق شهادة المسيح : فضلاً عن أن شهادة المسيح عن موته ككفارة مسجلة بالوحى الإلهى الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها*، فإننا إذا نظرنا إليها من الناحية العقلية يتضح لنا أنها لابد أن تكون صادقة أيضاً، وذلك للأسباب الآتية :

(ا) إن القادة والزعماء (كما نرى فى كل البلاد) يحاولون بشتى الوسائل أن يبثوا الشجاعة والإقدام فى نفوس أتباعهم، وحتى إذا كان هؤلاء القادة والزعماء مرضى أو على شفا الموت، فإنهم يخفون حالتهم الصحية عن أتباعهم لئلا يتسرب إليهم اليأس والفشل. وإذا كان الأمر كذلك، وكان المسيح بعيداً كل البعد عن وسائل التمويه والتحايل التى يلجأ إليها الناس، فلا ندحة من التسليم بأنه كان يعلم علم اليقين أنه سيموت كما قال، لأنه لولا ذلك لما خطر بباله أن يتحدث مع تلاميذه عن موته، إذ أن الحديث عنه حزّ فى نفوسهم وفتّ فى عضدهم، وهم فى أول الطريق معه.

(ب) إن المسيح لم يكن مدعياً أو متكبراً بل كان صادقاً كل الصدق ومتواضعاً كل التواضع. ولذلك ليس من المعقول أن يكون قد نادى بأن موته سيكون موتاً كفارياً، والحال أنه كان موتاً استشهادياً أو موتاً عادياً فحسب.

(جـ) كما أننا إذا أمعنا النظر فى "حديث المسيح عن موته كفارة"، يتضح لنا أنه لايرد بمعزل عن تعاليمه التى يوجهها إلى سامعيه (مثل محبة الله للبشر واهتمامه بهم ورغبته فى تقريبهم إليه)، بل يرد ممتزجاً بها كل الامتزاج، حتى أنه لا يمكن فصل هذا الحديث عنها بحال. ومن ثم لا يكون كرقعة ارتقت بثوب بل كالخيوط التى يتكون منها نسيج الثوب، أو بالحرى لا يكون دخيلاً على أقوال المسيح بل يكون من ذات أقواله.

ثانياً : شهادة الرسل عن موت المسيح كفارة، والأدلة على صدقها :

ا - شهادة الرسل :

(ا) قال بطرس الرسول للمؤمنين «إن كنتم تدعون أباً الذى يحكم بغير محاباة حسب عمل كل

* درسنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب "إنجيل برنابا فى ضوء التاريخ والعقل والدين".

واحد، فسيروا زمان غربتكم بخوف، عالمين أنكم **أفتديتم** لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم*» (١بطرس ١:١٧ - ١٩).

(ب) وقال يوحنا الرسول عن المسيح «بهذا أظهرت المحبة، أن ذاك (الذى هو المسيح) وضع نفسه **لأجلنا**» (١يوحنا ٣:١٦). وأيضاً «فى هذا هى المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه **كفارة لخطايانا**» (١يوحنا ٤: ١٠).

(جـ) وقال بولس الرسول لأهل كورنثوس عن المسيح إنه «مات من أجل خطايانا حسب الكتب (النبوية)». وقال أيضاً عنه «وهو مات لأجل الجميع، كى يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذى مات لأجلهم وقام». وأيضاً إن الله «جعل (المسيح) الذى لم يعرف خطية، (ذبيحة) خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (١كورنثوس ١٥:٣ ، ٢كورنثوس ٥:١٥ و ٢١).

وقال لأهل رومية «فإنه بالجهد يموت أحد لأجل البار، ربما لأجل الصالح** يجسر أحد أيضاً أن يموت. ولكن الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة، **مات المسيح لأجلنا**» (٥:٨). وقال أيضاً «متبررين مجاناً بنعمته **بالفداء** الذى بيسوع المسيح الذى **قدمه الله كفارة**» (٣:٢٤). وأيضاً «لأن الموت الذى ماته، **قد ماته للخطية** مرة واحدة» (٦: ١٠).

وقال لأهل كولوسى عن المسيح «لأن فيه سر أن يحل كل الملء (أى اللاهوت كله) وأن يصالح به الكل لنفسه **عاملاً الصلح بدم صليبه** بواسطته» (١:١٩ - ٢٢). كما قال لهم «وإذ كنتم أمواتاً .. أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا، إذ محا الصك (أو بالحرى دين الخطايا) الذى علينا فى الفرائض الذى كان ضداً لنا. وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب» فى المسيح (كولوسى ٢:١٣ و١٤).

وقال لأهل أفسس عن المسيح «الذى فيه لنا **الفداء بدمه** غفران الخطايا حسب غنى نعمته» (١:٧)، وأنه **صالحنا فى جسد واحد مع الله فى الصليب**، قاتلاً العداوة به (٢:١٦). وأنه «أسلم نفسه لأجلنا **قرباناً وذبيحة لله** رائحة طيبة» (٥:٢). وأنه أحب المؤمنين **وأسلم نفسه لأجلهم** لكى

---

* ولا غرابة فى ذلك، فالله كان يعلم منذ الأزل أن الإنسان سيسقط فى الخطيئة، ومن ثم أعد له الخلاص منها قبل أن يخلقه، الأمر الذى يتوافق مع كماله تعالى كل التوافق.

** البار هو العادل الذى يدفع ما عليه من ديون ويطالب بما له من حقوق، أما الصالح فبالإضافة إلى أنه يفعل الخير دون النظر إلى جزاء أو ثواب، فإنه لا يدفع فقط ما يكون عليه من ديون، بل إذا دعا داعى العطف والشفقة لا يطالب بما له من حقوق على الآخرين، لذلك فالناس يحبون الصالح أكثر من البار.

يحضرهم لنفسه كنيسة *مجيدة لا دنس فيها ولا غضن **(٥:٢٥).

وقال للعبرانيين عن المسيح «لكى يذوق بنعمة الله الموت **لأجل كل واحد**» #(٢:٩). كما قال «إنه أظهر مرة عند انقضاء الدهور **ليبطل الخطية بذبيحة نفسه**» (عب ٩:٢٦)، كما قال عنه «فبعدما **قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة** جلس إلى الأبد عن يمين الله ##» (١٠:١٠ - ١٩). وإنه «لكى **يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب**» (عبرانيين ١٣:١٢)، أو بالحرى خارج باب المدينة حيث كانت تحرق الذبائح الكفارية عوضاً عن الخطاة فى العهد القديم.

وقال لتلميذه تيموثاوس عن المسيح «**إنه بذل نفسه فدية** لأجل الجميع» (١تيموثاوس ٢:٦)، ولتيطس «لكى **يفتدينا** من كل إثم» (تيطس ٢:١٤).

٢ ـ الأدلة على صدق شهادة الرسل :

فضلاً عن أن شهادة الرسل مسجلة بالوحى الإلهى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها، فإننا إذا نظرنا إليها من الناحية العقلية يتضح لنا أنها لابد أن تكون صادقة أيضاً، وذلك للأسباب الآتية :

(ا) إن شهادة الرسل عن موت المسيح كفارة لا ترد بمعزل عن نصائحهم وإرشاداتهم للمؤمنين، بل ترد ممتزجة بهذه وتلك كل الامتزاج. ومن ثم فإنها لا تكون كرقعة أرتقت بثوب، بل كالخيوط التى يتكون منها نسيج الثوب، الأمر الذى يدل على أن موت المسيح كفارة، حقيقة لا سبيل للطعن فيها.

(ب) إن الرسل لم يكونوا من أصحاب الجاه أو السلطان الذين إذا قالوا شيئاً غير الحقيقة صدقهم بعض الناس وأمنوا على أقوالهم، كما نشاهد فى بعض الأحيان، بل كان معظمهم من الفقراء المعدمين الذين يملكون بالكاد قوت يومهم. فإذا أضفنا إلى ذلك : أولاً : أن الرسل الذين ذكرنا شهادتهم كان

---

* كلمة «الكنيسة» أو «الكنيست» ليست عربية بل عبرية، ويراد بها «جماعة من الناس» تجمعها وحدة ما. أما فى المسيحية فيراد بها المؤمنون الحقيقيون وحدهم (أفسس ٥:٢٥).

** «الغضن» هو التجعد الذى يعلو الوجه عند الشيخوخة أو الإعياء. والمراد بالعبارة المذكورة أعلاه، أن الله سيحضر المؤمنين الحقيقيين إليه كاملين كل الكمال، بفضل كفارة المسيح الثمينة لأجلهم على الصليب، وعمله الروحى فى قلوبهم طوال وجودهم على الأرض.

لأن المسيح عندما كان على الصليب، كان يمثل كل إنسان فى موقفه كمذنب أمام الله فى يوم الدينونة، ومن ثم حمل كل خطاياه من بداية حياته إلى آخرها، الأمر الذى يعطى كل مؤمن حقيقى الإطمئنان الكامل من جهة قبوله أمام الله على أساس كفارة المسيح.

الله ليس له يمين أو يسار لأنه لا يتحيز بحيز. إنما المراد باليمين هنا، هو مكان القوة والعظمة.

يختلف أحدهم عن الآخر من جهة السن والثقافة والطباع والمركز الاجتماعى اختلافاً عظيماً. فبطرس كان جريئاً متحمساً، ويوحنا كان وديعاً هادئاً، فضلاً عن ذلك كان الأول فقيراً ومتقدماً فى السن، بينما الآخر كان غنياً وحديثاً فى السن. وثانياً : إن بولس كان عالماً كبيراً وشخصاً متعنتاً عنيداً لا يسلّم بآراء غيره بسهولة، كما كان من قبل ألد أعداء المسيحية وأكبر المقاومين لها. وثالثاً : إن إتفاق مجموعة متباينة من الناس (مثل هذه) على أمر ما، دليل على أنه حقيقة واقعة لا مجال للشك فيها)، اتضح لنا أن شهادة الرسل السابقة لابد أنها صادقة كل الصدق.

(جـ) أخيراً نقول : بما أن الرسل بشهادتهم أن المسيح مات كفارة عن البشر، كانوا يعلنون لليهود زوال فائدة الذبائح الحيوانية التى كانوا يقدمونها لله على أيدى كهنتهم، مؤكدين لهم أنها كانت مجرد رموز إلى كفارة المسيح. وبما أن هذه الشهادة كانت تثير هؤلاء الكهنة ضد الرسل وتدفعهم لشن الاضطهاد عليهم لأن بامتناع اليهود عن تقديم الذبائح المذكورة، يحرم الكهنة من موارد رزقهم. وبما أنه لو لم يكن المسيح قد مات فعلاً كفارة عن البشر، لما كان قد خطر ببال الرسل أن ينطقوا بمثل هذه الشهادة، لأنه ليس من المعقول أن يختلقوا (وهم جماعة متباينة من الناس كما ذكرنا) موضوعاً لا حقيقة له، وفى الوقت نفسه يتعرضون بسببه للاضطهاد والعذاب. كما أنه على الرغم من تهاطل هذا وذاك عليهم يستمرون فى إذاعته بكل ما لديهم من قوة ونشاط، لذلك لابد أن شهادتهم عن موت المسيح كفارة هى شهادة صادقة كما ذكرنا.

ثالثاً : شهادة أنبياء العهد القديم عن موت المسيح كفارة، والأدلة على صدقها :

١ ـ شهادة أنبياء العهد القديم :

(أ) قال داود النبى بروح النبوة سنة ١٠٠٠ ق. م عن لسان المسيح «أكثر من شعر رأسى الذين يبغضوننى بلا سبب (مشيراً إلى كراهية اليهود له وصلبهم إياه)، حينئذ رددت الذى لم أخطفه» (مزمور ٦٩:٤) قاصداً بذلك أن المسيح مع أنه لم يخطف شيئاً (أو بالحرى لم يسلب الله حقاً من حقوقه، لأن الذى فعل ذلك هم البشر وحدهم)، غير أنه ردّ بنفسه لله ما خطفوه وسلبوه، أو بالحرى قام بإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته فى نفسه نيابة عنهم.

(ب) وقال إشعياء النبى بروح النبوة سنة ٧٠٠ ق.م عن المسيح «وهو **مجروح لأجل معاصينا** (وليس معاص ارتكبها). مسحوق لأجل آثامنا (وليس لأجل آثام اقترفها)، تأديب سلامنا عليه (أى أن ما نستحقه من قصاص، حتى تتحقق عدالة الله من جهتنا ويصفو الجو بيننا وبينه، قد احتمله المسيح عوضاً عنا)، وبحبره (أى جروحه) شُفينا (من مرض الخطية القتّال). كلنا كغنم ضللا، ملنا

كل واحد إلى طريقه، والرب وضع عليه إثم جميعنا » (٥٣: ٥ و ٦)*، عوضاً عن أن يبقيه علينا ويحملنا مسئوليته وقصاصه.

(جـ) وقال الملاك جبرائيل لدانيال النبى الذى عاش سنة ٥٥٠ ق.م فى رؤيا خاصة «سبعون أسبوعاً (أى ٤٩٠ سنة)**. قضيت على شعبك (أى على اليهود) وعلى مدينتك المقدسة (أورشليم) لتكميل المعصية وتتميم الخطايا (اللذين حدثا برفضهم للمسيح)، ولكفارة الإثم (أى لإزالة معصيتهم والإنتهاء من أمر خطاياهم)، وليؤتى بالبر الأبدى (الذى يدوم إلى الأبد على أساس الكفارة المذكورة) ولختم الرؤيا والنبوة (أى لإتمامهما وتحقيقهما)، ولمسح قدوس القدوسين (أيضاً)، فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها - الذى حدث فى عهد أرتحشستا الملك (نحميا ٢: ١ - ٨) - إلى المسيح الرئيس (فى مجيئه الأول) سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً (أى ٤٩ سنة + ٤٣٤ سنة = ٤٨٣ سنة).

وبعد اثنين وستين أسبوعاً (أى ٤٣٤ سنة). يُقطع المسيح (أى يرفض ويقتل) وليس له، أى ليس له المُلك الذى يحق له» (دانيال ٩: ٢٥ - ٢٧)(٤).

(د) وقال الملاك ليوسف خطيب العذراء مريم عنها «فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع لأنه **يخلص شعبه من خطاياهم**(٣)» (متى ١: ٢١). ولا خلاص من الخطايا إلا بالتكفير عنها، ومن ثم يكون المسيح هو الشخص الذى يكفر عن الخطايا.

(هـ) وقال زكريا الكاهن# متنبئاً عن فداء الله فى المسيح «مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع **فداء** لشعبه» (لوقا ١: ٦٨)، ومن ثم يكون المسيح هو الفادى الذى يخلص البشر من خطاياهم.

(و) وقال سمعان الشيخ لله، عندما حمل المسيح فى طفولته «الآن تطلق عبدك يا سيد (من العالم) حسب قولك بسلام، لأن عينى قد أبصرتا **خلاصك** الذى أعددته قدام وجه جميع الشعوب» (لوقا ٢: ٢٥ - ٣٠)، الأمر الذى يدل على أن هذا الشيخ قد اطمأن من جهة مستقبله الأبدى، لأنه

---

* مما تجدر الإشارة إليه أن علماء اليهود مثل بارون وايرابائيل ويوناثان وموسى كوهين قد اعترفوا أن هذه النبوة هى عن المسيح فقالوا : إن المسيح بحمله آثامنا على نفسه عوضاً عنا، أصبح كأنه مسحوق بسببها، ولذلك من لا يصدق أن المسيح تألم من أجل آثامه، عليه أن يحمل هو قصاصها (الإيمان الحق للدكتور كوير ص ١٤١).

** الأسبوع هنا هو أسبوع سنين، فقد قال الله لحزقيال النبى عن الأزمنة الخاصة بالنبوات التى أعلنها له، إنه جعل له اليوم عوضاً عن سنة (حزقيال ٤: ٥). أما عندما يكون المراد بالأسبوع سبعة أيام عادية، فإن الكتاب المقدس ينص على ذلك، فقد ذكر فى موضع آخر أن دانيال قال «فى تلك الأيام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام» (دانيال ١٠: ٢).

هو أبو يوحنا المعمدان المعروف فى الإسلام باسم «يحيي».

رأى فى المسيح الخلاص الذى كان الله قد أعده للنجاة من شر الخطيئة وقصاصها.

(ز) وقال يوحنا المعمدان عن المسيح «هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم» (يوحنا ١:٢٩)، أو بالحرى هو «كبش الفداء» الذى يموت كفارة عن البشر جميعاً.

(ح) وقال قيافا رئيس كهنة اليهود، بروح النبوة «إن يسوع مزمع أن **يموت عن الأمة** وليس الأمة فقط، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (فى جميع أنحاء العالم) إلى واحد» (يو حنا١١:٤٩ ـ ٥٣)، أو بالحرى ليفديهم ويجعلهم شعباً واحداً لله[٥].

٢ ـ الأدلة على صدق شهادة العهد القديم :

فضلاً عن أن هذه الشهادة مسجلة بالوحى الإلهى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها، فإننا إذا نظرنا إليها من الناحية العقلية يتضح لنا أنها لابد أن تكون صادقة أيضاً، وذلك للأسباب الآتية :

(ا) إن التوراة التى وردت بها معظم هذه الآيات، كتبت قبل مجئ المسيح إلى العالم بمئات السنين، ولا تزال موجودة إلى الآن فى أيدى اليهود جميعاً. وفى أثناء خدمة المسيح على الأرض، كانت هناك نسخ منها فى الهيكل والمجامع والمدارس الدينية. وكان الكهنة واللاويون يقدسون هذه النسخ ويقرأون فيها كل يوم ويحافظون عليها بكل دقة وعناية. ومن ثم ليس من المعقول إطلاقاً أن يكون بعض المسيحيين قد دوّنوا النبوات السابق ذكرها (إن سوّلت لهم نفوسهم القيام بهذه الجريمة) فى عدد من نسخ التوراة. لأن جريمة مثل هذه لو حدثت، لكانت تكتشف فى الحال، وتبعاً لذلك لكان اليهود أحرقوا النسخ التى حدث بها التزوير، وقضوا على الذين قاموا به قضاء تاماً.

(ب) إن هذه الشهادة صادرة من أشخاص لا تربطهم رابطة ما، فبينهم الصديق والعدو، والملاك والإنسان، والشيخ والشاب، ومن عاش فى بلاد الفرس قبل الميلاد بمئات السنين، ومن عاش فى بلاد أورشليم بعد الميلاد ببضع سنوات. وبما أنه على الرغم من هذه الاختلافات الجوهرية اتحدت شهادتهم على أن موت المسيح هو للتكفير عن الخطيئة، إذاً لا شك أنهم كانوا منقادين فى شهادتهم هذه بروح واحد هو روح الله. إذ لولاه لما كانوا، وهذا شأنهم من التباين والاختلاف، يجمعون على شئ واحد.

(جـ) أخيراً نقول إن التاريخ الذى حددته نبوة دانيال النبى لمجئ المسيح للتكفير عن الخطيئة قد أثبت صدقه أساطين التاريخ مثل ياهين وهنجسبرج وسايس وأنولد وكوبر، فقد أجمعوا على أن صدور أمر أرتحشستا لتجديد أورشليم كان سنة ٤٥٥ ق.م، وبذلك يكون الباقى بعد خصم هذا التاريخ من ٦٩ أسبوع السنين (أى الـ ٤٨٣ سنة) هو ما يعادل ٢٨ سنة بعد الميلاد بالنسبة إلى تاريخ روما. وبعد إضافة سنة الفرق بين التاريخ القديم والحديث (الذى رأى العلماء وجوب إضافته لضبط

التـواريخ) يكون الناتج ٢٩ سنة مـيلادية، وهذه هى السنة التى صُلب المسيح فـيـهـا. لأن المؤرخين القدامى قدّروا تاريخ مـيلاد المسيح بما اكتشف فـيما بعد أنه يوافق سنة ٤ ق.م ، وذلك عندما قُورن بتاريخ روما الذى كان يسود العالم وقتئذ. وبإضافة ٢٩ إلى ٤ يكون الناتج ٣٣، وهذا هو السن الذى صُلب فيه المسيح (اقرأ مثلاً The Dictionary of the Bible).



(٢)

أدلة عقلانية على موت المسيح كفارة

١ ـ قبول المسيح للموت بإرادته :

إن المسيح كان فى وسعه أن يتجنب الصلب (لو شاء أن يتجنبه)، وذلك إما بالعودة إلى السماء التى أتى منها، وهذه كانت ترحب به فى أى وقت أراد، إذ أنها ملكه وتحت أمرته وسلطانه، وكان قد غادرها بإرادته، ومن ثم كان له أن يعود إليها بإرادته أيضاً (يوحنا ١٦:٢٨). أو باستحضار جيش من الملائكة لكى يقضى على اليهود جميعاً فى لحظة من الزمان (متى ٢٦:٥٣). أو بالابتعاد عنهم بوسيلة من الوسائل كما فعل أكثر من مرة فى أوائل خدمته بينهم (لوقا ٤:٣٠ ، يو ٨:٥٩)، حينما علم أن ساعة انتقاله من العالم لم تكن قد جاءت بعد (يوحنا ٧:٢٦). أو بالكف عن توبيخ رؤساء الكهنة لأن هذا هو الذى أثارهم ضده ودفعهم إلى قتله (متى ٣:٧).

لكن إذا رجعنا إلى تاريخ المسيح نرى : **أولاً** : أن تلاميذه حاولوا أن يمنعوه من الذهاب إلى أورشليم خوفاً عليه من عدوان اليهود وبطشهم (يوحنا ١١:٨ ـ ١٦)، ومع ذلك ثبت وجهه للذهاب إليها (لوقا ٩:٥١). **ثانياً** : أن الجنود الذين أتوا للقبض عليه سقطوا على وجوههم أمام هيبته، ومع ذلك لم يستثمر هذا الظرف ليسيطر عليهم ويضمهم تحت لوائه، بل سلّم نفسه بإرادته إليهم (يوحنا ١٨:٦). **ثالثاً** : أن التلاميذ لم يكونوا عزلاً بل كان معهم سيفان، ومن المحتمل أيضاً أنه كان معهم عدد من السكاكين التى كانوا يستعملونها وقتئذ فى ذبح خراف الفصح كعادتهم، ومع ذلك لم يسمح المسيح لهم باستعمال أى وسيلة من وسائل الدفاع. إذ عندما رفع بطرس سيفه وهوى به على أحد أتباع كهنة اليهود، قال المسيح له «رد سيفك إلى غمده» (يوحنا ١٨:١١). **رابعاً** : أن هيرودس الملك الذى أُسندت إليه محاكمة المسيح فى فترة ما، فرح عندما رآه وطلب منه أن يعمل معجزة أمامه، ولو

كان المسيح قد أجابه إلى طلبه، لكان هيرودس قد أطلق سراحه وصانه من أعدائه. ولكن المسيح أبى أن يجيبه على الإطلاق (لوقا ٢٣:٨). **خامساً** : أخيراً نقول إن بيلاطس الوالى الذى تولى محاكمة المسيح فى أول الأمر وآخره، أفسح له المجال للدفاع عن نفسه لكى يبرئ ساحته، ومع ذلك لم يجبه المسيح بكلمة حتى تعجب هذا الوالى جداً (متى ٢٧:١٤) - وكل موقف من هذه المواقف يدل على أن المسيح كان قد عقد النية وقتئذ على أن يقدّم نفسه للصلب، وطبعاً لم يكن هناك داع لذلك، لولا أنه قصد أن يكون كفارة كما ذكرنا.

٢ - موافقة الله على صلب المسيح :

كما أنه لو لم يكن موت المسيح موتاً كفارياً لكان الله قد أسرع بإنقاذه، لأنه الشخص الوحيد الذى عاش على الأرض دون خطيئة، وشخص مثله لا يجوز أن يقع تحت قضاء الموت، إذ أن الموت هو فقط أجرة الخطيئة وعاقبتها. لكن المسيح وقف لكى يحاكم أمام أشر الناس، ويُبصق على وجهه ويُلطم على خده ويُجلد على ظهره، ثم يُسمّر بعد ذلك على صليب العار، ويُعلّق بين إثنين من المجرمين - كل ذلك والسماء لم تحرك ساكناً : فلم تُهلك الأشرار العتاة، أو تُرسل ملائكتها لإنقاذ المسيح من بين أيديهم. فهل فشل ناموس الله الأدبى فى القيام بمهمته؟ أم تغيّر تعالى فى ذاته وصفاته؟ أم ترك العالم وشأنه نهائياً تحت سلطان الشر والإثم*؟ طبعاً كلا وكلا، لأن الله لا يتغير بأى حال من الأحوال، ولا يترك العالم وشأنه إلى النهاية. كما أن ناموسه الأدبى لا يفشل فى مهمته على الإطلاق**. وإذا كان الأمر كذلك، فلا ندحة من التسليم بأن الله هو الذى سمح بصلب المسيح، وطبعاً ليس هناك سبب لذلك إلا لكى يكون المسيح كفارة عن خطايانا.

ولذلك أعلن الوحى بعبارات صريحة أن موت المسيح، وإن كان بحسب الظاهر بإرادة اليهود، غير أنه كان فى حقيقة الأمر بإرادة الله. فقد قال بطرس الرسول لليهود عن المسيح بعد صعوده إلى السماء «هذا أخذتموه **مُسَلَّماً بمشورة الله المحتومة** وعلمه السابق، وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه» (أعمال ٢:٢٣). كما خاطب هو وباقى الرسل المولى قائلين معاً له «لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك

---

* أما عن الاعتراض : {فلماذا سمح الله إذاً بموت القديسين الأفاضل بأيدى الأئمة الأشرار؟}

فلا مجال له، لأنه لو كان القديسون المذكورون قد نجوا من هذا الموت، لكانوا سيموتون مثل باقى الناس. ومن ثم كان الأشرف لهم أن يموتوا شهداء الحق، من أن يموتوا موتاً عادياً.

** نعم قد لا يظهر ناموس الله الأدبى فى بعض الأحيان رأفة بالناس، لكن إذا استلزم الأمر فإنه يظهر بكل وضوح وجلاء. وتاريخ معاملة الله مع الناس حافل بالوقائع التى تثبت هذه الحقيقة.

القدوس يسوع الذى مسحته*، هيرودس وبيلاطس البنطى مع أمم وشعوب إسرائيل ليفعلوا كل ما سبقت **فعينت يدك ومشورتك** أن يكون» (أعمال٤:٢٧)، الأمر الذى يدل على أن الله قصد بموت المسيح أن يكون كفارة عنا كما ذكرنا.

٣ـ حزن المسيح قبل الصليب :

إذا رجعنا إلى التاريخ نرى أن القديسين الشهداء كانوا يقابلون الصلب والطرح فى النيران بالفرح والابتهاج، ونظراً لأن المسيح فضلاً عن كونه أعظم منهم شجاعة واحتمالاً بدرجة لا حد لها بسبب قداسته المطلقة، هو الذى قدم نفسه للصلب بمحض إرادته كما اتضح لنا مما سلف، لذلك لابد أن يكون بحسب تقديراتنا البشرية قد قابل آلامه بفرح وابتهاج أعظم منهم جميعاً. لكن إذا تطلعنا إلى المسيح قبل نزول هذه الآلام به، نراه فى حالة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى كنا نتوقع أن ونراه عليها، إذ أنه كان يحزن ويكتئب ويقول لتلاميذه «نفسى حزينة جداً حتى الموت»، كما كان يصلى** بلجاجة جعلت عرقه يتساقط كقطرات الدم#.

وهنا يتساءل العقل : لماذا حزن المسيح هذا الحزن المفرط؟؟

الجواب : طبعاً لأن آلام الصلب التى كان ينتظرها، لابد أنها كانت أقسى بدرجة لا حدّ لها من آلام الصلب العادية التى يحتملها القديسون الشهداء. أو بتعبير آخر لابد أن هذه الآلام كانت آلام الكفارة التى نستحقها إلى الأبد بسبب خطايانا لأن هذه الآلام لا نهاية لهولها.

٤ـ انتشار الظلام على الأرض :

عندما كان المسيح معلقاً على الصليب غطى الظلام وجه الأرض، واستمر هذا الظلام ثلاث ساعات متتالية، من الساعة السادسة من النهار إلى الساعة التاسعة منه[٦]. وكان هذا الظلام نتيجة لهبوط سحابة كثيفة سوداء[٧] ـ والسحابة كما يتضح من الكتاب المقدس رمز إلى حضور الله وتداخله فى شئون البشر (عدد ١١:٢٥)، واللون الأسود كما نعلم رمز إلى الأسى العميق أو الغضب المريع. وليس هناك شئ يدعو إلى الأسى العميق سوى الخطيئة، وليس هناك شئ يدعو الله لإظهار الغضب المريع

---

* «المسح» اصطلاح دينى معناه التعيين فى خدمة رئيسية، بناء على أمر الله والخدمة التى عين لها المسيح من جهة كونه ابن الإنسان، هى فداء البشر جميعاً.

** إن صلاة المسيح لم تصدر منه طبعاً بوصفه «ابن الله» بل بوصفه «ابن الإنسان»، لأنه من هذه الناحية كان فى مسيس الحاجة إلى الله.

إن سقوط العرق كقطرات الدم يرجع (كما يقول الأطباء) إلى الجهاد النفسى العنيف الذى كان المسيح يبذله أثناء الصلاة.

سواها. ومن ثم فالمسيح ولا شك كان يحمل وقتئذ خطايا البشرية، أو بعبارة أخرى كان يكفر عنها.

٥ ـ ترك الله للمسيح :

فى الثلاث الساعات الأولى لصلب المسيح، تحدث له المجد فى أمور شتى. فطلب الغفران لصالبيه، ووعد اللص التائب بالفردوس، واستودع أمه لرعاية تلميذه يوحنا لكى يعتنى بها. لكن عندما أرخى الظلام سدوله فى الساعات الثلاث التالية، لاذ بصمت رهيب، ثم صرخ (بوصفه ابن الإنسان) قائلاً «إلهى إلهى لماذا تركتنى* ؟!».

وهنا يتساءل العقل :

(أ) هل يترك الله أصفياءه فى أوقات الشدة والضيق؟

الجواب : طبعاً كلا، بل ينقذهم وينجيهم، وذلك بناء على وعده الصادق «ادعنى فى يوم الضيق أنقذك فتمجدنى» (مزمور ٥٠ : ١٥)، وإذا شاء تعالى أن يموتوا شهداء الحق، فإنه يدنو منهم بصفة خاصة ويساعدهم على احتمال آلام الاستشهاد، فيجوزون فيها بفرح وابتهاج، كما حدث ويحدث مع القديسين الشهداء. لكنه تعالى لم يعامل المسيح (بوصفه ابن الإنسان) حتى بهذه المعاملة المألوفة، بل تركه وحده. مع أن المسيح لم يكن فى وقت ما (إن جازت المقارنة) أكثر سمواً لدى الله، من الوقت الذى كان معلقاً فيه على الصليب، لأن هناك أظهر الطاعة المطلقة لله. ولذلك ما كان الله ليترك المسيح وقتئذ لولا أن موته كان موتاً كفارياً.

(ب) وهل يقتضى الأمر أن يُترك المسيح من الله إذا كان موته موتاً كفارياً؟

الجواب : طبعاً نعم. لأنه بما أن الله لقداسته لا يتوافق مع الخطيئة أينما وجدت، وبما أن المسيح رضى أن يضع على نفسه خطايانا، كما لو كانت خطاياه الشخصية، كان من البديهى أن يقف من الله موقفنا منه، فيشعر بشر الخطيئة وشناعتها، ويقاسى الآلام التى تتناسب معها، ومن بين هذه الآلام أن يحرم بصفته الإنسانية من التمتع به تعالى. ولذلك فمع بقاء المسيح فى مركزه الذاتى هو الكامل الذى لا ينفصل عن الله على الإطلاق، أصبح كابن الإنسان فى مركزه النيابى على الصليب فى الساعات الثلاث المذكورة، كما لوكان هو كل البشر حاملين خطاياهم وشرورهم، ومحتملين فى نفوسهم العذاب المريع الذى يستحقونه بسببها. وطبعاً لم يكن لكائن سوى المسيح أن ينوب عنهم فى هذه

---

* مما تجدر ملاحظته فى هذه المناسبة أن تسجيل هذه العبارة والعبارات التى على شاكلتها، دليل غير مقصود على حدوث تحريف فى الكتاب المقدس، لأن أول ما يفعله المحرفون هو حذف العبارات التى تبدو أمام بعض الناس أنها غير لائقة بالمسيح ـ وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب "إنجيل برنابا ـ بين التاريخ والعقل والدين".

الحالة المريرة، وذلك للأسباب التى ذكرناها فى الباب السابق.

(جـ) ألا يدل ترك الله للمسيح على أن لاهوت المسيح فارق ناسوته بضع ساعات؟

الجواب : كلا، لأن اللاهوت واحد ووحيد ولا يتجزأ أو يتفكك على الإطلاق، بسبب عدم وجود أى تركيب فيه، ولذلك فإنه جوهر الآب والابن والروح القدس من الأزل إلى الأبد. وإذا كان الأمر كذلك أدركنا أن ترك الله للمسيح وقتئذ لا يراد به إلا جعل المسيح (بوصفه ابن الإنسان النائب عن الخطاة) يحتمل فى ساعات الظلام الرهيب كل دينونة العدالة الإلهية عن خطايا البشر جميعاً، دون أن يقدم له أى معونة تخفف من وطأتها على نفسه، حتى يكون تكفيره عنهم تكفيراً قانونياً يتفق مع عدالة الله المطلقة كل الاتفاق. ومن ثم فقول المسيح «إلهى إلهى لماذا تركتنى؟» ليس اعتراضاً أو استفهاماً (لأن المسيح لم يكن يعترض على معاملة الله أو يجهلها)، بل هو تعبير عن الآلام الكفارية التى كان المسيح يجتاز فيها، والتى كانت قد بلغت وقتئذ أقصاها، حتى تملكه الإحساس وكأنه وحيد فريد أمام شر الخطيئة وعذابها الأليم.

(د) ألا يدل صراخ المسيح هذا، على أنه كان على الصليب مقهوراً ومغلوباً على أمره؟

الجواب : كلا، لأنه له المجد لا يُقهر ولا يُغلب على أمره، بل يدل على ثقته (بوصفه ابن الإنسان) فى الله كل الثقة، على الرغم من الظروف القاسية التى كان يجتاز فيها، لأنه لولا ذلك لما صرخ إليه على الإطلاق. كما يدل على كماله الذاتى لأن البشر العاديين إذا اجتازوا فى الآلام، لا يستطيعون أن يقولوا لله «لماذا تركتنا؟» لأنهم بسبب خطاياهم يستحقون أن يتركوا منه.

ومع كل فإن هذا الترك وإن كان حقيقياً، وقد أحس به فعلاً لأنه وضع نفسه موضع الخطاة، غير أنه لم يكن إلا إلى حين فحسب، لأن القول «لماذا تركتنى؟» تعبير عن اختبار حدث على الصليب فى فترة، ثم مضى وانتهى. كما أن قوله بعد ذلك «يا أبتاه فى يديك أستودع روحى» (لوقا ٢٣:٤٦)، دليل على أن صلته بالله لم تنقطع، وكل ما فى الأمر أنه بعد معاناته لآلام الصلب القاسية، عاد وأراح نفسه (كابن الإنسان) بين يدى الله وفى المجد.

أخيرا نقول :

إن المسيح وإن كان قد قاسى على الصليب آلاماً لا نستطيع الإحاطة بها، غير أنه كان فى الباطن مسروراً ومبتهجاً بتحملها نيابة عنا. فلسان حاله بوصفه ابن الإنسان، كان وقتئذ، كما فى كل وقت آخر «أن أفعل مشيئتك يا إلهى سررت» (مزمور ٤٠:٨). ولا عجب فى ذلك، فالمزمور الذى أشار إلى قول المسيح «إلهى إلهى لماذا تركتنى؟» ليس مزمور اليأس والفشل، بل مزمور اليقين والأمل،

لأنه ينتهى بالقول «أخبر بإسمك إخوتى* . فى وسط الجماعة أسبحك» (مزمور ٢٢:١ - ٢٠)، الأمر الذى يدل على أن المسيح عندما كان معلقاً على الصليب كان واثقاً أنه سيقوم من الأموات، وأنه سيعلن نعمة الله وخلاصه للمؤمنين الحقيقيين، ثم يقودهم بعد ذلك للحمد والتسبيح لله لأجلهما.

٦ - موته السريع :

بعد ست ساعات من صلب المسيح، أتى الجند وكسروا سيقان اللصين اللذين كانا مصلوبين معه، لكى يموتا وتدفن جثتاهما قبل الغروب كما جرت العادة عند اليهود. إذ كان اليوم التالى للصلب يوم سبت، وهذا اليوم يوم مقدس لديهم يجب أن لا تبقى فيه الأجساد معلقة على الصليب. ولكن لما أتوا إلى المسيح لم يكسروا ساقيه[٨] لأنهم رأوه قد مات (يوحنا ١٩:٢٣). ومن القرائن الخاصة بهذا الموضوع يتضح لنا أنه مات بسرعة لم تكن منتظرة على الإطلاق، حتى أن الوالى الذى حكم عليه بالصلب عندما بلغه هذا الخبر، لم يصدقه إلا بعدما سمعه من فم قائد المائة الذى كان ملازماً للصليب (مرقس ١٥:٤٤ و ٤٥).

فلماذا مات المسيح بهذه السرعة، وقد كان بسبب نقاوته وطهارته أقوى الناس بنية وأمتنهم أعصاباً وأقدرهم على مقاومة الآلام؟

الجواب : إذا وضعنا أمامنا أن المصلوب يموت (كما يقول الأطباء) موتاً بطيئاً فى مدة تتراوح بين ٢٤ و ٢٨ ساعة "بالصدمة الثانوية Secondary shock" متأثراً إما بالإجهاد العصبى والتهاب الجروح ونزف الدم، أو بتعطل الدورة الدموية واضطراب القلب، اتضح لنا أن موت المسيح بعد ٦ ساعات (أى قبل الوقت الذى ينتظر أن يموت فيه أضعف شخص يعلق على الصليب بـ ١٨ ساعة)، لا يعلل طبيعياً إلا بأن الآلام التى كان يجتاز المسيح فيها وقتئذ، لم تكن الآلام الجسدية الظاهرية فحسب، بل لابد أنه كانت مع هذه الآلام، آلام أخرى. وهذه الآلام لا يمكن أن تكون سوى آلام الكفارة التى كان يتقبلها فى نفسه عوضاً عنا، لأنه لا نهاية لهول هذه الآلام أو شدتها كما ذكرنا، ومن ثم كانت كافية بالطبيعة للقضاء على حياة المسيح الجسدية فى وقت وجيز.

ولذلك ذهب الأطباء إلى أنه طرأ على المسيح عندما كان معلقاً على الصليب، ما يسمى فسيولوجياً "ارتشاح فجائى فى القلب"، ويسمى لدى العامة "كسر القلب[٩]". وقد سبق الوحى وأشار إلى هذه الحقيقة فقال النبى عن لسان المسيح «العار كسر قلبى» (مزمور ٦٩: ٢٠)، وهذا العار لم يكن طبعاً عاراً لحق بالمسيح بسبب شر فعله، كلا. فقد كان كاملاً كل الكمال، بل كان عار الخطيئة

---

* إخوة المسيح هم المؤمنون الحقيقيون به، وذلك على أساس اتحادهم الروحى بشخصه المبارك (يو حنا ٢٠:١٧).

التى تردينا فيها ، والذى رضى المسيح أن يحمله على نفسه نيابة عنا على الصليب.

٧ ـ تزلزل الأرض وتشقق الصخور :

إن الظلام الذى خيم على الأرض عند صلب المسيح لم يكن طبيعياً ، وهكذا الحال من جهة الزلزلة التى حدثت وقتئذ(١٠) أيضاً. لأن أورشليم بعيدة كل البعد عن مواطن الزلازل التى تشقق الصخور، إذ أن القشرة الأرضية (كما يقول علماء الجغرافيا) قد استقرت فيها ، وفى الشرق الأوسط عامة قبل الميلاد بآلاف السنين. وأن ما يحدث الآن من زلازل فيها أحياناً، يكون آتياً إليها من جهات بعيدة، ومن ثم لا يؤثر عليها تأثيراً يذكر. والزلازل عندما تحدث بخلاف النواميس الطبيعية تكون من علامات الدينونة الإلهية الرهيبة (متى ٢٤:٧، رؤيا ٨:٥)، وهذه الدينونة كانت قد حقت وقتئذ على اليهود والرومان لأن شرهم كان قد بلغ أقصاه، إذ أساءوا إلى مصدر النعم والإحسان، وأظهروا له العدوان وكل العدوان (يوحنا ١٢:٣١).

ولكن لماذا لم تنصب الدينونة عليهم وقتئذ؟

الجواب : طبعاً لأن المسيح لابد أنه قد حملها فى نفسه عوضاً عنهم وعن البشرية* التى كانوا يمثلونها فى الميل إلى الشر والانحراف عن الحق، ومن ثم لا يكون موت المسيح استشهاداً فحسب، بل وكفارة أيضاً كما ذكرنا.



* ولنا فى الطريقة التى نجا بها آدم من الموت، ما يرمز إلى هذه الحقيقة، فإن قضاء الموت كان من الواجب أن يحل عليه وعلى زوجته عندما أخطأا، وذلك بناء على إنذار الله السابق لهما. لكن هذا القضاء لم يحل عليهما وقتئذ، لأن الله سمح بحلوله على الفدية التى سمح بها لأجلهما كما ذكرنا فى الباب الثالث.

(٣)

آلام الاستشهاد وآلام الكفارة

ذكرنا فيما سلف أن المسيح احتمل على الصليب نوعين من الآلام، هما آلام الاستشهاد وآلام الكفارة. ونظراً لأن كثيرين يعتبرون الاثنين آلاماً واحدة، رأينا من الواجب أن نتحدث فيما يلي عن كل منهما على حدة :

أولاً : آلام الاستشهاد

إن آلام الاستشهاد التى قاساها المسيح، لم تكن تشمل آلاماً جسدية فحسب، بل وآلاماً نفسية أيضاً، كما يتضح مما يلى :

١ – الآلام الجسدية :

(ا) ففى دار حنان طفحت روح البغضة والقسوة فى أحد الخدام، فصفع المسيح بكل ما لديه من قوة. وفى بيت قيافا انقض عليه الخدام وجنود الهيكل وافرغوا كل ما فى جعبتهم من حقد ضده، فلكمه البعض *، ولطمه البعض الآخر، وضربه بالعصى بعض غيره.

(ب) وفى دار الولاية انتهز جند الرومان وجود شخص يهودى بين أيديهم قال إنه ملك، فخلعوا عنه ثيابه وقيدوا يديه بالأغلال. ثم أحنوا ظهره وربطوه إلى أحد الأعمدة، وطفقوا يجلدونه بكل قواهم. وكانت آلة الجلد تتكون وقتئذ من تسعة سيور، فى كل مكنها سبع قطع من المعادن غير المصقولة. وكان الضروب بها يقع على الظهر، وأحياناً على الرأس أو الوجه **، فكان اللحم يتناثر وتغوص قطع المعادن فى الجروح، فيتدفق الدم بغزارة منها، كما كانت تتقطع الأعصاب وتصاب العظام بخدوش متعددة. لذلك كان المسيح يتألم ولا شك آلاماً مبرحة. ولو كان إنساناً عادياً لكان قد مات وقتئذ، كما كان يموت كثير من البشر. وبعد ذلك وضعوا إكليلاً من الشوك على رأس المسيح

---

* الفعل «لكم» هنا، مشتق من الملاكمة التى يستخدم فيها المصارعون كل قواهم.

** وقد أشار إشعياء النبى إلى منظر المسيح وهو فى هذه الحالة فوصفه بالقول : «كان منظره مفسداً أكثر من الرجل. وصورته أكثر من بنى آدم» (إشعياء ٥٢:١٤).

وضربوه بالقصبة عليها ، فانغرس الشوك فيها وتفجرت الدماء منها ، وأخذت تسيل على وجهه من نواح متعددة.

(جـ) وأخيراً طرحوه على الصليب المُعدّ له ثم شدوا يديه بكل عنف على عارضتيه، ودقوا فى كل منهما مسماراً غليظاً بمطرقتهم، وكأن المسيح قدّ من صخر لا يشعر أو يحس. فراح المسماران يخترقان الجلد واللحم والعروق والأعصاب والعظام، حتى نفذا فى عارضتى الصليب وتمكنا فيهما. ثم وضعوا إحدى قدميه على الأخرى، وبمسمار أطول من المسمارين السابقين سمروهما معاً حتى نفذ المسمار فى قائم الصليب وتمكن فيه أيضاً. ثم رفعوا الصليب وأسقطوه فى حفرة ليثبتوه فيها ، فاضطربت أعصاب المسيح اضطراباً عظيماً. وهناك تركوه تحت حرارة الشمس اللافحة حتى يبست مثل شقفة قوته ولصق لسانه بحنكه، واستبد به العطش استبداداً (مزمور ٢٢:١٥).

فالصليب كما قال شيشرون "هو أخس وأقسى العقوبات، وكان لا ينفذ إلا فى أشر المجرمين وألد الأعداء ، وذلك لكى تطول مدة عذابهم. فمن ثم كان كل من يصلب من البشر يتمنى الموت بأقصى سرعة، لكن هيهات أن تتحقق أمنيته. ومن ثم كان يرزح تحت آلامه المبرحة يوماً أو أكثر من يوم، حتى يقبل إليه الموت وينقذه". وكان اليهود يريدون أن يكون هذا هو الحال مع المسيح، لكن خاب أملهم، فقد مات بعد سويعات قليلة من صلبه للأسباب السابق ذكرها.

٢ ـ الآلام النفسية :

(ا) فقد خانه يهوذا الإسخريوطى على الرغم من أن المسيح كان يودع لديه كل ما يرد إليه من مال، فضلاً عن ذلك كان قد سمح له منذ ساعات قليلة بالأكل معه فى صحفة واحدة. كما أنكره بطرس مقدام التلاميذ على الرغم من أن المسيح كان قد خصه بامتيازات متعددة وأسدى إليه وإلى عائلته معروفاً عظيماً. ولم يقف بطرس عند حد الإنكار، بل أخذ يلعن ويحلف أنه لا يعرف المسيح. أما باقى التلاميذ فتركوه وهربوا على الرغم من أنهم أحب الناس إليه وأقربهم إلى قلبه، وكان قد قضى حياته بأسرها فى تعليمهم وإرشادهم والعناية بهم.

(ب) وفى جثسيمانى أقبل اليهود عليه بسيوف وعصى كأنه لص يسطو على البيوت أو مجرم يفتك بالناس. ثم أوثقوه كما يوثق العبيد والمجرمون، وفى عنف ساقوه إلى حنان ثم إلى قيافا ، وأخذوا يبصقون عليه كأنه أحقر الناس وأدناهم. وفى سخرية لاذعة كانوا يغطون وجهه الكريم، ثم يضربونه ويقولون له «تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك؟»!

وبعد أن استقر رأيهم على صلبه، ساقوه وسط مظاهر الهزء والتهكم إلى بيلاطس ووقفوا يشتكون عليه ويكيلون له التهم وراء التهم، وقد نسوا أو تناسوا أنهم نالوا أو نال ذووهم منه خيراً جزيلاً، كما

أنه كان فى ذاته أطهر وأقدس من عاش على الأرض بأسرها.

(جـ) وعندما وقف أمام هيرودس استهزأ الجنود به وسخروا منه، كما ألبسوه لباساً براقاً متهكمين عليه ومحتقرين إياه. ولما عادوا به إلى دار الولاية لكى يستأنف بيلاطس الوالى محاكمته، فضل رؤساء الكهنة (الذين كانوا يمسكون كتاب الله فى أيديه) باراباس السفاح على المسيح، فطلبوا من بيلاطس إطلاق سراح الأول وصلب الثانى. فأذعن لهم وخضع لمشيئتهم خوفاً على وظيفته من الضياع، مع أنه كان يجمع فى يده كل السلطة فى البلاد، وكان قد أقيم لصيانة العدالة وحمايتها من عبث العابثين.

(د) وفى دار الولاية أيضاً أخذه جند الرومان وجمعوا عليه الكتيبة بأسرها، ثم أوثقوه فى وسطهم واتخذوا منه ألعوبة (أو أضحوكة) لهم، إذ أقاموا له حفلة تتويج هزلية خلعوا عنه فيها ثيابه العادية وألبسوه رداء قرمزياً (ربما كانت عباءة مهلهلة ألقاها أحد الكبراء عنه من زمن طويل، فأخذها جندى منهم)، ثم ضفروا إكليلاً من عوسج وشوك ووضعوه على رأسه بلطف أو عنف، كما جعلوا قصبة فى يمينه عوضاً عن الصولجان، لكى يجعلوا منه صورة، أو بالحرى صورة ممسوخة، لأحد الملوك. ثم فى استهزاء لاذع طفقوا يجثون قدامه قائلين «السلام يا ملك اليهود!!». وأخيراً انتزعوا منه القصبة التى أعطوها له، وضربوه بها على رأسه ضربة قاسية، إمعاناً فى إهانته.

(هـ) وعندما كان معلقاً على الصليب كان المجتازون يجدفون عليه، وهم يهزّون رؤوسهم ويتطلعون إليه من أعلى إلى أسفل بكل ازدراء واحتقار قائلين له: «إن كنت ابن الله، فانزل عن الصليب»، غير عالمين أنه قَبِلَ الصلب باختياره لكى يكفّر عن خطاياهم وخطايا غيرهم من البشر. وأن المعجزة التى أراد أن يقدمها للبشرية ليس النزول عن الصليب، بل القيامة من الأموات بعد إتمام عمل الفداء. ولو فرضنا جدلاً أنه نزل عن الصليب كما طلبوا، لما كانوا قد آمنوا به، بل لقالوا عنه أن به شيطاناً، كما قالوا عندما كان يعمل بعض معجزاته فيما سلف. لأن السبب الحقيقى فى عدم إيمانهم لم يكن راجعاً إلى حاجتهم إلى برهان عن بنوة المسيح الفريدة لله، بل إلى انغلاق بصائرهم. ومن ثم كانوا يرون الحق باطلاً والباطل حقاً.

(و) ولقد احتمل المسيح الآلام الجسدية والنفسية السابق ذكرها، وكانت على نفسه أقسى مما نفتكر أو نتصور، وذلك لسببين: الأول ـ أنه كان سليم البنية فلم يقترب إليه يوماً مرض يوجعه أو أذى يؤلمه، فيتعلم الصبر والاحتمال. كما كان سليم النفس فلم يتبلد مرة إحساسه أو تحجرت عواطفه أو عرف للإهانة معنى أو للإذعان مذاقاً. والثانى ـ كان قد أحب الناس فقابلوا محبته بالبغضة والعداوة، وأحسن إليهم فقابلوا إحسانه بالتمرد والعصيان ـ وهو لكماله المطلق يؤلمه الجحود ونكران الجميل، وتدميه الخسة والدناءة ـ ومع كلٍ فهذه الآلام لم تكن كما ذكرنا، إلا آلام الاستشهاد التى

كان يحتملها الشهداء القديسون (وإن كان بدرجات متفاوتة) بكل فرح وابتهاج. ولذلك ليس من المعقول أنها كانت السبب فى الحزن العميق الذى بدا من المسيح فى جثسيمانى، ولا فى الصرخة الداوية التى انطلقت من فمه وهو معلّق على الصليب.

*

ثانياً : آلام الكفارة

هى الآلام غير المنظورة التى احتملها المسيح فى نفسه نيابة عن البشر بسبب خطاياهم ومعاصيهم، فسيف العدالة الإلهية كان عتيداً أن يهوى عليهم جميعاً، لكن المسيح قبله فى نفسه نيابة عنهم رحمة وشفقة عليهم. فتمت فيه النبوة التى قيلت عنه بأكثر من خمسمائة سنة «استيقظ يا سيف على راعىّ، وعلى رجل رفقتى[11]. اضرب الراعى» (زكريا ١٣:٧) عوضاً عن الرعية التى تستحق الضرب والعقاب ـ وآلام الكفارة هذه لا قدرة لنا على الإحاطة بهولها أو قسوتها، لكن لكى نعرف شيئاً عنها نتأمل فى النقاط الآتية :

١ ـ وجود المسيح فى مركز الخطاة :

إن المسيح بسبب نيابته عنا على الصليب، اعتبر فى نظر العدالة الإلهية كالأثيم، فقد قال الوحى عنه «وأحصى مع أثمه» (إشعياء ٥٣:١٢)، كما اعتبرت خطايانا بكل فحشها ودنسها كأنها خطاياه الشخصية. وقد رأى داود النبى هذه الحقيقة منذ القديم فقال بلسان المسيح «خطاياى وآثامى» (مزمور ٦٩:٥)، مع أنه لم يرتكب خطيئة أو اقترف إثماً. وإذا كان أنبل إنسان فى الوجود، مع كونه خاطئاً بطبيعته، يتألم ألماً شديداً عندما ينسب إليه إثم ارتكبه غيره، فلا ريب أن المسيح كان يتألم فى نفسه على الصليب آلاماً لا حد لها. لأنه وهو القدوس البار قد وضعت عليه كل آثامنا، وأصبح بذلك ليس كمجرد أثيم، بل كما لو كان هو كل الأثمة حاملين آثامهم ومعاصيهم معهم، بل أصبح تبارك اسمه كما لو كان هو ذات الخطيئة التى أفسدت العالم بأسره وتعدت على حق الله وناموسه. وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال عن الله إنه «جعل الذى لم يعرف خطيئة (وهو المسيح)، خطيئة[12] لأجلنا، لكى نصير نحن بر الله فيه» (٢كورنثوس ٥:٢١).

٢ ـ قبوله عار الخطيئة :

ولوجود المسيح فى مركز النائب عن الخطاة أخذ على نفسه عارهم أو بالحرى عار خطاياهم، وعار الخطيئة ليس بعده عار. فقد قال الوحى «عار الشعوب الخطيئة» (أمثال ١٤:٣٤). وقد أحس المسيح بهذا العار بدرجة لا نستطيع تصورها، لأن إحساس القدوس البار بعار الخطيئة أدق بدرجة لا حد لها من إحساس الإنسان المولود بها والعائش فيها. وقد رأى داود النبى بروح النبوة العار الذى

أحس به المسيح عندما كان معلقاً على الصليب، فقال عن لسانه قبل مجيئه إلى الأرض «العار قد كسر قلبى فمرضت» (مزمور ٦٩: ٢) ـ لأن هذا العار هو الذى حطم قلب المسيح المنطوى على أسمى العواطف وأقدسها، وأحنى رأسه العالية المشبعة بأرق المبادئ وأطهرها، فاعتراه، أو بالحرى اعترت نفسه، المرض. ومرض النفس أشر مرض فى الوجود، لأنه أثقل الأمراض وأسرعها فتكاً بالإنسان.

٣ ـ احتماله عذاب الخطيئة :

نظراً لأن الخطيئة لا تجلب على فاعلها العار فحسب بل والعذاب أيضاً، لذلك كان من البديهى وقد قبل المسيح أن يكون نائباً عنا، أن يحتمل عذاب الخطيئة أيضاً، وعذاب الخطيئة ليس بعده عذاب، فهو جهنم بآلامها النفسية ونيران العدالة الإلهية. وقد رأى داود النبى بروح النبوة تأثير هذا العذاب على نفس المسيح، فقال عن لسانه قبل مجيئة إلى العالم «كالماء انسكبت. انفصلت كل عظامى. صار قلبى كالشمع. قد ذاب فى وسط أمعائى. يبست مثل شقفة قوتى ولصق لسانى بحنكى» (مزمور ٢٢: ١٤ و ١٥).

٤ ـ حلول لعنة الخطيئة عليه :

والخطيئة لا تجلب العار والعذاب فقط، بل واللعنة أيضاً، فقد قال الوحى : «ملعون من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى كتاب الناموس ليعمل به» (غلاطية ٣: ١٠)، ولذلك كان من الواجب أن يحمل الفادى ليس عار الخطيئة وعذابها فقط، بل ولعنتها كذلك. فهل قبل المسيح لعنة الخطيئة مع الآلام التى قبلها عوضاً عنا؟ إننا نجيب والدمع يترقرق فى مآقينا، والقلم يبطئ السير فى أيدينا : "نعم" فقد قال الوحى «المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا» (غل ٣: ١٣). فهو تبارك اسمه بسبب قبوله خطايانا على نفسه حباً بنا وعطفاً علينا، لم يحسب ملعوناً فقط، بل ولعنة أيضاً، وذلك لكى يرفع لعنة الخطية عنا، ويجلب إلينا البركة عوضاً عنها.

هذا شئ من آلام الكفارة، ونحن لا نستطيع أن نكتب عنها أكثر مما كتبنا. فليس سوى الله والمسيح يعرفان قدرها وشناعتها، لأن الأول هو الذى يعرف مطالب عدالته التى لا حد لها، والثانى هو الذى قام بإيفاء هذه المطالب على ناسوته إلى التمام. لكن مما لا شك فيه، أنه لو كانت آلام الكفارة قد تحولت ناراً مادية والتهمت جسد المسيح التهاماً، لكان ذلك أهون عليه كثيراً من تحمل الآلام المذكورة، لأنها كانت تستعر فى جسده ونفسه وروحه، معذبة إياه وهى مبقية عليه، طوال ساعات الظلمة التى اجتازفيها على الصليب.

***

أخيراً نقول : إن الكفارة التى تحدثنا عنها كثيراً لم تكن عملاً آلياً خارجياً كان من الواجب إتمامه قبل أن يتمكن الله من الصفح عنا وتقريبنا إليه (كما يظن بعض الناس)، بل إنه عمل صادر من نفس طبيعته تعالى. لذلك خشية أن يساء فهم معنى الكفارة نقول : إن العبارة "لولا تكفير الله بنفسه عن خطايانا فى المسيح، لما حصلنا عى الخلاص" معناها : لولا أن الله يستطيع فى محبة لا حد لها أن يحتمل خطايانا بكل دنسها وشناعتها، ويرضى أن يقربنا إليه على الرغم من قصورنا الذاتى، لما خلصنا على الإطلاق. لذلك فإن ظهوره لنا فى المسيح للقيام بهاتين الخدمتين، لم يكن عملاً خارجياً قام به ليتمكن من أداء أمر لا تقدر طبيعته أن تعمله، بل بالعكس إنه عمل نابع من طبيعته نفسها.

فالله بسبب محبته الشديدة للبشر، لم يقض عليهم بسبب خطاياهم، بل تأنى عليهم سنين عديدة. وعندما كان يطفح شر جماعة منهم، كان يصيبها بطوفان أو نار أو وباء، تأديباً لها حتى تتوب عن شرها. ولكن لما أتى الوقت المعين منه تعالى، وكانت نفوس المخلصين من البشر، قد تاقت إلى الخلاص من الخطيئة ونتائجها، ورأت عجزها التام عن الحصول عليه بكل قدراتها، ظهر لنا فى المسيح وقبل فى نفسه كل شرورنا وآثامنا، عوضاً عن أن يردها على رؤوسنا ويوقع علينا جميعاً الدينونة الأبدية بسببها. أما لو كان المسيح قد تجنب الصلب، أو سمح لتلاميذه باستخدام السيف، أو استدعى الملائكة للدفاع عنه، وكل ذلك كان ميسوراً لديه كما ذكرنا، لظلت خطايانا سائدة علينا رافعة عقيرتها متحدية محبة الله ورحمته. أما الآن فقد انتصرت محبة الله ورحمته على خطايانا انتصاراً تاماً، ومن ثم صار لكل من يؤمن منا إيماناً حقيقياً، امتياز الحصول على الصفح والغفران إلى أبد الآباد، كما يتضح من الباب السابع.

فموت المسيح كفارة هو إذاً أكبر خدمة قام بها لأجلنا، لأنه لو كان قد عاش لغاية الآن، يعلِّم الناس ويطعم الجياع ويشفى المرضى ويقيم الموتى، دون أن يكفِّر عن خطايانا، لكانت هذه الخدمات مع سموها وفائدتها، لا تخلصنا من دينونة خطايانا أو تؤهلنا للوجود مع الله والتوافق معه. ومن ثم كنا نقضى حياتنا فى شقاء أبدى وبئس المصير.



الباب السادس

كفاية كفارة الله فى المسيح ونتائجها

- كفاية كفارة الله فى المسيح
- نتائج كفاية كفارة الله فى المسيح

(١)

كفاية كفارة الله فى المسيح

بما أن الله هو الذى فدانا فى المسيح، لذلك لابد أن فداءه كاف لإيفاء مطالب عدالته وقداسته من نحونا، وبالتالى لابد أنه كاف لخلاصنا من خطايانا ونتائجها الوخيمة. لكن نظراً لأهمية هذه الحقيقة، نذكر فيما يلى بعض الأدلة التى تؤكد صدقها، حتى تطمئن النفوس التى يساورها أى شك من جهتها.

أولا : شهادة المسيح، والأدلة على صدقها

١ ـ شهادة المسيح :

(ا) قال المسيح قبل الفداء الذى قام به «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به. بل تكون له **الحياة الأبدية**» (يوحنا ٣:١٦). وقال أيضاً «الذى يؤمن بالابن **فله حياة أبدية**. والذى لا يؤمن بالابن فليست له حياة أبدية. بل يمكث عليه غضب الله» (يو ٣:٣٦)، وأيضاً «الحق الحق أقول لكم من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى، فله حياة أبدية ولا يأتى إلى دينونة (لأن الدينونة التى كان من الواجب أن تحل عليه، حملها المسيح نيابة عنه) بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة**» (يوحنا ٥:٢٤) ـ والتمتع بهذه الحياة على أساس الإيمان (أو بالحرى الإيمان الحقيقى بالمسيح)، دليل على كفاية كفارته.

(ب) وعندما كان المسيح على الصليب، قال للص (الذى ندم على خطاياه، ولجأ إلى نعمته مؤمناً بشخصه إيماناً حقيقياً) : «**اليوم تكون معى فى الفردوس**» (لوقا ٢٢:٤٣) ـ ونظراً لأن هذا اللص كان يستحق العذاب الأبدى بسبب جرائمه، وأن مجرد ندمه لارتكابها لم يكن ليؤهله للحصول على الغفران أو التمتع بالله كما ذكرنا فى الباب الثانى، لذلك فقول المسيح للص المذكور «اليوم تكون معى فى الفردوس»، دليل على أن كفارته (أى كفارة المسيح) كافية للخلاص من الخطايا ونتائجها.

(جـ) فضلاً عن ذلك فإن آخر عبارة قالها المسيح وهو على الصليب هى : «قد أكمل» (يوحنا ١٩:٣٠)، وهناك فرق كبير بين الانتهاء من عمل وبين إكماله. فالانتهاء من العمل معناه الفراغ منه

بإتمامه أو عدم إتمامه، أما إكماله فمعناه إنجازه إلى التمام. لذلك فالمسيح بقوله «**قد أكمل**»، أعلن أنه لم ينته من عمل الكفارة فحسب، بل وأكمله أيضاً بنجاح، كما يتضح من اللغة الأصلية للكتاب المقدس.

٢ ـ الأدلة على صدق شهادة المسيح :

فضلاً عن أن أقوال المسيح مدونة بالوحى الإلهى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها ،وفضلاً عن أن المسيح لم ينطق بها كلها فى أوائل خدمته، بل نطق ببعضها وهو على شفا الموت، هذا الوقت الذى يترك المرء فيه كل ادعاء (إذا كان مدعياً) ويظهر على حقيقته تماماً، نقول : بما أ شهادة المسيح عن موته الكفارى قد ثبت صدقها كما اتضح فيما سلف، وبما أنه بالإضافة إلى ذلك كان بعيداً عن التفاخر والتباهى كل البعد، إذاً لابد أن تكون شهادته عن كفاية كفارته لإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته (أو بالحرى عن كفايتها لخلاصنا من خطايانا ونتائجها)، هى شهادة صادقة أيضاً.

*

ثانياً : شهادة الرسل والأدلة على صدقها

١ ـ شهادة الرسل :

(ا) قال بطرس الرسول عن المسيح إنه «**حمل هو نفسه خطايانا** (أى خطايانا بأسرها) فى جسده على الخشبة» (١بط رس٢: ٢١ ـ ٢٣). وقال أيضاً «فإن المسيح **تألم مرة واحدة من أجل الخطايا** (جميعها)، البار من أجل الأثمة (أو بالحرى كل الأثمة)، لكى **يقربنا إلى الله** مماتاً فى الجسد ولكن محيى فى الروح» (١بط رس٣: ١٨).

(ب) وقال يوحنا الرسول عن المسيح «وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١يو ٢: ١). وقال كذلك عنه «أحبنا **وغسلنا من خطايانا بدمه**» (رؤيا ١: ٥). كما قال «دم يسوع المسيح ابنه **يطهرنا من كل خطية**» (١يوحنا ١: ٧).

(حـ) وقال بولس الرسول عن المسيح «وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس (أو بالحرى إلى السماء) فوجد **فداء أبدياً**» (عبرانيين ٩: ١٢). وقال أيضاً «لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدسين» (عبرانيين ١٠: ١١ ـ ١٤). كما قال عنه إنه «صنع بنفسه **تطهيراً لخطايانا**» (عبرانيين ١: ٣)، وإنه «بذل نفسه **فدية لأجل الجميع**» (١تيموثاوس ٣: ٦)، وإنه ذاق الموت **لأجل كل واحد** (عبرانيين ٢: ٩)، وإنه يفدينا **من كل إثم** (تيطس ٢: ١٤).

ومن هذه الآيات يتضح لنا أن فداء المسيح ليس لجماعة من الناس دون جماعة أخرى، أو عن بعض الخطايا دون البعض الآخر منها، أو أنه يمتد إلى فترة خاصة من الزمن يحتاج الناس بعدها إلى فداء آخر، بل إنه لكل الناس، وعن كل الخطايا، كما أن كفايته تمتد إلى أبد الآباد، الأمر الذى يفتح مجال الخلاص أمام كل الناس فى كل العصور والبلاد.

٢ - الأدلة على صدق شهادة الرسل :

فضلاً عن أن شهادة الرسل مدونة بالوحى الإلهى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها، وفضلاً عن الأدلة التى ذكرناها فى الأبواب السابقة عن صدق شهادتهم، نقول : إن الرسل بمناداتهم بكفاية كفارة المسيح، أعلنوا لليهود أنه لا داعى إطلاقاً ليس فقط لتقديم الذبائح التى كانوا يقدمونها، بل ولا داعى أيضاً لوجود الهيكل أو الكهنة واللاويين الذين كانوا يخدمون فيه.

وبما أن هذا الإعلان كان يثير اليهود عن بكرة أبيهم، ويدفعهم جميعاً بزعامة كل رجال الدين بينهم لاضطهاد الرسل أشد اضطهاد، لأنه (أى الإعلان المذكور) كان يقضى ليس فقط على موارد رزق هؤلاء كما ذكرنا، بل وأيضاً على الديانة اليهودية التى كانوا يعتزون بها كل الاعتزاز. وبما أنه ليس من المعقول أن يختلق الرسل موضوعاً يكون سبباً فى توجيه الإضطهاد العنيف إليهم، وعلى الرغم من ذلك يواظبون على المناداة به جميعاً بكل شجاعة وبسالة - هذا فضلاً عن استحالة اتفاقهم معاً على اختلاقه بسبب تباينهم من جهة الثقافة والنشأة والسن والبيئة والجنسية والمركز الاجتماعى، **لذلك لابد أنهم كانوا على يقين تام** أمام الله من جهة صدق موضوع كفاية كفارة المسيح الذى كانوا ينادون به.

*

ثالثاً : شهادة أنبياء العهد القديم والأدلة على صدقها

١ ـ شهادة أنبياء العهد القديم :

(ا) قال موسى النبى سنة ١٥٠٠ ق.م. إن الله قبلما أخرج آدم من الجنة، أعلن أن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تكوين ٣ :١٥) ـ وبهذا الإعلان أعطى الله لآدم وعداً بالفداء التام بالمسيح، لأن كلمة «نسل» ترد هنا فى اللغة العبرية بصيغة المفرد لا الجمع*، والشخص الوحيد الذى يدعى «نسل المرأة» هو المسيح، لأنه ولد من أم دون أب. أما «الحية» فيراد بها الشيطان، لأنه هو الذى يسمى بالوحى «الحية القديمة» (رؤيا ٢٠ :٢)، وذلك بسبب خداعه للناس وتضليلهم. وسحق المسيح لرأس الشيطان يدل على إنهاء سلطانه والقضاء الكامل عليه، وبالتبعية يدل على كفاية كفارة المسيح له المجد، لخلاص المؤمنين الحقيقيين من الخطية ونتائجها الأبدية.

(ب) وقال داود النبى سنة ١٠٠٠ ق.م. بروح النبوة عن المؤمنين الحقيقيين إنهم يأتون (من كل مكان) ويخبرون ببره (أى بر المسيح) لشعب سيولد، معلنين أنه قد فعل (أو بالحرى فعل البر) (مزمور ٢٢ :٣١). كما قال أيضاً عن هؤلاء المؤمنين إنهم **سيفرحون وتحيا قلوبهم** (مزمور ٦٩ :٣٢) ـ الأمر الذى يدل على كفاية كفارة المسيح لخلاصهم إلى الأبد، لأنه لا مجال للفرح للحياة الروحية بدون كفاية كفارته.

(جـ) وقال إشعياء النبى سنة ٧٠٠ ق.م. عن المسيح «إن جعل نفسه ذبيحة إثم، يرى نسلاً** تطول أيامه (**أى يحيا إلى الأبد**)، ومسرة الرب (الخاصة بخلاص المؤمنين الحقيقيين) بيده تنجح. من تعب نفسه يرى ويشبع#. وعبدى البار[1]، بمعرفته يبرر كثيرين (الذين هم المؤمنون الحقيقيون)، وآثامهم هو يحملها» (إشعياء ٥٣ :٣ ـ ١٢) ـ وكل فقرة من هذه العبارات تدل على كفاية كفارة المسيح إلى الأبد.

---

* أما عند ورودها بالجمع فى الأصل العبرى، فإنها تترجم إلى العربية «الأنسال». ويتضح هذا من قول بولس الرسول «وأما المواعيد فقيلت فى إبراهيم **وفى نسله**. لا يقول وفى الأنسال كأنه عن كثيرين، بل كأنه عن واحد، **وفى نسلك**، الذى هو المسيح» (غلاطية ٣ :١٦).

** نسل المسيح (أو ذريته) هم المؤمنون الحقيقيون.

عبارة مجازية يقصد بها سرور المسيح العظيم بخلاص الخطاة كنتيجة لكفاية كفارته.

٢ - الأدلة على صدق شهادة أنبياء العهد القديم :

فضلاً عن أن هذه الشهادة مدونة بالوحى الإلهى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها، وفضلاً عن الأدلة السابق ذكرها عن صدق شهادة هؤلاء الأنبياء نقول : إنهم عاشوا فى أزمنة متباعدة لا تسمح لهم بالتواطؤ على فكرة ما كما يدعى البعض. فضلاً عن ذلك لا يمكن أن يكون أحدهم قد نقل عن الآخر، لأن كلا منهم تنبأ عن ناحية خاصة من كفاية كفارة المسيح لم يشاركه فيها غيره، الأمر الذى يدل على أنهم كانوا منقادين معاً بروح الله، لأنه هو الذى يعرف كل شئ عن هذه الحقيقة من البداءة، ومن ثم كان فى وسعه أن يعلن عنها لكل نبى، ما كان متوافقاً مع الظروف التى عاش فيها.

*

رابعاً : شهادة الحوادث على كفاية كفارة المسيح

١ - انشقاق حجاب الهيكل :

عندما قال المسيح «قد أكمل»، انشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل (متى ٥١:٢٧) - ولكى يتضح لنا ما يدل عليه انشقاق الحجاب فى هذه اللحظة من معنى نقول : كان فى خيمة الاجتماع التى أقامها موسى النبى، وفى الهيكل الذى أقامه سليمان الحكيم بعد ذلك، غرفة تدعى قدس الأقداس، كان الله قد جعلها رمزاً إلى حضرته، يعلن فيها مجده وجلاله. وكان يوجد أمام هذه الغرفة، غرفة أخرى تدعى القدس، يقدم فيها الكهنة العبادة لله كل يوم. وبين هاتين الغرفتين كان يوجد الحجاب المذكور (٢أخبار الأيام ١٤:٣، خروج ٣١:٢٦)، رمزاً إلى أن الناس حتى الكهنة منهم، ليسوا أهلاً بسبب خطاياهم للدخول إلى حضرة الله، وإلى أنه تعالى لقداسته المطلقة لا يمكن أن يقبلهم فى حضرته لهذا السبب.

وقد ظل هذا الحجاب قائماً بين الغرفتين المذكورتين من أيام موسى النبى حتى رفع المسيح على الصليب، ولذلك لم يجسر إنسان طوال هذه المدة أن يدخل قدس الأقداس أو يراه، لئلا يموت فى الحال. فقد قال الله لموسى أن ينهى حتى رئيس الكهنة، عن الدخول كل وقت إلى ما وراء الحجاب لئلا يموت[٢]. (لاويين ٢:١٦). لكن هذا الحجاب الذى ظل قائماً فى موضعه مئات السنين يعلن انغلاق باب الله فى وجه الشر بسبب خطاياهم، لم يبق لحظة واحدة بعد أن قال المسيح «قد أكمل»، بل انشق فى الحال من فوق إلى أسفل - وطبعاً ما كان لينشق (أو بالحرى ما كان الله ليشقه) فى هذه اللحظة، لولا أن كفارة المسيح قد وفّت كل مطالب عدالته وقداسته، لأن الله بشقه للحجاب[٣]، كأنه يقول للناس : لقد كفّر المسيح عن خطاياكم تكفيراً كاملاً. ولذلك فتحت لكم بابى على مصراعيه، فهلموا

إلىّ لكى تتمتعوا بالوجود فى حضرتى دون حاجز أو مانع.

٢ ـ عدم كسر ساقى المسيح :

ذكرنا فى الباب الخامس، أن السبب فى عدم كسر ساقى المسيح يرجع إلى أنه كان قد مات قبل الغروب. غير أننا إذا نظرنا إلى كسر الساقين من حيث كونه إهانة للمصلوب، يتضح لنا أن الله لم يسمح بكسر ساقى المسيح إكراماً له. وطبعاً ما كان هناك داع لإكرامه وقتئذ، لولا أن كفارته كانت قد وفت مطالب عدالة الله وقداسته كما ذكرنا.

٣ ـ خروج الدم والماء من جنب المسيح بعد موته :

بعد موت المسيح طعن أحد الجنود جنبه بحربة، فخرج للوقت دم وماء. وخروج الدم والماء وقتئذ، وإن كان يعلله بعض الأطباء بعلل طبيعية(٤)، بيد أننا إذا تطلعنا إليه فى ضوء الكتاب المقدس نرى أنه دليل على كفاية كفارة المسيح. لأن الماء يرمز فيما يرمز إليه من أمور، إلى الوسيلة الإلهية للتطهير والارتواء الروحى (يوحنا ٤: ١٠ ـ ١٤ ، رؤيا ٢٢:١٧)، والدم هو عنوان الفداء والكفارة، إذ بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عبرانيين ٩:٢٢). وقد جذبت هذه الحقيقة نظر يوحنا الرسول وعرف قدرها حق المعرفة، ولذلك قال عن المسيح «هذا هو الذى أتى بماء ودم، لا بالماء فقط بل بالماء والدم ... والذين يشهدون فى الأرض هم ثلاثة : الروح والماء والدم. والثلاثة هم فى (المسيح) الواحد» (١يوحنا ٥:٦ ـ ٨)، أى أن الروح القدس يعلن فى العالم أن الفداء والحياة الأبدية هما بالمسيح، الأمر الذى يدل على كفاية كفارته كما ذكرنا.

٤ ـ دفن المسيح فى قبر جديد :

قد لا يخطر ببال أحد الناس أن دفن المسيح فى قبر جديد له علاقة بكفاية كفارته، لكن نظراً لأن كل كبيرة وصغيرة فى الحياة لا تحدث إلا وفقاً لمشيئة الله وتدبيره، فإن عقولنا لا تمر على دفن المسيح فى القبر الجديد دون أن تتساءل : لماذا شاء الله أن يدفن جسد المسيح فى مثل هذا القبر، وقد كان المقرر أن يدفن مع اللصين اللذين صلبا معه فى المقبرة العامة؛ بناء على قوانين الدولة الرومانية وقتئذ؟! وللرد على هذا التساؤل نقول : لو كانت كفارة المسيح لم تف مطالب عدالة الله وقداسته، لكان مثل المسيح مثل أحد الناس، لا أكثر ولا أقل، ولدفن تبعاً لذلك فى المقبرة العامة بناء على القوانين المذكورة. ولذلك فعدم دفن جسد المسيح فى هذه المقبرة دليل على كفاية كفارته وإيفائها لمطالب عدالة الله وقداسته، بل ودليل أيضاً على كمال طهارته.

فالله سمح للبشر بصلب المسيح لا لعجزه عن إنقاذه من أيديهم، بل لأنه شاء أن يتمم فيه كفارته عنهم جميعاً. أما وقد أكمل المسيح هذه الكفارة بالتمام، فطبعاً لم يكن هناك داع لأن يهان جسده

الطاهر بعد، بل كان من اللازم أن يكرم ويبجل. نعم كان عتيداً أن يُكرم ويُبجّل بقيامته من الأموات دون أن يعتريه فساد، لكن هذا لم يكن يمنع من إكرامه وتبجيله أيضاً فى أثناء موته. فبأثمن الأكفان كان يجب أن يكفن، وبأغلى الحنوط كان يجب أن يعطر، وفى قبر جديد منحوت فى صخر ومحاط ببستان كان يجب أن يدفن (يوحنا ١٩: ٣٩ ـ ٤١).

٥ ـ قيامة المسيح من الأموات :

لو أن المسيح ظل مائتاً مدفوناً فى قبره، لكان هناك مجال للطعن فى كماله المطلق، بدعون أنه لا يفرق شيئاً عن باقى الناس الذين بسبب خطاياهم يسود عليهم الموت ويظلون فى قبورهم إلى يوم القيامة. ولكان هناك أيضاً مجال للطعن فى كفارته التى نادى بها بدعوى عدم كفايتها لإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته. لكن قيامته من الأموات فى اليوم الثالث، لم تدع مجالاً لهذا الطعن أو ذاك.

٦ ـ قيامة بعض القديسين :

على أثر قيامة المسيح من الأموات، قام بعض القديسين من قبورهم، وظهروا لكثيرين من سكان أورشليم (متى ٢٧: ٥٢). وهذه الحادثة فضلاً عن أنها مدونة بالوحى الإلهى، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك فى صدقها نقول : إنها ترد فى الكتاب المقدس بأسلوب بسيط بعيد كل البعد عن المغالاة والتعليق الخاص، اللذين نراهما فى القصص التى يؤلفها البشر. كما أنها لا يمكن أن تكون من خيال التلاميذ، لأن هؤلاء لو أرادوا إكرام المسيح بسبب قيامته من الأموات، لما خطر ببالهم أن يكرموا معه بعض القديسين الذين ماتوا قبله، حتى يكون وحده محط الأنظار. فضلاً عن ذلك فإن هذه الحادثة كتبت ونشرت فى نفس المكان الذى صلب فيه المسيح وقام، وبين الناس الذين شاهدوا صلبه وسمعوا عن قيامته، دون أن يعترض عليها واحد منهم، الأمر الذى يدل على أنها كانت حادثة حقيقية معروفة كل المعرفة لديهم.

وسماح الله بقيامة هؤلاء القديسين على أثر قيامة المسيح من الأموات، دليل على كفاية كفارته، ودليل أيضاً على أن قوة الحياة التى لا تزول التى قام بها المسيح (عبرانيين ٧: ١٦)، تستطيع أن تقيم جميع القديسين الذين ماتوا والذين يموتون، بالهيئة التى قام بها المسيح إلى المجد الأبدى.

٧ ـ هدم الهيكل اليهودى :

كان الهيكل مفخرة اليهود العظمى، فضلاً عن أن بناءه تكلف حوالى مليار من الجنيهات الذهبية، فقد كان الملجأ الوحيد الذى يهرعون إليه فى ضيقاتهم ويقدمون فيه الذبائح حسب الناموس الذى أعطاه الله لموسى النبى، لكى ينالوا من الله عند توبتهم، رحمة وغفراناً. بل وكان هذا الهيكل هو أيضاً الشهادة العلنية على اتصالهم بالله دون غيرهم من الشعوب القديمة، لأن هذه كلها كانت تعبد

الأوثان. ولذلك كان الله يملؤه بمجده، ويعلن لهم فيه مشيئته، ويتقابل معهم بالروح فى رحابه ـ لكن هذا الهيكل العظيم لم يبق له أثر بعد ارتفاع المسيح إلى السماء بسنوات، إذ أقبل تيطس الرومانى وأحرقه، فهبط إلى الأرض من عليائه. ولم يكتف تيطس بذلك، بل اقتلع أساساته من الأرض، فتمت نبوة المسيح عنه أنه لن يترك فيه حجر على حجر لا ينقض (متى ٢٤:٢).

وقد حاول اليهود إعادة بناء الهيكل المذكور مرات متعددة عبر ألفى سنة تقريباً، فباءت كل محاولاتهم بالفشل ـ وهذا دليل واضح على أن ذبائحهم كانت مجرد رموز إلى كفارة المسيح، وبالتبعية على أن كفارة المسيح هى الكفارة التى يدوم أثرها إلى الأبد.



(٢)

نتائج كفاية كفارة الله فى المسيح

أولاً : البركات الخارجية

البركات الخارجية هى البركات التى يمنحها الله للمؤمنين الحقيقيين، ويراهم حاصلين عليها أمامه بفضل كفاية كفارة المسيح، وذلك بغض النظر عن حالة نفوسهم الداخلية فى أى وقت من الأوقات، وتتلخص هذه البركات فيما يلى :

(أ) الغفران

كان داود النبى يرنم قبل مجئ المسيح بألف سنة قائلاً «طوبى للذى غفر إثمه وسُترت خطيته!» (مزمور ٣٢:١). وكان إرميا النبى يتساءل قبل مجئ المسيح بستمائة سنة : كيف يصفح الله عن الخطاة؟ (إرميا ٥:٧) ـ ولكن الطوبى التى كان يترنم داود بها ويريد الحصول عليها، لم تتحقق إلا بكفاية كفارة المسيح. والطريقة التى يمكن أن يصفح بها الله عن الخطاة والتى تساءل إرميا عنها، لم تستعلن إلا بكفاية هذه الكفارة. فقد قال الوحى على لسان الرسل «فليكن معلوماً عندكم أيها الرجال الإخوة أنه بهذا (أى بالمسيح) ينادَى لكم بغفران الخطايا» (أعمال ١٣:٣٨). وقال أيضاً «حتى ينالوا (أى البشر) بالإيمان بالمسيح غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين» (أعمال ٢٦:١٨). وأيضاً «إن كل من يؤمن به (أى بالمسيح) ينال باسمه غفران الخطايا» (أعمال ١٠:٤٣). وقال للذين آمنوا إيماناً حقيقياً «قد غفرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١يوحنا ٢:١٢).

والله عندما يصفح عن الخطايا لا يذكرها على الإطلاق، فتصبح كأنها لم تُقترَف بتاتاً. وقد كان داود النبى يشتاق إلى مثل هذا الصفح الكامل، ولذلك كان يخاطب الله قائلاً «لا تذكر خطايا صباى» (مزمور ٢٥:٧). لكن عدم ذكر الخطايا إطلاقاً لم يكن يتحقق إلا بفضل كفاية كفارة المسيح لأنها وحدها هى التى وفت مطالب عدالة الله وقداسته، وعلى أساسها استطاع الله أن يقول للمؤمنين الحقيقيين «أصفح عن آثامهم، ولا أذكر خطيتهم فيما بعد» (إرميا ٣١:٣١ - ٣٤)*.

(ب) التبرير

والتبرير لا يراد به فقط، خلاص المؤمنين الحقيقيين من وصمة الخطايا (التى كانت لاصقة بهم) مثل الغفران، بل يراد به أيضاً صيرورتهم أبراراً** أمام الله (أو بالحرى أبراراً شرعاً[٥] أمامه). ولقد كان أيوب الصديق وداود النبى يبحثان قديماً عن هذا التبرير، فلم يجدوا إليه سبيلاً. فتساءل الأول «كيف يتبرر الإنسان عند الله؟» (أيوب ٢٥:٤). وخاطب الثانى المولى قائلاً «فإنه لن يتبرر قدامك حى» (مزمور ١٤٣:٢). لكن التبرير الذى نظر هذان التقيان إليه كأمر لا يمكن الحصول عليه، تحقق بفضل كفاية كفارة المسيح. فقد قال الرسل بالوحى للمؤمنين الحقيقيين «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح» (رومية ٣:٢٤ - ٢٨). وقالوا أيضاً «أما الآن فقد ظهر بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون» (رومية ٣:٢١و ٢٢). وأن المسيح «أسلم لأجل خطايانا، وأقيم لأجل تبريرنا» (رومية ٤:٢٥). وأن به «يتبرر كل من يؤمن» (أعمال ١٣:٢٨و ٢٩).

(جـ) التطهير

قبل مجئ المسيح بمئات السنين كان أيوب الصديق يقول عن نفسه، إنه لو اغتسل فى الثلج ونظف يديه بالأشنان# فإنه يظل مذنباً (٩:٣٠). وكان إرميا النبى يقول عن البشر إنهم حتى إذا اغتسلوا بالنطرون##، فإن آثامهم لا تمحى من أمام الله (٢:٢٢). وكان حزقيال النبى يقول عنهم إنهم لم

---

* وهذا على النقيض مما نفعل نحن، فقد نصفح عمن يسيئون إلينا، ومع ذلك تبقى إساءتهم عالقة بأذهاننا تبعث إلينا بالنفور والاشمئزاز منهم من وقت إلى آخر.

** أى كأشخاص لم يرتكبوا خطيئة على الإطلاق، وفى الوقت نفسه عملوا كل البر الذى يريده الله. ولا غرابة فى ذلك، فكما أن المسيح بنيابته عنا حسبت عليه خطايانا بكل شناعتها، كذلك بسبب هذه النيابة عينها يحسب لنا بره الذى يفوق كل بر فى الوجود.

كلمة معربة عن اليونانية، تطلق على مادة تستعمل فى التنظيف.

هو كربونات الصوديوم، ومنه يصنع الصابون الذى يستطيع تنظيف الملابس، حتى إذا استعمل فى غسلها ماء الآبار. والأشنان والنطرون مستعملان هنا بالمعنى المجازى، للدلالة على أن الخطيئة لا تستأصل بأية وسيلة من الوسائل البشرية.

يطهروا ولن يطهروا (١٣:٢٤). وكان داود النبى يصرخ لله قائلاً «اغسلنى كثيراً من إثمى ومن خطيتى طهرنى» (مزمور ٥١: ٢) - لكن هذا التطهير الذى كانوا يتوقون إليه ويرون الحصول عليه أمراً بعيد المنال، ق تحقق بفضل كفاية كفارة المسيح. فقد قال الرسل بالوحى عن المسيح إنه «صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا» (عبرانيين ١: ٣). وإنه «أحبنا وقد غسلنا* من خطايانا بدمه» (رؤيا ١: ٥)، وأن «دمه يطهر من كل خطية» (١يوحنا ١: ٧). وإننا «اغتسلنا بل تقدسنا بل تبررنا باسم الرب يسوع وروح إلهنا» (١كورنثوس ٦: ١١).

(د) الصلح والسلام مع الله

كان أيوب الصديق يبحث عن شخص خال من الخطيئة وفى الوقت نفسه قادر على إيفاء مطالب عدالة الله، حتى يستطيع أن يصالحه معه، لكن لم يعثر على هذا الشخص إطلاقاً. ولذلك قال يائساً «ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا[٦]، ليرفع عنى عصاه ولا يبغتنى رعبه» (أيوب ٩: ٣٣ و ٣٤). وكان إرميا النبى يقول إنه ليس سلام للأشرار (١٢: ١٢). وكان إشعياء النبى يطلب من الله أن يجعل له ولغيره سلاماً (١٢: ٢٦). غير أن الصلح والسلام مع الله اللذين كان يتوق هؤلاء الأفاضل إليهما ويرون الحصول عليهما أمراً متعذراً، قد تحققا بفضل كفاية كفارة المسيح. فقد قال بولس الرسول بالوحى «فإذ قد تبررنا بالإيمان، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رومية ٥: ١ و ٢). وقال أيضاً «نفتخر .. بالله بربنا يسوع المسيح الذى نلنا به الآن المصالحة» (رومية ٥: ١١). «ولكن الكل من الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح» (٢كورنثوس ٥: ١٩ ـ ٢١). وأيضاً إن الله صالح الكل لنفسه بالمسيح، عاملاً «الصلح بدم صليبه بواسطته» (كولوسى ١: ١٩ ـ ٢٢).

(هـ) الخلاص من الدينونة الأبدية

كان أتقى الناس قديماً يخشون الموت، ويبكون بكاء مراً إذا عرفوا باقترابه منهم (٢ملوك ٢٠: ٢). لأنهم كانوا يخشون الوقوف أمام عدالة الله (مزمور ١٤٣: ٢) ويفزعون من الوقائد الأبدية التى تقضى بها عدالته (إشعياء ٣٣: ٢٤). لكن بفضل كفاية كفارة المسيح، أصبحنا لا نخشى الدينونة، بل ونثق كل الثقة أن لنا امتياز التمتع بالله فى سمائه إلى الأبد. فقد قال المسيح إن من يؤمن به لا يدان أمام العدالة الإلهية، والذى لا يؤمن به قد دين أمامها (يوحنا ٣: ١٨). كما قال إن من يسمع كلامه ويؤمن بالذى أرسله فله حياة أبدية، ولا يأتى إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة. وإن من يؤمن بالابن تكون له الحياة الأبدية، ويقيمة الابن فى اليوم الأخير (يوحنا ٦: ٤). وقال بولس

* الغسل هنا يراد به المعنى المجازى. والمراد بالآية المذكورة أعلاه أن كفارة المسيح تزيل كل أثر للخطيئة عن المؤمنين الحقيقيين من أمام الله.

الرسول بالوحى عن الخلاص من هذه الدينونة «ظهر لطف مخلصنا الله وإحسانه، لا بأعمال فى بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلصنا» (تيطس ٣:٥). وقال أيضاً «لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله» (أفسس ٢:٨). وقال عن نفسه «إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا» (١تيموثاوس ١:١٢ - ١٥).

*

ثانياً : البركات الباطنية

عرفنا من الباب الثانى أننا لا نحتاج إلى غفران فحسب، بل ونحتاج أيضاً إلى حياة روحية تؤهلنا للتوافق مع الله فى صفاته السامية، لأننا إذا حصلنا على الغفران دون هذه الحياة ، ننجو من الدينونة الأبدية لكن نظل عاجزين عن التوافق مع الله، والعجز عن التوافق مع الله هو الشقاء بعينه. لذلك لم تقف نتائج كفارة المسيح عند حد منح البركات الخارجية السابق ذكرها، بل منحت أيضاً بركات باطنية تهيئ النفس للتوافق مع الله فى صفاته المذكورة، وهذه البركات هى :

(أ) الولادة الروحية من الله

لكى نعرف شيئاً عن ضرورة هذه الولادة وماهيتها وأهميتها، نتحدث عن النقاط الآتية :

١ ـ عجز الوسائل البشرية عن اصلاح النفس :

اتضح لنا فى الباب الثانى عجز الأعمال الدينية (مثل الصوم والصلاة والتوبة والصدقة) عن رفع قصاص الخطيئة عن الخطاة، وأيضاً عن تأهيلهم للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية. وسنرى الآن أن محاولات رجال الإصلاح الاجتماعى فى القضاء على الخطيئة قد باءت بالفشل كذلك :

قال فريق من هؤلاء الرجال إن الفقر والجهل والفراغ وثورة الشباب هى العوامل التى تقود إلى ارتكاب الخطيئة، لأنهم رأوا أن الفقير ينقاد إليها للحصول على لقمة العيش، والجاهل لعدم تقديره للعواق، والعاطل لعدم استطاعته البقاء بلا عمل، والشباب لتهوره واندفاعه. ولذلك سعوا لتوفير المال اللازم للفقراء، والعلم للجهلاء، والعمل للعاطلين، والتهذيب للمراهقين. لكن هذه الوسائل (كما أثبت الاختبار) لا تجدى فى التحول عن الخطيئة، لأن كثيرين من الأغنياء والمثقفين وأصحاب الأعمال والأشخاص الذين فاتوا دور الشباب، يرتكبون الكثير من الآثام والموبقات مثل غيرهم من الناس.

وقال فريق ثان إن العقاب البدنى كفيل بتحويل الأشرار عن شرهم، ولذلك أمروا بمعاقبتهم إما بالسجن أو الجلد أو الأشغال الشاقة ـ لكن هذه الوسائل (كما أثبت الاختبار) لا تجدى أيضاً، إذ أنها

تجعل الأشرار يعمدون إلى ابتكار طرق جديدة يخفون بها معالم جرائمهم، ومن ثم يتمادون فى إرتكابها دون أن يكتشف أحد أمرهم. ولو فرضنا جدلاً أنهم أقلعوا عنها لسبب من الأسباب، فإن الميل إليها أو إلى بعضها قد يظل متأججاً فى نفوسهم، ومن ثم يظلون أشراراً كما كانوا من قبل.

وقال فريق ثالث إن للدين سلطاناً عظيماً على الناس إذا نشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم. ولذلك جعلوا تعليم الدين إجبارياً فى المدارس، وأوصوا بتدريب الأطفال على حفظ الكثير من النصوص الدينية، لا سيما الخاصة منها بعظمة الله ووجوب الطاعة له - ولكن ألا يرتكب رجل الدين الذى نشأ منذ طفولته نشأة دينية بحتة نفس الخطايا التى يرتكبها غيره من الناس، وهكذا يفعل التربوى والاخصائى الاجتماعى، حتى إذا بلغ الستين من عمره (أهرام ١٩٧٢/١/٩).

٢ ـ أسباب فشل الوسائل المذكورة فى إصلاح النفس :

(ا) إن السبب فى فشل هذه الوسائل فى تحويل البشر عن الخطيئة، يرجع إلى أن الميل إليها ليس أمراً عرضياً فيهم بسبب ظروفهم أو حالة المجتمع الذى يعيشون فيه. حتى كان من الممكن إزالته بواسطة هذه الوسائل، بل إنه نابع من ذات طبيعتهم. وهذه الطبيعة لا تتغير على الإطلاق، مهما تطبع المرء بطباع جديدة، لأن الطبع ،كما يقولون، يغلب التطبع. فالوحوش المفترسة ،مثلاً، وإن كان قد أمكن تدريبها على القيام بالأعمال التى يتطلبها مروضوها ، لكنها كثيراً ما تنقض عليهم وتفتك بهم فتكاً ذريعاً. وهكذا الحال من جهة الطبيعة البشرية، فإنه من الممكن تهذيبها ، وقد تهذبت فعلاً حسب الظاهر وأصبح الإنسان المتحضر أفضل من إنسان الغابة كثيراً، لكن الطبيعة التى فى كليهما هى طبيعة واحدة.

نعم إن الإنسان المتحضر يتسامى أحياناً فوق الخطيئة تحت تأثير عوامل دينية أو اجتماعية، ولكن تسامياً مثل هذا لا يكون فى الواقع إلا تصرفاً صناعياً، لأنه ضد الطبيعة وميولها. أما التسامى الحقيقى فهو التسامى الطبيعى (ومثله مثل ارتفاع الأبخرة فى الهواء، لأنها بطبيعتها أقل وزناً منه)، ولا يكون هذا التسامى طبيعياً إلا إذا حصل المرء على طبيعة جديدة يكون السمو (وليس التسامى فقط) من شأنها. وهذه الطبيعة لا يتيسر للمرء الحصول عليها بمجهوده الشخصى أو بمجهود غيره من الناس له (وذلك للقصور الذاتى فيه وفيهم معاً)، بل الله وحده هو الذى يستطيع أن يمنحها لمن يتهيئون لها، إذ أنه تعالى هو الخالق لكل الأشياء سواء أكانت مادية أم روحية.

(ب) وقد أدرك رجال الله مثل أيوب وإرميا عجز البشر عن إصلاح نفوسهم، فقال الأول متسائلاً «من يخرج الطاهر من النجس؟» ثم أجاب عن هذا التساؤل فقال :«لا أحد» أو بالحرى لا أحد من البشر (أيوب ١٤:٤). وقال الثانى «هل يغير الكوشى (أى الحبشى أو الزنجى) جلده أو النمر

رقطه؟! (الجواب طبعاً كلا). أفأنتم أيضاً (هل) تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر» أو بالحرى المطبوعون عليه؟ (إرميا ٣:٢٣). وقال بولس الرسول عن طبيعته البشرية «ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت» (رومية ٧:٢٤). كما أدرك ذلك كثير من الفلاسفة والعلماء، فقال أفلاطون "ليس هناك تدرج من الشر إلى الخير"، أو بتعبير آخر إن الشرير لا يمكن أن يتدرج من تلقاء ذاته حتى يصبح خيّراً. وقال أرسطو "إنى عاجز كل العجز عن إصلاح النفوس البشرية وتحويلها إلى خيّرة". وقال ولسن "إن العلم أخفق فى تحقيق الإصلاح الأدبى وتوفير الفردوس الأرضى للناس. حقاً لقد أفادهم من الناحية المادية وحررهم من الخرافات وأنقذهم من بعض الأمراض، ولكنه فشل فى تغيير الطبيعة البشرية وتخليصها من الأدران الكامنة فيها مثل الحقد والضغينة". وقال أيضاً "إن علم الأخلاق عجز عن اقتلاع الميل إلى الشر من النفس وغرس الميل إلى الخير عوضاً عنه فيها". وقال بيتشر" ضع ما يروق لك على حمار وحشى. ضع لجاماً من ذهب فى فمه، وسرجاً من دمقس على ظهره. هل هذا يُغير من طبيعته؟! زيّنه بكل زينه فى الوجود، فهل يخرجه هذا من وحشيته؟ هكذا الطبيعة البشرية لا يمكن تغييرها، مهما بذل معها رجال الدين والإصلاح من جهود"، وقال سينيكا "إن الناس يكتنفهم شعور غامض يضعفهم وعجزهم إزاء التقدم الأدبى. فهم يكرهون رذائلهم ومع ذلك ينجذبون إليها. فما يحتاجون إليه هو أن توضع يد تحتهم لكى ترفعهم إلى أعلا"، وهذه اليد لا تكون طبعاً إلا يد الله.

(جـ) وإذا كان الأمر كذلك، فإن رجال الدين والإصلاح الاجتماعى الذين ذكرنا محاولاتهم فى البند الأول، لا يشبهون إلا جماعة من الناس رأوا شخصاً مشرفاً على الغرق، فأخذوا يصيحون نحوه قائلين، مثلاً : "لقد أخطأت بذهابك إلى البحر، وكان من الواجب عليك أن لا تخاطر بحياتك، طالما أنت لا تحسن السباحة. أما وقد بلغ الأمر إلى هذا الحد، فعليك أن تجاهد وتكافح ولا تدع الماء يتسرب إلى جوفك، حتى لا تتعرض للغرق" ـ فهل لذاك اللوم أو هذا النصح من فائدة؟! طبعاً لا. لأن ما يجب عمله فى هذه الحالة هو إنقاذ المشرف على الغرق أولاً، ثم توجيه اللوم والنصح إليه بعد ذلك. وهذا ما تفعله المسيحية مع الخاطئ، فهى لا تطلب منه مبدئياً أن يحيا حياة القداسة والطهارة، بل أن يُقبل بكل قلبه إلى المسيح الفادى، وحينئذ لا تغفر له خطاياه فحسب، بل وينال أيضاً من طبيعة روحية تؤهله للإرتقاء فوق الطبيعة الخاطئة الكامنة فيه، وبذلك يستطيع تنفيذ كل وصايا الله على أحسن وجه ـ وهذا العمل هو ما يسمى «الولادة من الله».

٣ ــ ماهية الولادة من الله :

(ا) فهذه الولادة ليست إذاً إصلاح الطبيعة البشرية العتيقة بواسطة الصوم والصلاة أو الوعظ والإرشاد، أو هى بدء صفحة جديدة فى الحياة بواسطة التوبة عن الخطيئة ومحاولة الابتعاد عنها، أو

الانضمام إلى جماعة دينية ومزاولة بعض النشاط الدينى أو الأدبى بينها، أو دراسة الكتب المقدسة والسعى للعمل بما جاء فيها (وإن كانت هذه كلها أموراً طيبة فى حد ذاتها)، بل إن الولادة من الله هى حصول المرء منه على طبيعة روحية تؤهله للتوافق معه فى صفاته الأدبية السامية.

(ب) وقد أشار الرسل إلى الولادة المذكورة فقالوا «وأما كل الذين قبلوه (أى قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أى المؤمنون باسمه. الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل، بل من الله» (يوحنا ١ :١٢ و ١٣)*وقالوا أيضاً «كل من يؤمن (إيماناً حقيقياً) أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله» (١يوحنا ٥ : ١٠). وأيضاً إن «الله ولدنا ثانية لرجاء حى بقيامة يسوع المسيح من الأموات» (١بطرس ١ :٣). وإنه «شاء فولدنا بكلمة الحق لكى نكون باكورة من خلائقه» (يعقوب ١ :٨). وإن المؤمنين (الحقيقيين) ولدوا ثانية، «لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد» (١بطرس ١ :٢٣). وإن الله وهبهم كل ما هو للحياة والتقوى لكى يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية (الأدبية) هاربين من الفساد الذى فى العالم بالشهوة (٢بط ١ :٣). وقد نبه السيد المسيح من قبل إلى ضرورة هذه الولادة، فقال لأحد كبار معلمى اليهود : «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح. لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق» (يوحنا ٣ :٦ ـ ٧)[٧].

(جـ) والولادة من الله يعبر عنها أيضاً بالخليقة الجديدة. فقد قال الرسول «إذاً إن كان أحد فى المسيح، فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كورنثوس ٥ :١٧). كما قال عن نفسه وعن المؤمنين «لأننا نحن عمله (أى عمل الله) مخلوقين (مرة ثانية) فى المسيح يسوع، لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها، لكى نسلك فيها» (أفسس ٢ : ١٠).

(د) فالولادة من الله ليست وهماً أو بعض وهم (كما يظن بعض الناس)، بل هى حقيقة واقعة، لها الأدلة الكافية على وجودها. وقد اهتم كثير من علماء النفس بدراستها لا سيما فى الأشخاص الذين كانوا يرتكبون الجرائم ويدمنون المخدرات من قبل، فهالهم أمرها واعترفوا بأحقية وجودها. فالأستاذ "دراموند" عندما رأى آثارها فى الأشخاص المذكورين، اقتنع بوجودها ووصفها وسجل نتائجها فى كتبه. والعلامة "ستوربوك" عندما درس نتائج هذه الولادة، أسندها إلى حدوث تغيير عظيم فى النفس. والأستاذ "برونج" وجد أن الولادة المذكورة لا تتم فى النفس بالتدريج، بل دفعة واحدة. وقال الأستاذ جويت "إن الولادة الثانية لا تخضع لنواميس العلاج النفسى بل لناموس آخر، هو

---

* «ليس من دم» أى ليس من سلالة أو جنس ما. «ولا من مشيئة جسد» أى ليس بواسطة المجهود الجسدى أو الذاتى. «وليس من رجل» أى ليس بواسطة التناسل الطبيعى أو بواسطة مجهود رجل من رجال الدين، مثلاً.

ناموس الله" وقال الأستاذ سافينارولا "إن الولادة من الله تبعث فى النفس حياة خلاقة*"، لأنه وجد المولودين من الله يحيون حياة روحية سامية لا يستطيع سواهم أن يحياها.

٤ ــ ضرورة الولادة الجديدة :

(ا) إن نفس الإنسان ليست مريضة فقط بالخطيئة حتى كان يكفيها علاج ما، لكنها ميتة بالخطيئة، إذ أن هذه سيطرت عليها تماماً. ومن ثم فإنها تحتاج قبل كل شئ إلى حياة روحية. وهذه الحياة هى التى أتى المسيح إلى العالم ليمنحها لنا. فقد قال عن نفسه : «أما أنا فقد أتيت (لا لكى أعظ أو أعلم أو أرشد أو أعمل معجزات، وإن كان قد قام بهذه الأعمال خير قيام، بل أتيت «لتكون لهم حياة. ويكون لهم أفضل» (يوحنا ١٠:١٠).

وهذه الحياة ليست قوة أدبية (كما يظن بعض الناس)، بل هى حياة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، مثلها فى ذلك مثل الحياة التى تدب فى الميت فينهض من رفاته ويقوم بما أراد من أعمال. ومن ثم فبواسطتها يصبح الميت بالذنوب والآثام شخصاً روحياً يستطيع بنعمة الله الارتقاء فوق كل الخطايا، كما يستطيع التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية. والرسول الذى اختبر هذه الحياة فى نفسه قال «لأن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع قد أعتقنى من ناموس الخطية والموت» (رومية ٣:٨).

ومن ثم فكما أنه بالولادة من آبائنا وأمهاتنا نحصل على صفاتهم وخصائصهم، ونبدأ حياتنا على الأرض معهم، ويكون لنا أيضاً حق التمتع بهم وبكل ما لديهم من خير (إن كان لديهم خير)، هكذا الحال من جهة الولادة من الله، فإن بها دون غيرها نحصل على طبيعته الأدبية، فتبدأ علاقتنا الحقيقية معه، ونستطيع التمتع به فى كل أمجاده.

(ب) مما تقدم يتضح لنا أنه كما أن الطبيعة أوصدت بابها بين مملكتى الجماد والحيوان، فلا يمكن أن ينتقل جماد من حالة الجمود إلى الحياة، كذلك لا يمكن للميت بالخطايا والذنوب أن يكوّن بنفسه الحياة الروحية المذكورة، مهما بذل من مجهود. ولذلك فعلى من يريد الحصول عليها أن يتجه بقلبه إلى الله مباشرة مؤمناً إيماناً حقيقياً بالمسيح، فيمنحه الله إياها كما ذكرنا. أما من يكتفى بما يقوم به من الأعمال التى تدعى الصالحة لكى يستر خطاياه، فمثله مثل شخص يحاول القضاء على رائحة ميت، لكن مهما أكثر من تعطيره، لا يمكن أن يجعل الميت حياً. أو مثل شخص يصنع زهوراً، لكن مهما أتقن صناعتها فلا يمكن أن يجعلها تبعث من تلقاء ذاتها رائحة زكية.

---

* عن : (١) The Changed Life (٢) Psychology in the Sevice if Religion

(٣) التجديد.

(ب) الحصول على الروح القدس

١ ــ العلاقة بين حلول الروح القدس وكفارة المسيح :

كان الروح القدس، أو بالحرى روح الله، يحل على الأنبياء قديماً فى أوقات خاصة لكى يبلغهم أقوال الله. ولكنه لم يسكن فى واحد منهم، لأن الخطيئة لم تكن قد أُزيلت عنهم من أمام الله بعد. وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال عن الروح القدس «إنه لم يكن قد أُعطى بعد. لأن يسوع لم يكن قد مُجّد بعد» (يوحنا ٧:٣٩). ولكن لما تمجد المسيح بالقيامة من الأموات والصعود بعد ذلك إلى السماء، على أساس كفاية كفارته، حلّ الروح القدس على تلاميذه وسكن فيهم (أعمال ٢)، بناء على وعد المسيح السابق لهم (أعمال ١:٤). ومن هذا الوقت إلى الآن وهو يحل فى المؤمنين الحقيقيين. فقد قال الرسول لهم «إذ آمنتم خُتمتم بروح الموعد القدوس» (أفسس ١:١٣)، كما قال لهم «إنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم» (١كورنثوس ٣:١٦).

٢ ــ تهيئة المؤمنين الحقيقيين للصلاة :

ذكرنا فى الباب الثانى أن البشر بسبب قصورهم الذاتى لا يستطيعون أن يرفعوا من تلقاء أنفسهم الصلاة المقبولة أمام الله. ولكن بفضل سكنى الروح القدس فيهم تكون لهم القدرة على القيام بهذه الصلاة، لأنه يسمو بنفوسهم إلى حالة الشركة مع الله، كما يعلن لهم مشيئته من نحوهم. وقد أشار الرسول إلى هذه الحقيقة فقال «لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى (بسبب عجزنا الطبيعى). ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها. ولكن الذى يفحص القلوب يعرف ما هو اهتمام الروح، لأنه بحسب مشيئته يشفع فى القديسين» (رومية ٨:٢٦ و ٢٧).

٣ ــ تعليمه للمؤمنين الحقيقيين وإعطاؤهم الغلبة على الخطيئة :

فقد قال المسيح لتلاميذه عن الروح القدس إنه «يعلمكم كل شئ ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يو ١٤:٢٦)[٨]. وقال الرسول للمؤمنين عنه «وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه (أى من الله) ثابتة فيكم ولا حاجة بكم أ يعلمكم أحد (شيئاً من أموره تعالى)، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شئ (منها)» (١يوحنا ٢:٢٧).

ونظراً لأن هذا الروح هو روح الله، فإنه يعطيهم الغلبة على الخطيئة. فقد قال الرسول للمؤمنين إنهم بالروح القدس يميتون أعمال الجسد (رومية ٨:١٣). فضلاً عن ذلك فإنه عندما يسود عليهم يربطهم بالله ويطبعهم بطابعه السماوى المقدس. ومنم ثم ينظم تفكيرهم، ويهيئهم للسير فى طريق الله

فى كل حين، فيسيرون فيه، كما تسير الكواكب فى أفلاكها بانتظام، بسبب الجاذبية الكائنة بينها وبين غيرها من الكواكب والنجوم.

(جـ) البنوة لله*

١ - كان إرميا النبى يبحث قديماً عن كيفية الحصول على هذا الامتياز الثمين، لكنه رأى استحالة بلوغه بالمجهود الذاتى، فتساءل قائلاً «كيف أضعك (أيها الإنسان) بين البنين؟» (إرميا٣:١٩). لكن هذا الإمتياز الذى كان إرميا يرى استحالة حصول الإنسان عليه لقصوره الذاتى، قد تحقق فعلاً بفضل كفاية كفارة المسيح وعمله الروحى فى قلوب المؤمنين الحقيقيين. ولذلك قال الرسل لهؤلاء المؤمنين «بما أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً (أو هاتفاً) يا أبا الآب** » (غلاطية ٤:٦).

وقالوا أيضاً لهم «أخذتم روح التبنى الذى به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله#، ووراثون مع المسيح» (رومية ٨: ١٥ و ١٦).

وأيضاً «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله» (يوحنا ٣:٥). وأيضاً «فلستم بعد غرباء ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله» (أفسس ٢:٩).

٢ - والحق إن جعل الله إيانا أولاداً لله، لهو أعظم إحسان أنعم علينا به، على أساس كفاية كفارة المسيح. فهو لم يتبنانا لنفسه كما يتبنى إنسان بعض الأطفال، بل ولدنا بروحه معطياً إيانا طبيعته الأبية السامية. وهذا هو الإحسان الذى لا يستطيع أحد فى العالم أن يجود بمثله. لأننا نرى أنه إذا أراد إنسان كريم الخلق أن يتبنى لنفسه غلاماً مطبوعاً على الشر ، مثلاً، فإنه يعامله بكل عطف ولطف، ويرسله إلى أرقى المدارس والمعاهد، ويقدم له أفخر الملابس والأطعمة، ويوفر له كل أسباب الراحة والهناء. لكن مهما أوتى من حكمة وكرم لا يستطيع أن يلد الغلام المذكور مرة ثانية (أو بالحرى لا يستطيع أن يولد فيه ذات الأخلاق الكريمة التى يتمتع هو بها)، لذلك فإن هذا الغلام وإن كان يتثقف ذهنياً وظاهرياً، غير أنه يظل بنفسيته الشريرة التى طبع عليها - لكن ما لا يستطيع

* مما تجدر الإشارة إليه أن هناك فرقاً لا حد له بين بنوة المؤمنين الحقيقيين لله وبين بنوة المسيح الفريدة له. فهؤلاء المؤمنون يعتبرون أبناء لله بالنعمة، من وقت إيمانهم بالمسيح إيماناً حقيقياً فحسب. أما المسيح فهو ابن الآب بالحق والمحبة منذ الأزل الذى لا بدء له (٢يوحنا ٢). ولذلك فإنه دون سواه هو «ابن الله الوحيد» (يوحنا ١:١٨).

** «أبا» كلمة سريانية معناها «آب». ونظراً لشيوع استعمالها فى نشأة المسيحية، سجلت كما هى من الكتاب المقدس وسجل بعدها معناها باللغة المترجم إليها. ولذلك فإن هذه الآية تقرأ فقط «صارخاً أيها الآب».

المراد «بوراثة الله» أن يكون تعالى هو النصيب الأبدى للمؤمنين الحقيقيين، لأن هؤلاء لا يشتهون التمتع بأمجاد السماء (وإن كانت هذه ثمينة وغالية)، بل يشتهون التمتع بالله ذاته، فهو لديهم أعظم من هذه الأمجاد بما لا يقاس.

البشر قاطبة أن يعملوه، قد عمله الله فى نفوسنا بولادتها منه.

٣ ـ ومما تجدر الإشارة إليه فى هذه المناسبة أن رجال الإصلاح الاجتماعى الذين تأثروا بالخراب الذى يحل بالبشر بسبب الحروب، يتجهون فى الوقت الحاضر إلى إزالة الفوارق بين البشر حتى يصيروا شعباً واحداً متآلفاً، يحب كل فرد فيه غيره كما يحب نفسه. وما أسمى هذه الفكرة وما أنبلها!! لكن هل من الممكن تحقيقها بدون ولادة البشر من الله ولادة جديدة؟ طبعاً كلا، لأن هذه الولادة هى التى تجعلهم فعلاً أولاداً لله، وإخوة بالروح بعضهم للبعض الآخر.

(د) الحياة الأبدية والصلة الحقيقية بالله

١ ـ الحياة الأبدية :

الحياة الأبدية ليست هى التمتع بالله بعد الانتقال من العالم الحاضر كما يظن بعض الناس، بل هى الحياة الروحية التى يهبها الله للمؤمنين الحقيقيين بمجرد إيمانهم فى هذا العالم. فقد قال المسيح «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له (الآن) الحياة الأبدية» (يوحنا ٣:١٦). وإن من يسمع كلامه ويؤمن بالذى أرسله، فله (الآن) حياة أبدية (يوحنا ٤:٦). وقال الرسول «إن الله أعطانا (الآن) حياة أبدية، وهذه الحياة هى فى ابنه. من له الابن فله (الآن) الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة» (١يوحنا ٤ :١٢). والحياة الروحية التى يتمتع بها المؤمنون الحقيقيون فى العالم الحاضر، ستظل فيهم إلى الأبد مؤهلة إياهم للتمتع بالعلاقة السامية مع الله إلى ما لا نهاية له. ومن ثم فكل من لا يحصل على هذه الحياة فى الوقت الحاضر، سوف لا تكون له حياة مع الله بعد الانتقال إلى رحابه، لأنه كما يكون الإنسان فى هذا العالم، سيكون كذلك فى الأبدية.

٢ ـ الصلة بالله :

إن الأنبياء قديماً لم يكن فى وسعهم أن يدنوا من الله، فعندما ظهر لموسى صرخ هذا فى الحال «أنا مرتعب ومرتعد» (عبرانيين ١٢:٢١). وعندما ظهر لإشعياء صرخ هذا قائلاً «ويل لى إنى هلكت» (إشعياء ٦:٥). ولكن بفضل كفاية كفارة المسيح أصبح للمؤمنين الحقيقيين امتياز الدنو من الله منذ الآن للتمتع به وبأمجاده. ولذلك قال الرسول «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع ... لنتقدم بقلب صادق» (عبرانيين ١٠:١٩ ـ ٢١). وقال أيضاً «فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكى ننال رحمة ونجد نعمة عوناً فى حينه» (عبرانيين ٤:١٦). وأيضاً أن بالمسيح لنا قدوماً إلى الآب (أفسس ٢:١٨). لأننا بعدما كنا بعيدين عنه صرنا قريبين منه بفضل كفارة المسيح (أفسس ٢:١٣).

(هـ) الاتحاد الروحى بالمسيح وإدراك الحقائق الروحية

١ ـ الاتحاد الروحى بالمسيح :

فقد قال الوحى عن المؤمنين الحقيقيين إنهم بواسطة إيمانهم الحقيقى بالمسيح وسكنى الروح القدس فيهم تبعاً لذلك، أصبحوا بمثابة أعضاء جسد المسيح من لحمه ومن عظامه* (أفسس ٥ : ٣٠)، وأصبح المسيح بمثابة الرأس لهم (كولوسى ١:٨). فضلاً عن ذلك، فإنه يحيا فيهم (غل ٢ : ٢٠)، ويكون حياتهم (كولوسى ٣:٤). وكما يكون فيهم، كذلك يكونون هم أيضاً فيه (يوحنا ١٥:٣ ، ١٧:٢٣) ـ واتحاد المؤمنين الحقيقيين بالمسيح واتحاد المسيح بهم يكسبهم صفاته السامية، ومن ثم يستطيعون بنعمته أن يعيشوا على الأرض كما عاش، بكل قداسة وطهارة.

٢ ـ إدراك الحقائق الروحية :

إن الإنسان الطبيعى، مهما سمت حكمته الذاتية، لا يستطيع فهم أمور الله، لأن هذه تفوق العقل والإدراك. لكن عندما يؤمن إيماناً حقيقياً، يتولد لديه إدراك واضح لهذه الأمور بواسطة عمل الروح القدس فى نفسه. فقد قال بولس الرسول «لأن الله الذى قال أن يشرق نور ظلمة، هو الذى أشرق فى قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله فى وجه يسوع المسيح» (٢كورونثوس ٤:٦). وقال أيضاً «لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر، ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون، بل نتكلم بحكمة الله فى سر. الحكمة المكتومة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا .. (لأن) أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله، ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذى من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله .. ولكن الإنسان الطبيعى (بسبب الخطيئة المسيطرة عليه) لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ... وأما الروحى فيحكم فى كل شئ وهو لا يحكم فيه من أحد، لأن من عرف فكر الرب فيعلمه، وأما نحن فلنا فكر المسيح» (١كورونثوس ٢:٦ ـ ١٦).

***

من الأبواب السابقة يتضح لنا :

أولاً : أن المسيح احتمل دينونة خطايانا وعارها نيابة عنا، وأنه على هذا الأساس تهاطلت علينا إحسانات الله بكرم لا حد له. وبذلك سار عدل الله فى مجراه إلى النهاية، كما سارت رحمته فى

---

* تعبير مجازى للدلالة على اتحاد المؤمنين بالمسيح اتحاداً مباشراً.

مجراها إلى النهاية أيضاً، وفى هذا التصرف يتجلى لنا كمال الله المطلق وتوافق جميع صفاته معاً. وقد رأى داود النبى بالوحى هذا التصرف السامى العجيب فصاح متهللاً «الرحمة والحق (أى والعدل) التقيا. البر (أى الاستقامة أو العدل) والسلام تلاثما»*(مزمور ٨٥: ١٠). نعم وكان لابد أن يلتقيا وكان لابد أن يتلاثما كذلك، لأن صفات الله جميعها كما نعلم كاملة ومتوافقة. لكن هل كان من الممكن أن يلتقى عدل الله ورحمته معاً وأن يتلاثما أيضاً، بدون كفارة المسيح، طبعاً كلا. ولما كان الأمر كذلك، صاح الرسول قائلاً «تملك النعمة (أى الرحمة والمحبة) بالبر (أى بالعدل والحق) للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا» (رومية ٥: ٢١)، أو بتعبير آخر إن رحمة الله لها الآن أن تشمل جميع المؤمنين الحقيقيين، فتمتعهم بكل البركات السابق ذكرها، دون أن يكون فى ذلك إجحاف بحقوق عدالته. بل إن عدالته نفسها تشترك مع رحمته فى منحهم هذه البركات، لأنه تم إيفاء كل مطالبها من جهتهم.

ثانيا : إن الله تمجد بالكفارة أكثر مما لو كان قد طرح جميع البشر فى جهنم إلى الأبد بسبب عجزهم عن إيفاء مطالب عدالته وقداسته. وللإيضاح نقول : لنفرض أن رجلاً ثرياً نهبت ثروته، وبالقبض على اللصوص وجد أنهم بدّدوا هذه الثروة عن آخرها، فإن كل ما يمكن عمله فى هذه الحالة هو معاقبتهم، لكن الثروة لا يمكن استردادها. أما الله فقد استطاع بالكفارة أن يستردنا نحن الذين ضللنا، وأن يمنحنا ليس فقط حياة الاستقامة التى لآدم قبل السقوط فى الخطيئة، بل حياة أفضل منها بما لا يقاس، لأنها الحياة الأدبية الخاصة به تعالى. ومن ثم (إن جاز التعبير) نقول : إن الله أحرز بالكفارة فوزاً عظيماً ونصراً مبيناً.

---

* أي قبّل أحدهما الآخر.

الباب السابع

كيفية الإفادة من كفارة المسيح

- الإيمان وأهميته
- السبيل إلى الإيمان ودلائله

(١)

الإيمان وأهميته

أولاً : ماهية الإيمان

من البديهى أن يتساءل القراء بعد دراسة الباب السابق، عن ماهية الإيمان الذى بواسطته يمكن أن نخلص من قصاص الخطيئة ونتائجها، وأن نتمتع أيضاً بالحياة الروحية مع الله إلى الأبد. ولهم الحق فى ذلك، لأن كلمة الإيمان لكثرة تداولها بين الناس فقدت معناها عند معظمهم، وأصبحت تطلق على مجرد الاعتراف بعقيدة ما. فكل من اعترف بوجود الله، مثلاً، أصبح فى نظرهم مؤمناً. لكن هذا ليس من الصواب فى شئ، لأن من يؤمن بوجود الله، يبغض الخطيئة ويأبى السلوك فيها. وبما أن كثيرين من الذين يعترفون بوجود الله، يرتكبون الكثير من الآثام غير حاسبين له تعالى حساباً، إذاً فهم ليسوا بمؤمنين. وإن قالوا إنهم مؤمنون، فإيمانهم هذا لا يكون حقيقياً بل إسمياً فحسب. وإيمان مثل هذا (إن جاز أن يسمى إيماناً) لا قيمة له فى نظر الله، حتى إن كان ذووه يصومون ويصلون ويتصدقون كثيراً. وإذا كان الأمر كذلك، يجب علينا جميعاً أن نعرف ما هو الإيمان الحقيقى الذى يهيئنا للتمتع بالبركات السابق ذكرها، ومن ثم نقول :

١ - معنى الإيمان من الناحية اللغوية :

الإيمان هو لغة الثقة واليقين، أو بالحرى هو الثقة بحقائق غير منظورة بناء على شهادة الله عنها، بغض النظر عن حكمنا نحن عليها، لأن آراءنا معرضة للتغيير من وقت إلى آخر، أما شهادة الله فثابتة إلى الأبد. وقد استعمل الكتاب المقدس كلمة الإيمان بهذا المعنى فقال «الإيمان هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى» (عبرانيين ١١ : ١).

هذا هو المعنى العام للإيمان، وإذا أردنا تطبيقه على سبيل الإفادة من خلاص المسيح، يكون هو العمل الروحى الذى به تتفتح نفوسنا لله وتثق فى خلاصه الذى عمله فى المسيح، ثقة تجعلها توقن كل اليقين أنها امتلكت هذا الخلاص مع البركات المترتبة عليه. غير أن للإيمان فى بعض اللغات الأجنبية معان أخرى، كما يتضح مما يلى :

(ا) ففى اللغة السنسكريتية (التى هى أصل الكثير من اللغات الأوربية) يراد به أيضاً "الرابطة". ومن ثم يكون الإيمان بالمسيح هو الرابطة الروحية التى تربطنا به*.

(ب) وفى اللغة اليونانية يراد به "الأساس الذى يستقر عليه الشئ" أو "الجوهر الذى يجعل لهذا الشئ كيانه ووجوده"، كما يراد به "العقد الذى يثبت الملكية". ومن ثم يكون الإيمان بالمسيح هو الأساس الروحى الذى يستقر عليه خلاص المسيح فى النفس. وهو الجوهر الذى يجعل لهذا الخلاص كياناً خاصاً فيها، وهو الوثيقة التى تؤكد لها ملكيتها للخلاص وأحقيتها فى التمتع به، كما يتمتع المالك بملكه الخاص الذى وضع يده عليه شرعاً وفعلاً **.

(جـ) وبالإضافة إلى دلالة الإيمان على الثقة، فى كل من اللغة العربية والإنجليزية، فإنه يراد به فى الأولى "الأمن"، وفى الثانية "الأمانة". ومن ثم يكون المؤمن شخصاً يعيش فى سلام واطمئنان مع الله، كما يكون شخصاً أميناً مخلصاً لله تعالى، وهذان المعنيان يردان فى الكتاب المقدس ليس تعريفاً للإيمان بل نتيجة له. فقد قال الوحى «إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا» (أشعياء ٧:٩)، كما قال عن غير المؤمنين إنهم أشخاص لا أمانة فيهم (تثنية ٣٢:٤).

٢ ـ معنى الإيمان من بعض النواحى العلمية والفلسفية :

(ا) وإذا استعرنا لغة علم النفس، يكون إيمان الخلاص هو استجابة "العقل الباطن(٧)" للإعلان الإلهى أن الخلاص قد تم بواسطة المسيح، ثم اطمئنانه لهذا الإعلان، وامتلاكه للخلاص المذكور مع البركات المترتبة عليه ـ وهذه الأعمال الباطنية الثلاثة (أى الاستجابة والإطمئنان والامتلاك) تكون طبعاً بموافقة "العقل الواعى(٨)"، لأن الإيمان المسيحى ليس هو الثقة بأمور وهمية أو مجهولة، بل بأمور حقيقية معروفة.

(ب) وإذا استعرنا لغة العلوم الطبيعية، يكون إيمان الخلاص هو استقبال النفس لخلاص الله الذى عمله فى المسيح، ثم حصولها عليه مع البركات السابق ذكرها، كما يستقبل السالب قوة الموجب ويحصل عليها. أو يكون هذا الإيمان هو تفاعل النفس مع الخلاص المذكور وتشبعها به، تشبعاً يجعله (مع البركات المترتبة عليه) جزءاً لا يتجزأ من كيانها.

(جـ) وإذا استعرنا لغتى الصوفية والوجودية الروحية، يكون إيمان الخلاص هو اختراق النفس للحجاب (٩) واتصالها بالله، ثم حصولها منه على الخلاص المذكور مع البركات المترتبة عليه، بدرجة تجعلها تختبر هذه البركات وتتمتع عملياً بها. وقد أشار إلى هذه الحقيقة كثير من الفلاسفة

---

* Happy Christian. P. 50

** تفسير العبرانيين للكانون جاردنر ص ١٢٢.

والمتصوفين، فقال القديس يوحنا المتصوف الأسبانى" إن الإيمان هو اتصال النفس بالله واتحادها به". وقال كير كجارد فيلسوف الوجودية الروحية "الإيمان هو إماتة النفس العتيقة أو (أنا) المادية المتمردة، ثم بعث هذه النفس فى (أنا) روحية جديدة، تكون مقترنة بالله اقتراناً تاماً". وقال برجسون الفيلسوف المشهور "الإيمان هو عمل النفس الفاعلة بذاتها، والمنفعلة مع الله فى حالة الإنسجام الكلى معه. وهو وثبة ترقى بالنفس إلى مجال فسيح الأرجاء، كما أنه انجذاب نحو عالم أفضل يجعل النفس لا ترى إلا عظائم الأمور". وقال غيره "إن أول الإيمان لقاء مع الله، وآخره لقاء مع الله".

٣ - معنى الإيمان من الناحية المسيحية :

والإيمان بلغة المسيحية هو :

أولاً: عودة الإنسان إلى حالة الطفولة التى تتجلى فيها النفس ببراءتها وصفائها، ثم تصديقه وهو فى هذه الحالة «ما قام به المسيح من خلاص وما يعطيه من بركات»، تصديق الأطفال الذى لا يشوبه شك أو ريب. ولذلك قال المسيح «الحق الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات» (متى ١٨: ٣٠).

ثانياً: قبول المسيح فى النفس، فقد قال الوحى «وأما الذين قبلوه، فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه» (يوحنا ١:١٢). وقبول المسيح لا يراد به فقط قبول عقيدة الخلاص الذى عمله المسيح على الصليب، بل وأيضاً قبول شخصه بحالة روحية فى أعماق النفس كما ذكرنا.

ثالثاً: الاعتماد على المسيح أو بالحرى راحة القلب والعقل عليه. فقد قال النبى لله «يا مخلص جميع المتكلين عليك» (مزمور ١٧:٧). وقال أيضاً «يفرح جميع المتكلين عليك إلى الأبد» (مزمور ٥:١١). وأيضاً «الرب فادى نفوس عبيده، وكل من اتكل عليه لا يعاقب» (مزمور ٣٤:٢٢).

٤ - مميزات الإيمان الحقيقى :

مما تقدم يتضح لنا أن الإيمان الحقيقى ليس مجرد الاعتراف بالمسيح أو مجرد تصديق رسالته كحقيقة أعلنها الوحى وأيدها الاختبار، لأنه إن وقف إيمان إنسان عند هذا الحد يكون إيمانه عقلياً فحسب. والإيمان العقلى، وإن كان ينشئ فى النفس اقتناعاً بحقيقة الخلاص، لكنه لا يهيئ لها سبيل الإفادة منه. فمثل الإيمان العقلى والحالة هذه مثل اقتناع الأعمى بجمال الطبيعة، فإنه وإن كان يعطيه صورة ذهنية عن هذا الجمال، لكنه لا يهيئ له السبيل للتمتع العملى به. وقد أعلن الوحى عن عدم فائدة هذا النوع من الإيمان، فقال عن الشياطين إنهم يؤمنون ويقشعرون* (يعقوب ٣:١١)، ومع ذلك لا خلاص لهم على الإطلاق. كما أن القيام بالصلاة والصوم والصدقة ليس دليلاً على وجود الإيمان

* أما البشر عندما يؤمنون، فإنهم يبتهجون ويفرحون.

الحقيقى، إذ من الجائز أن يقوم إنسان بالعملين الأولين بدافع من الغريزة الدينية وحدها، وبالعمل الثالث بدافع من الشفقة الطبيعية دون غيرها، ويكون فى نفس الوقت بعيداً بقلبه عن الله كل البعد.

فالإيمان الحقيقى هو عمل باطنى يشغل قوى النفس كلها، لأن العقل الواعى يصدق المسيح، والإرادة تقبله، والعواطف تتأثر به، والعقل الباطن يستريح إليه ويفيد منه، وبذلك تولد النفس ولادة روحية تحصل بها على حياة جديدة تهيئها لمعرفة الله والتوافق معه والسلوك حسب مشيئته. وقد أشار الأستاذ ك. سامبسون إلى هذه الحقيقة فقال "إن الإيمان لا يتم بواسطة العقل فقط، بل بواسطة النفس بأسرها. ومن ثم فإنه يشبع كل احتياجاتنا". كما قال "إن الوجدان السليم يشترك مع العقل فى الإيمان كل الإشتراك". وقال شلر "إن البرهنة على صدق أمر، تختلف كل الاختلاف عن الإيمان (الحقيقى) به. ولذلك لكى نحيا حياة مستقيمة يجب أن لا نسلم فقط بأن العقيدة الفلانية قد قامت عليها أدلة صادقة، بل أن نصدق أولاً هذه الحقيقة وبعد ذلك أن نحياها بالإيمان" - ولا غرابة فى ذلك، فهناك أشخاص يبذلون كل جهدهم فى البرهنة على وجود الله، بينما تكون قلوبهم بعيدة عنه كل البعد.

*

ثانياً : أهمية الإيمان

١ ـ أهمية الإيمان :

إذا رجعنا إلى حياة المسيح على الأرض، نرى أن الإيمان كان يشغل جانباً كبيراً من تعليمه. فكان يقول لسامعيه «كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» (مرقس ١١:٢٤). و «كل شئ مستطاع للمؤمن» (مرقس ٩:٢٣). و «ليكن لكم إيمان بالله» (مرقس ١١:٢٣). و «لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك* فينتقل، ولا يكون شئ غير ممكن لديكم» (متى ١٧:٢٠). ومن ثم كان، بسبب محبته الشديدة فى الإحسان إلى الناس، يحرضهم على الإيمان به، حتى ينالوا ما يحتاجون إليه من عطاياه. فمرة استدعوه لشفاء فتاة، ولما وجد أنها فارقت الحياة، قال لوالدها «لا تخف. آمن فقط فهى تشفى»، ولما آمن شُفيت (لوقا ٨:٥٠). وعندما أتاه رجل يشكو من مرض فى ابنه قائلاً له «إن كنت تستطيع شيئاً فتحنن علينا»، أجابه المسيح على الفور «إن كنت تستطيع أن تؤمن. كل شئ مستطاع للمؤمن». فلما وجد الرجل أن العيب فيه، صرخ فى الحال بدموع قائلاً «أؤمن ياسيد، فأعن عدم إيمانى». وفى الحال شُفى ابنه من مرضه (مرقس ٩:٣ ، ٢٣:٢٨).

---

* يراد بالجبل الصعوبات التى تعترضنا فى الحياة.

وكان للإيمان كل الأهمية لدى المسيح ليس فى عمل المعجزات فحسب، بل وأيضاً فى منح الغفران للخطاة النادمين على خطاياهم. فالمرأة الخاطئة التى ندمت على خطاياها قال المسيح لها : «مغفورة لك خطاياك. إيمانك قد خلصك. اذهبى بسلام» (لوقا ٧:٥٠). والمفلوج الذى أتى به حاملوه إلى المسيح، غفر له خطاياه وشفاه من أجل إيمانهم (لوقا ١٧:١٩).

٢ ـ السبب فى أهمية الإيمان :

إن السبب فى أهمية الإيمان يرجع إلى عاملين رئيسيين : الأول ـ إن الإيمان كما مرّ بنا هو فتح أبواب النفس لله وتهيئتها لقبول عطاياه، أو بتعبير آخر هو الجو الروحى الذى يتناسب مع طبيعة الله، وكيفية تداخله فى مساعدة الناس. لذلك ففى هذا الجو وفيه وحده، تجرى عطاياه إليهم. والثانى ـ إن الإيمان كما مرّ بنا هو التصديق، ومن ثم فمن يؤمن بأقوال الله، فإنه يصدق الله، ومن لا يؤمن بها فإنه ، بكل أسف، يُكذّب الله. فقد قال الوحى «ومن لا يصدق الله فقد جعله كاذباً» (١يوحنا ٥:١٠)، ومن يكذب الله لا يمكن أن يجد خيراً من الله. ومن ثم لا عجب إذا كان الله لا يهب الخلاص إلا للذين يؤمنون إيماناً حقيقياً.

٣ ـ الإيمان وعلاقته بالعقل :

يظن بعض الناس أن المسيحيين يؤمنون بعقائدهم دون بحث أو تفكير. لكن هذا الظن لا نصيب له من الصواب، فقد اتضح لنا مما سلف أنه لو كان هناك خلاص من قصاص الخطيئة، لا يمكن أن يتأتى إلا بواسطة الفداء الذى عمله الله لأجلنا فى المسيح، وأنه لو كان هناك مجال للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، لا يمكن أن يتأتى إلا بواسطة الحياة الروحية التى يهبها الله لنا فى نفوسنا ـ حقاً إن هذين الأمرين يسموان فوق العقل، لكنهما لا يتعارضان معه على الإطلاق، إذ أنه يستطيع البرهنة على صدقهما منطقياً، كما يرى نتائجهما عملياً.

وقد اختبر هذه الحقيقة كثير من العلماء والمفكرين فقال شلر "إننا حينما نلجأ إلى الإيمان، لا نلجأ إلى أمر يسلب العقل عمله، بل إلى ما يجعل العقل أكثر تفكيراً وأعظم تأثيراً". كما قال "الإيمان ليس عملاً عقلياً عادياً، لأنه يتطلب مقداراً كبيراً من الإرادة والاختبار. وما الغرض من الفلسفة النظرية إلا أن تجعل الثورة الفكرية التى تحدث فى عقل الإنسان، إيماناً راسخاً. إذ أن المعرفة وحدها لا تجدى إذا كانت مجردة من الإيمان"، وقال همرشولد "كنت فى أول الأمر لا أفهم المسيحية، ولذلك كنت أقاومها فى نفسى من وقت لآخر. لكن عندما أدركتها، أصبحت أعتز بها أكثر من أى شئ فى الوجود، كما أصبح فى وسعى البرهنة على صدقها دون أن أتجاوز مطالب الأمانة الفكرية".

ومع كل، وإن سما خلاص المسيح فوق العقل الواعى، فالعقل الباطن يستطيع أن يدركه كل

الإدراك، ويطمئن له كل الإطمئنان، بل ويستطيع أن يجابه اعتراض العقل الواعى من جهته إن كان له اعتراض، ويقهر حجته إن كانت له حجة. إذا أن الحقائق الروحية التى يختبرها العقل الباطن بناء على أقوال الله، هى أثبت وأرسخ من حجج العقل الواعى جميعاً. لأن هذا العقل مع ما وصل إليه من نضوج ورقى، لا يزال يجهل الكثير حتى من أمور الدنيا التى تقع تحت إدراكه وإحساسه.



(٢)

السبيل إلى الإيمان ودلائله

أولاً : السبيل إلى الإيمان

إن الإيمان الحقيقى قد يتم فى لحظة وقد يستغرق وقتاً طويلاً، لكن على أى حال يجب أن تتوافر الشروط الآتية فى كل من يريد أن يكون مؤمناً حقيقياً :

١ ـ الرغبة الخالصة فى الحصول على الخلاص :

وهذه الرغبة تتطلب من المرء أن يكون كارهاً للخطيئة وشاعراً بشناعتها وخطورتها، وموقناً باستحقاقه للحرمان من الله إلى الأبد بسببها، ولذلك ليس كل من يقول بفمه «ارحمنى اللهم أنا الخاطئ»، يحصل على الخلاص، لأن العبرة ليست بالكلام بل بالحالة التى تكون عليها النفس. فالمرأة الخاطئة لم تخلص إلا بعد أن أحسّت بثقل خطاياها والتجأت إلى المسيح بكل قلبها (لوقا ٧:٣٦ ـ ٥٠)، وزكا لم يخلص إلا بعد أن أحسّ بحاجته إلى المسيح أكثر من المال (لوقا ١٩:١ـ ١٧). واللص لم يدخل الفردوس إلا بعد أن أدرك فى نفسه أنه لا يستحق سوى الهلاك، وأنه لا خلاص له إلا بواسطة المسيح (لوقا ٢٣:٤٣). والذين آمنوا من اليهود فى العصر الرسولى لم يتيسر لهم ذلك إلا بعد أن نُخسوا فى قلوبهم، وشعروا شعوراً عميقاً بشناعة جريمتهم التى اقترفوها ضد المسيح، وآمنوا بعد ذلك من كل قلوبهم بشخصه الكريم (أعمال ٢:٣٧ ـ ٤١).

٢ ـ التوبة عن الخطية :

كما أن الشعور بشناعة الخطية يجب أن يكون مقروناً بالتوبة عنها (أو على الأقل بالرغبة الصادقة فى هذه التوبة)، وإلا فلا فائدة من هذا الشعور على الإطلاق. ولا يراد بالتوبة الندم على

ارتكاب الخطيئة فحسب، بل والتحول عنها والرجوع إلى الله أيضاً. فقد قال الوحى : إن الله يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا وأن يرجعوا إليه عاملين أعمالاً تليق بالتوبة (أعمال ١٧ : ٣٠ ، ٢٦ : ٢٠). وإذا تعذر على إنسان أمر التوبة، فليعلم أن الله على استعداد لمساعدته على بلوغها، إذا كان راغباً فى التحول عن الخطيئة من كل قلبه. فمكتوب أنه تعالى «يعطى التوبة» (أعمال ٥ : ٣١ ، ١١ : ١٨)، ولذلك صرخ أحدهم لله قائلاً «توّبنى فأتوب» (إر ميا ٣١ : ٨)، فأعطاه التوبة.

٣ - الاتجاه إلى المسيح :

إن الندم على ارتكاب الخطيئة والتوبة عنها أمران هامان، لكنهما لا يخلصان من دينونة الخطيئة أو من سلطانها الخفى على النفس، لأن الذى يخلص من هذين معاً هو المسيح دون سواه. لذلك على المرء أن لا يقف عند حد الندم على الخطيئة والتوبة عنها، بل أن يتجه بكل قلبه إلى المسيح، الذى أحبه ومات على الصليب كفارة عنه، فيفيد منه مثلما أفاد بطرس وبولس (إن كان مثلهما متديناً)، أو مثلما أفادت المرأة الخاطئة والعشار (إن كان مثلهما مستبيحاً)، لأن خلاص المسيح ليس لفئة خاصة من الناس، بل لكل الناس دون استثناء. فقد قال الوحى عن المسيح إنه ذاق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد (عبرانيين ٢ : ٩). وإنه كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً (١يوحنا ٢ : ٢).

٤ - قبول المسيح فى النفس :

أما وقد توافر لدى طالب الخلاص أن الله يحبه بصفة شخصية، وأن المسيح مات نيابة عنه يالذات مكفراً عن كل خطاياه مثل غيره من الناس، فعليه أن يتجاوب مع المسيح ويقبله بالروح مخلصاً لنفسه وحياة لها، فيصبح الخلاص للتو ملكاً له. ومن ثم له أن يفرح ما شاء له الفرح، وأن يطمئن ما شاء له الإطمئنان. فقد أصبح من هذه اللحظة مبرراً أمام الله، بل ومن أولاده المحبوبين الذين لهم السلام والفرح الكاملين معه، والذين لا يمكن أن يأتوا إلى دينونة بل قد انتقلوا من الموت إلى الحياة.

*

ثانياً : دلائل إيمان الخلاص

طبعاً ليس كل من يقول إنه مؤمن حقيقى هو كذلك، لأنه كما يخدع الإنسان غيره قد يخدع أيضاً نفسه. لذلك لم يتركنا الوحى فى ريب من جهة هذا الموضوع بل سجل لنا دلائل الإيمان الحقيقى بكل وضوح وجلاء، وأهم هذه الدلائل ما يأتى :

١ ـ المحبة لله والتعبد له :

هذه هى أولى العلامات التى تدل على الإيمان الحقيقى. فقد قال بولس الرسول عنه إنه «الإيمان العامل بالمحبة» (غلاطية ٥:٦)، وقال يوحنا الرسول : «نحن نحب الله لأنه هو أحبنا أولاً» (١يوحنا ٤:١٩). وقال بولس الرسول «لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا» (رومية ٥:٥). وقال أيضاً «لأن محبة المسيح تحصرنا» (٢كورنثوس ٥:١٤).

وهذه المحبة تقود المؤمن الحقيقى للإتيان إلى الله من وقت لآخر لكى يسكب قلبه أمامه تعبداً وسجوداً، ويصوغ له بتأثير الروح القدس فى نفسه حمداً وشكراً كثيراً. وإن كان أمياً لا يستطيع التعبير عن آرائه فى كثير من المسائل العامة، لكن عندما يضع قلبه تحت تأثير الروح القدس، تنبعث منه معان سامية يعجز عن صياغة مثلها كاتب ماهر.

٢ ـ الصلاة :

وبجانب العبادة والسجود، فالمؤمن رجل صلاة *، وهو يصلى ليس لإله مجهول فى عالم الخيال أو الفكر، أو لإله فى مكان قصى لا يمكن الاتصال الحقيقى به (كما هى عند كثير من الناس)، بل يصلى لإله حقيقى يعرفه حق المعرفة، ويمكنه الاتصال به بالروح اتصالاً فعلياً. كما أن الصلاة لديه ليست عادة يقوم بها بطريقة آلية، أو مجرد فرض يقوم به كما يقوم العبد بواجب نحو سيده، بل إنها مهمة حيوية لا يستطيع الاستغناء عنها بحال. فهى كما ذكرنا فيما سلف مثل الهواء بالنسبة إلى رئتيه، والطعام بالنسبة إلى جوفه. فضلاً عن ذلك فإنه يجد فى الصلاة متعة روحية فائقة، إذ فيها يناجى

* العبادة هى تقديم الإكرام والسجود لله لما يتصف به تعالى من سجايا مثل المحبة والقداسة والقدرة والعلم بدرجة لا حد لها. أما الصلاة فهى طلب ما نحتاج إليه منه فى هذه الحياة. لذلك فالعابد يقدم شيئاً لله، أما المصلى فيطلب شيئاً منه سواء أكان هذا الشئ روحياً أم مادياً ومن ثم فالعابد (إن جازت المقارنة) أسمى حالاً من المصلى.

الله ذاته، ومن ثم يقضى الأوقات الطويلة فيها. وإذا استلزم الأمر فإنه يضحى عن طيب ببعض أعماله وأوقات راحته الخاصة، فى سبيل إطالة فرص الصلاة، وذلك لأجل نفسه ونفوس الآخرين، وقبل كل شئ لأجل مجد الله وإكرامه (١تيموثاوس ٢: ١ ، أفسس ٦: ١٨).

٣ ـ دراسة كلمة الله :

والمؤمن الحقيقى يدرس كلمة الله ليس كمجرد واجب من الواجبات، أو لكى يعرفها ويلم بها كموضوع من الموضوعات، بل قبل كل شئ لأنه يستمع فيها لصوته تعالى، كما يجد فيها طعاماً شهياً لنفسه. ولذلك يدرسها بشغف وفهم ويسعى للهج فيها كثيراً. ومن ثم فهو صديق مخلص لكتاب الله، تربطه به علاقة حية وصلة قوية، لأنه يفهمه ويعرفه ويدأب على الرجوع إليه من وقت إلى آخر. حتى يتشبع به ويسير على هداه.

٤ ـ السلوك السماوى :

ولتأثره بكلمة الله لا يحصر نظره فى الأمور الزائلة التى تُرى، بل فى الأمور الباقية التى لا تُرى. ومن ثم يحفظ نفسه فى دائرة السماويات، فى حالة القداسة اللائقة بالله، كما يسعى دائماً أبداً لتنفيذ إرادته مهما كان شأنها. ولذلك لا ينطق بعبارة نابية أو يلجأ إلى الهزل والمزاح، أو يتصرف فى شئ بنزق وطياشة، بل تكون كل أقواله بنعمة وحكمة، وكل أعماله بتعقل واتزان (أفسس ٥: ٤ و ١٥ ، تيطس ٢: ٧). وإن سقط فى خطيئة مرة لسبب من الأسباب، لا يمكن أن يظل فيها طويلاً (لأنها تتعارض مع الطبيعة الروحية الجديدة التى نالها من الله) بل ينهض للتو منها، مسلماً حياته لله بأكثر تدقيق حتى يحفظه من كل عثرة وزلل.

٥ ـ المحبة لجميع الناس :

ولتأثره بالله وتشبعه بكلمته يتصف أيضاً بالكثير من صفات الله، وفى مقدمتها المحبة. ومن ثم فإنه يحب جميع الناس حتى الذين يسيئون إليه منهم مثلما يفعل الله (متى ٥: ٤٣)، كما يحب من قلب طاهر بشدة كل المؤمنين الحقيقيين (١بطرس ١: ٢٢)، مهما اختلفت طوائفهم أو مراكزهم الاجتماعية، لأنه يعرف أن له ولهم أباً واحداً هو الله (١يوحنا ٥: ٣)، ومخلصاً واحداً هو المسيح (أعمال ٤: ١٢)، كما سكن فيه وفيهم روح واحد هو الروح القدس (١كورنثوس ٣: ١٦).

كما يبذل كل ما لديه من جهد فى إعلان نعمة الله المعطاة للخطاة، وذلك بالصلاة لأجلهم أو التحدث معهم، حتى يفيد منها من يريد الفائدة. كما يمد يده إلى كل معوز ومحتاج، وهو لا يرجو من وراء ذلك جزاء أو ثواباً، إذ يكفيه شرفاً وسروراً أن يعمل عملاً لأجل مجد الله الذى أحبه إلى المنتهى الذى لا نهاية له.

٦ ـ الثقة الكاملة من جهة امتلاك الخلاص :

أخيراً نقول : إن المؤمن الحقيقى لا يتسرب إليه شك من جهة كفاية كفارة المسيح، بل يوقن أنها رفعت عن كاهله قصاص خطاياه وجعلته مقبولاً أمام الله، ولذلك يستطيع أن يقول مع الرسول «إنى متيقن أنه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا علو ولا عمق ولا خليقة أخرى، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله (لنا) التى فى المسيح يسوع ربنا» (رومية ٨:٣٨و ٣٩)، وأن يقول أيضاً معه «لأنى عالم بمن آمنت، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتى (أى نفسى المستودعة بين يديه) إلى ذلك اليوم» (٢تيموثاوس ١:٢). «لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضى (أى أجسادنا المادية)، فلنا فى السماء بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى» (٢كورنثوس ٥:١ و ٢). و «الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذا أظهر (المسيح)، نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١يوحنا ٣:١ ـ ٣).

والحق أننا مهما جلنا بأبصارنا فى عقائد البشر وفلسفاتهم، لا يمكن أن نجد فيها ما يبعث إلينا يقيناً من جهة محبة الله لنا وقبوله إيانا إلى الأبد، مثل اليقين الذى يبعثه المسيح. لأنه يبعث هذا اليقين إلينا ليس بناء على وعود عاطفية مجردة أو أقوال أخاذة منمقة، بل بناء على كفارته الكاملة التى وفّت كل مطالب عدالة الله وقداسته. ومن ثم فكل مؤمن حقيقى يستطيع عن يقين صادق أن يستحضر أمامه المستقبل المجيد الذى أصبح ملكاً له على أساس كفارة المسيح، وأن يدخل أيضاً فى هذا المستقبل بقلبه ويستريح فى أرجائه، شاكراً الله من أجل محبته التى تفوق كل محبة، وجوده الذى يفوق كل جود، وحكمته التى تفوق كل حكمة. فقد قال الرسول «شاكرين الآب الذى أهلنا لشركة ميراث القديسين فى النور. الذى أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته. الذى لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا» (كولوسى ١:١٢ ـ ١٤). كما قال «وأقامنا (الآب) معاً وأجلسنا معاً فى السماويات فى المسيح ليظهر فى الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا فى المسيح يسوع» (أفسس ٢:٦ و ٧).



الباب الثامن

كفارة المسيح فى نظر الفلاسفة والعلماء

- آراء الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالحق
- آراء الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالإسم، والرد عليها
- الاعتراضات الدينية والرد عليها
- الاعتراضات العقلانية والفلسفية، والرد عليها

(١)

آراء الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالحق*

إن كفارة المسيح لم يدرسها رجال الدين المسيحى فحسب، بل درسها أيضاً كثير من الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالحق، فعرفوا أهميتها الواردة فى الكتاب المقدس، كما اختبروا نتائجها المباركة فى نفوسهم اختباراً صادقاً، وفيما يلى بعض آراء هؤلاء الفلاسفة والعلماء :

١ - **قال اكليمنضس** : "لنتأمل دم المسيح ولنعرف قيمته التى تفوق كل قيمة، فإنه ليس مثل دم الشهداء الذين يموتون من أجل الدفاع عن الحق (وإن كان دم هؤلاء غالياً وثميناً فى أعيننا)، بل إنه دم المحبة الإلهية المعروف قبل إنشاء العالم، للتكفير عن خطايانا جميعاً".

٢ - **وقال إيريناوس** : "غاية الكفارة هى إيفاء مطالب العدل الإلهى نيابة عنا، والمسيح بموته على الصليب، وفّى هذه المطالب، ومن ثم كفّر عن خطايانا إلى الأبد".

٣ - **وقال اقليمس** : "إن المسيح تحمل آلام الخطيئة عوضاً عنا، وبذلك خلصنا منها إلى الأبد".

٤ - **وقال أغناطيوس** : "ونحن نؤمن أن المسيح مات عوضاً عنا من جهة الناسوت، لكنه لم يمت من جهة اللاهوت. لأن اللاهوت غير قابل للموت".

٥ - **وقال بابياس** : "إن اللوغوس** الذى خلقنا لم يتركنا وشأننا عندما أخطأنا، بل أتى إلى عالمنا وخلصنا من خطايانا".

٦ - **وقال أوريجانوس** : "الله عادل، والعادل لا يبرر الخطاة إلا إذا وُفيت مطالب عدالته. وبما

---

* عن الكتب الآتية : (١) تاريخ الآباء فى القرون الثلاثة الأولى. (٢) تاريخ الكنيسة لغاية القرن العشرين. (٣) الفلسفة الحديثة (٤) The Glory of the Cross

** «اللوغوس» كلمة يونانية يراد بها "العقل المدبر للكون"، وهى مرادفة فى المسيحية لأقنوم الابن أو الكلمة، الذى يعبر عن الله ويعلنه، والذى خلق العالم ويدبره (١يوحنا ١:٣ ، كولوسى ١:١٦).

أنه لا يمكن أن يقوم بهذه المهمة سواه، لأنه هو وحده الذى يعرف مطالب عدالته. لذلك رضى أن يحل فى المسيح ليقوم بالمهمة المذكورة، حتى يبرر كل خاطئ يؤمن به إيماناً حقيقياً".

٧ ـ **وقال أثناسيوس** : "الكلمة (أو بالحرى المسيح) أتى إلى العالم ليس لكى يهلك الناس، بل لكى يخلصهم من خطاياهم، وذلك بتحمله فى نفسه الدينونة التى يستحقونها بسبب هذه الخطايا".

٨ ـ **وقال أنسلموس** (مخاطباً المسيح) : "ماذا فعلت يا يسوع، يا أبرع جمالاً من كل بنى البشر، حتى تموت موت الأثمة المجرمين!! أنت لم تفعل خطيئة على الإطلاق حتى تستحق الموت بسببها، لكنك قبلت الموت بسبب خطاياى وخطايا غيرى من الناس".

٩ ـ **وقال القديس أوغسطينوس** : "الخطيئة هى خطيئتنا، وقصاصها كان يجب أن يحل بنا، لكن المسيح حمل هذا القصاص عوضاً عنا، وبذلك اعتقنا منه إلى الأبد".

١٠ ـ **وقال القديس برنار** : "المسيح وفّى مطالب العدل الإلهى نيابة عنا، حتى ننال الصفح والغفران ونكون أهلاً للقبول أمام الله. لذلك فغاية فلسفتى هى أن أعرف يسوع المسيح وإياه مصلوباً، لأن الصليب هو نقطة التقابل بيننا وبين الله، فى حب متبادل يدوم إلى الأبد".

١١ ـ **وقال بطرس اللمباردى** : "المسيح قدّم نفسه لله كفارة عن خطايانا، حتى لا يدان كل من يؤمن به إيماناً حقيقياً".

١٢ ـ **وقال توما الأكوينى** : "لا يستطيع إيفاء مطالب عدالة الله إلا الله، ومن ثم حل فى المسيح للقيام بهذه المهمة العظيمة". كما قال "إن كفارة المسيح أزالت الخطيئة التى كانت تفصل بيننا وبين الله، لذلك صار لنا امتياز الدنو منه والتمتع به".

١٣ ـ **وقال دكتور كلى كران** : "السبب الذى جعلنى أعتنق المسيحية هو موت المسيح كفارة عن خطاياى. فقد أدركت منذ سنوات أنى إنسان خاطئ، وأنه ليس فى وسعى أن أتبرر أمام الله بأى عمل من الأعمال الصالحة التى أقوم بها، ولذلك كان يتملكنى الأسى والحزن كثيراً. لكن لما تحققت أن المسيح مات نيابة عنى، حاملاً القصاص الذى استحقه بسبب خطاياى، استراحت نفسى وامتلأت فرحاً وسلاماً".

١٤ ـ **وقال القديس فرنسيس** : "ربى يسوع المسيح! إنى ألتمس منك أن تهبنى نعمتين قبل أن أموت. الأولى : أن أشعر فى نفسى بالآلام التى قاسيتها على الصليب عوضاً عنى، حتى أكره الخطيئة مهما كان شأنها. والثانية : أن أشعر فى نفسى بالمحبة العجيبة التى اضطرمت فى قلبك من نحو شخص نظيرى، حتى أحبك كما أحببتنى".

١٥ - **وقال الرئيس جون كرتز** : " المسيح المصلوب يشفى القلب الجريح ويريح الضمير المعذب، لأنه يرفع عن المؤمن دينونة الخطيئة ويهيئه للدنو من الله والتمتع به".

١٦ - **وقال فورست** : " الآلام التى قاساها المسيح على الصليب هى أقسى أنواع الآلام، لأنها ذات الآلام التى كنا نستحقها فى جهنم إلى الأبد بسبب خطايانا . فلنضع هذه الحقيقة أمام نفوسنا ، وليكن لها التأثير العملى فى حياتنا".

١٧ - **وقال تيللور** : "الله هو الذى خلقنا ، والذى خلقنا لا يمكن أن يهملنا. لذلك كان من البديهى أن يتنازل ويخلصنا من الخطيئة التى سقطنا فيها ـ وهذا هو ما فعله فى المسيح على الصليب".

١٨ - **وقال جون سكوت** : "الكلمة (أو بالحرى المسيح) هو الوسيط بين الله وبيننا ، لذلك فهو وحده الذى يستطيع أن يصالحنا مع الله، وقد قام بهذا العمل عندما وفّى فى نفسه على الصليب مطالب عدالة الله، عوضاً عنا".

١٩ - **وقال روبرت برونيز** : "إن حقيقة ظهور الله فى المسيح لخلاص البشرية وإنقاذها من بؤسها ، تحل كل المشاكل التى تعترضنا من جهة موقف الله إزاء خطايانا ، وقصورنا عن التوافق معه، كما تفسر لنا كل رموز التوراة وتحقق كل نبواتها . إذ لولا الحقيقة المذكورة لكنا نشك فى كمال الله ومحبته، ولكانت رموز ونبوات العهد القديم بلا معنى على الإطلاق".

*

وإننا لا نأتى بهذه الآراء كحجة نعتمد عليها فى أن المسيح مات كفارة عن خطايانا ، كلا. لأن حجتنا فى هذا الموضوع، وفى غيره من الموضوعات، هى كلمة الوحى التى بين أيدينا. وهذه الكلمة قد ثبت لنا صدقها بالكثير من الأدلة التاريخية والعقلية* والاختبارية أيضاً. إنما نأتى بالآراء المذكورة لكى نعلن أن الإنسان عندما يفحص أعماق نفسه، يدرك أنه خاطئ وأنه لا يتسنى له من تلقاء نفسه أن يكفر عن خطاياه أو يتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، ومن ثم لابد أن ينتهى إلى أن الله وحده هو الذى يستطيع القيام بالكفارة، وهو وحده الذى يستطيع أن يهب الحياة الروحية اللازمة لهذا التوافق.



* تحدثنا عن هذا الموضوع بشئ من التفصيل فى كتاب "إنجيل برنابا ـ فى ضوء الوحى والعقل والتاريخ".

(٢)

آراء الفلاسفة والعلماء المسيحيين بالإسم*، والرد عليها

هؤلاء الفلاسفة والعلماء يختلفون عن السابق ذكرهم، فهم لم يفهموا المسيحية كما هى معلنة فى الكتاب المقدس، بل فهموها تبعاً لما أملته عليهم تصوراتهم الشخصية، ولذلك تعددت آراؤهم وتضاربت كثيراً. وفيما يلى هذه الآراء مصحوبة بالرد عليها :

١ ـ إن خلاص المسيح لنا لا يتوقف على موته على الصليب كما يقال، بل على تعاليمه السامية التى كشفت بحق عن ماهية الخطيئة، ومن ثم أصبح لنا أن نتجنبها فى كل صورة من صورها.

الرد : وإن كان المسيح قد كشف لنا فى تعاليمه السامية عن ماهية الخطيئة بدرجة لم نكن نتصورها، غير أن مجرد معرفتنا بذلك لا تعطينا القدرة على الخلاص من الخطيئة أو ترفع عنا النتائج المترتبة على السقوط فيها، بل بالعكس تزيدنا شعوراً بالحاجة إلى حياة إلهية تسمو بنا فوق قصورنا الذاتى، حتى نستطيع التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية. كما تزيدنا شعوراً بالحاجة إلى كفارة عظيمة تفى مطالب عدالة الله نيابة عنا، حتى تهدأ ضمائرنا وتطمئن من جهة علاقته بنا ـ ولا غرابة فى ذلك فإن معرفة المذنب بأنه يستحق القصاص، لا تنجيه منه، أو تؤهله للسلوك من تلقاء ذاته دون ارتكاب ذنب ما.

٢ ـ المسيح أظهر على الصليب محبته الشديدة لنا، لكى يحب بعضنا بعضاً كما أحبنا، وبذلك نخلص من الأنانية التى هى السبب فى كل الخطايا.

---

* عن المراجع السابق ذكرها مضاف إليها :

(١) Histroy of Doctrine, by Shedd

(٢) The Christian Faith, by Machen

(٣) The Fundamentals, by Philip Maruro

الرد : وإن كان موت المسيح في سبيل محبته لنا مثالاً عظيماً يدعونا لأن يحب بعضنا بعضاً، لكن ليس من المعقول أن يكون قد مات لأجل هذا الغرض، إذ أن فى حياته العادية التى كان يحياها بيننا ما يكفى لتعليمنا هذا الدرس الثمين. فضلاً عن ذلك فإن الخلاص من الأنانية وأضرارها المتعددة لا يكون بمحاولة الاقتداء بالمسيح (لأن القصور الذاتى الكامن فى طبيعتنا يحول بيننا وبين هذا الاقتداء)، بل أن هذا الخلاص يكون بالحصول على حياة روحية من شأنها أن ترفعنا لدرجة التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية. وهذه الحياة لا يعطينا الله إياها إلا بعد إزالة العداوة التى جعلناها بينه وبيننا، ولا سبيل لإزالة هذه العداوة إلا بالتكفير عن خطايانا كما ذكرنا فيما سلف.

٣ - المسيح رضى بالصليب لكى يرينا محبته لنا، حتى نحبه بدورنا. وفى سبيل محبتنا له نكره الخطيئة ونمقتها.

الرد : ليس من المعقول أن يكون هذا هو كل غرض المسيح من احتمال آلام الصلب الشنيعة، لأنه لم يكن ليتحملها لولا أنه رآنا معرضين لها وأراد هو أن ينقذنا منها. فالأب البار لا يضحى، مثلاً، بحياته من أجل أبنائه إلا إذا رآهم معرضين للموت، وأراد هو أن ينقذهم منه. أما إذا كانوا غير معرضين له، فإنه لا يضحى بحياته لكى يظهر فقط محبته لهم. كما أن المحبة لله والقدرة على الارتقاء فوق الخطيئة، لا تتولدان من مجرد المعرفة بأن المسيح يحبنا، بل بواسطة الولادة الثانية من الله، والدليل على ذلك أن المؤمنين بالاسم يعرفون أن المسيح يحبهم، ومع ذلك لا يستطيعون أن يحبوه أو يرتقوا فوق الخطيئة الكامنة فى طبيعتهم.

٤ - المسيح رضى بالصلب لكى يعلمنا أن السبيل إلى السماء هو التضحية بكل غال ونفيس.

الرد : إن المسيح لا يتحمل آلام الصلب لكى يكون مجرد مثال يبين لنا وجوب التضحية، لأنه علمنا هذا الدرس الثمين فى أقواله، كما علمنا إياه فى حياته المثالية التى عاشها بيننا على الأرض. فضلاً عن ذلك فإن التضحية بكل غال ونفيس فى الدنيا، لا تكون بمجرد التقليد، بل بالحصول على حياة روحية يكون من طبيعتها الإرتقاء فوق الذات بكل مطالبها. وهذه الحياة لا يمكن الحصول عليها إلا من الله، ولا يمكن أن يمنحها الله لنا إلا بعد التكفير التام عن خطايانا كما ذكرنا.

٥ - المسيح رضى بالصليب لكى يرينا كراهية الله للخطيئة وما يستحقه الخطاة من عذاب، حتى نتوب عنها.

الرد : إن التوبة عن الخطيئة (كما ذكرنا فى الباب الثانى) لا تكفى للحصول على الغفران أو

التأهيل لحياة التوافق مع الله، لأن السبيل الوحيد لذلك هو التكفير عن الخطيئة والحصول على حياة روحية تسمو بنا فوق قصورنا الذاتى. كما أنه ليس من المعقول إطلاقاً أن يقبل المسيح آلام الصلب لكى يكون مجرد مثال لما يستحقه الخطاة من عذاب، إذ أن فى أقواله وأقوال الأنبياء والرسل ما يكفى لإثبات هذه الحقيقة.

٦ ـ إن كفارة المسيح التى سترت خطايا البشر تكمن فى حياة البر المطلق التى عاشها على الأرض، والتى انتهت بتقديم نفسه شهيداً من أجل الحق. لأن هذه الحياة هى التى أرضت الله، فصفح عن البشر جميعاً.

الرد : حقاً إن المسيح عاش حياة البر المطلق، وحقاً إن هذه الحياة أرضت الله أكثر مما نفتكر أو نتصور. لكن يجب أن لا يغيب عنا أنه لو كان المسيح مات فقط شهيداً من أجل الحق، لكان الله يسر به وحده ويمجده وحده، ولكنا جميعاً نظل كما نحن فى خطايانا، عاجزين عن التوافق مع الله وواقعين تحت طائلة قصاصه. لكن إذا كان موت المسيح موتاً كفارياً (كما أعلن الكتاب المقدس)، فإن الله يصفح عن خطايانا ويهيئنا للتوافق معه.

٧ ـ إن المسيح بموته على الصليب لم يقم بإيفاء مطالب عدالة الله نيابة عنا، لأن هذه المطالب لا حد لها، بل إنه فقط استمال عطف الله حتى يغفر لنا خطايانا. ومن ثم فإن آلامه ليست عقوبة تعويضية، إنما هى تعويض عن العقوبة القانونية.

الرد : لو كان المسيح قام بالكفارة بمعزل عن الله لكان هناك مجال لهذا الاعتراض. لكن الأمر لم يكن كذلك، لأن الله نفسه كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه (٢كورنثوس ٥ :١٩)، والله لكماله وتوافق كل صفاته لا يكون متساهلاً فى شئ من مطالب عدالته.

٨ ـ المسيح رضى بالصلب كما رضى سقراط بالسم، لكى يكتب لنفسه الخلود وترسخ مبادئه السامية فى نفوس البشر.

الرد : (ا) إن جاز أن يقال عن سقراط إنه رضى بالسم لكى يكتب لنفسه الخلود، لا يجوز أن يقال ذلك عن المسيح من جهة قبوله للصلب، لأن المسيح كان بعيداً كل البعد عن مظاهر العظمة الدنيوية التى يسعى إليها كثير من الناس. والدليل على ذلك أننا إذا رجعنا إلى تاريخ حياته، نرى أنه لم يكن يعمل معجزة ليرضى الناس أو لتكون له الحظوى لديهم (لوقا ٢٣ :٨ ـ ١٠)، بل كان يقوم بها بدافع الشفقة على المرضى والمتألمين والمحتاجين، دون أن ينتظر من أحد مديحاً أو جزاء.

فضلاً عما تقدم فإن المسيح لم يكن يسعى إلى الخلود، لأنه كان يحمل (حتى من الناحية الإنسانية) دلائل الخلود فى نفسه بسبب كماله المطلق وتنزهه عن الخطيئة تنزهاً تاماً. أضف إلى ذلك

أنه لم يرغم على الصلب مثلما أُرغم سقراط على شُرب السم بل تقدم للصلب بمحض اختياره كما يتضح من يوحنا ١٠: ١٧ و ١٨.

(ب) أما من جهة رسوخ مبادئ المسيح فى نفوسنا، فلا يتحقق على الإطلاق بمجهودنا الذاتى تحت التأثر بصلبه، فكثيرين يتأثرون بالصليب لكنهم لا يعملون بشئ من وصايا المسيح، إذ أن العمل بها لا يتأتى إلا بواسطة الحياة الروحية التى يمنحنا الله إياها عندما نسلم نفوسنا له تسليماً كاملاً. فضلاً عن ذلك فإن رسوخ هذه المبادئ فى نفوسنا لا يخلصنا من قصاص خطايانا، لأنه لا خلاص لنا منه إلا بإيفاء مطالب عدالة الله وقداسته من نحونا، ولا سبيل إلى إيفائها إلا بالفداء الذى عمله المسيح، كما ذكرنا.

***

مما تقدم يتضح لنا أن أصحاب الآراء السابقة لم يفهموا شيئاً عن الكفارة وضرورتها، وكل ما عرفوه عن آلام المسيح على الصليب، أنها آلام الإستشهاد فى سبيل الحق. ولا شك أن هذه الآلام تؤثر فى نفوس بعض الناس، فتصرفهم (أو بالحرى تصرفهم إلى حين) عن الإثم والشر، كما تفعل التضحية التى يقوم بها المخلصون من القادة والزعماء. فمثلاً عندما كان غاندى يرى أتباعه قد انحرفوا عن تعاليمه، كان يحزن فى نفسه كثيراً، ويمتنع عن الطعام أمداً طويلاً. ولذلك كانوا يندمون على انحرافهم ويعودون للسير فى الطريق الذى رسمه لهم. وقد أشار أفلاطون قديماً إلى تأثير التضحية فى نفوس الناس فقال فى كتابه "السياسة جـ ٤ ص ٧٤" ما ملخصه "إن الإنسان الكامل الذى دون أن يفعل شراً، يقبل على نفسه أقسى أنواع الظلم، فيحتمل الجلد والضرب حتى الموت، هو الذى يستطيع أن يعيد حياة البر إلى البشر* ". لكن المسيح احتمل الصلب لغرض أسمى من هذا بكثير، هذا الغرض كما ذكرنا مراراً وتكراراً، هو التكفير عن خطايانا وإمدادنا بحياة روحية تؤهلنا للتوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية إلى أبد الآباد.



* إن البر الذى ارتآه أفلاطون ليس طبعاً هو التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية، بل هو فقط الكف عن الجرائم الشنيعة. وهذا ما يفعله حتى الأشرار، عند تأثرهم بوفاة أحد أقربائهم أو بنزول بعض الكوارث بهم. أما التوافق مع الله فى صفاته المذكورة، فلا يكون إلا بعمله فى نفوس المؤمنين الحقيقيين، كما اتضح لنا فيما سلف.

(٣)

الاعتراضات الدينية، والرد عليها

١ ـ لماذا تفرد الابن أو الكلمة بعمل الفداء؟ وألا يدل تفرده بالقيام به على أنه يحب البشر أكثر من الآب والروح القدس؟

الرد : (ا) إن «ابن الله» أو «كلمة الله» هو الذى يعلن الله ويتمم مقاصده، لذلك فهو الذى خلق العالم وكل ما فيه*، فقد قال الوحى عنه «كل شئ به كان وبغيره لم يكن شئ مما كان» (يوحنا ١ :٣)، وأن «فيه خُلق الكل**. ما فى السموات وما على الأرض»، وأن «الكل به وله قد خُلق» (كولوسى ١ :١٦). ومن خلق العالم، هو الذى يهتم شخصياً به وبكل ما فيه. ومن ثم فالابن أو الكلمة هو الذى كان يظهر للأنبياء فى العهد القديم، ليعلن لهم مشيئة الله أو اللاهوت من جهة محبته للبشر ورغبته فى تقريبهم إليه، ومنحهم كل ما يحتاجون إليه من بركات، كما ذكرنا فيما سلف. وإذا كان الأمر كذلك كان من البديهى أنه هو بعينه الذى يتجسد أيضاً، ويعلن فى نفسه محبة الله وخلاصه لنا من الخطيئة ونتائجها.

(ب) أما من جهة «الآب» و «الروح القدس»، فإن محبتهما لنا لا تقل عن محبة «الابن»، لأنهما واحد معه فى الجوهر، وفى كل الصفات والخصائص والأعمال، وكل ما فى الأمر أن كل أقنوم يظهر من أعمال اللاهوت ما يتوافق مع أقنوميته. لذلك وإن كان «الابن» هو الذى قام أمامنا بالفداء، غير أن هذا العمل يسند إلى الله بأقانيمه الثلاثة. فقد قال الوحى إن الله (أو بالحرى اللاهوت) كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم (٢كورنثوس ٥ :١٩ ـ ٢١). كما أن الابن وإن كان قد بذل نفسه (أفسس ١ :٢)، لكنه لم يقم بهذا العمل بالاستقلال عن الأقنومين الآخرين، لأنه

---

* وإن كان الخلق قد تم بواسطة «كلمة الله» أو «ابن الله» كما ذكرنا أعلاه، لكن نظراً لأنه غير منفصل عن الله، لذلك يسند الخلق أيضاً إلى الله. فقد قال الوحى «فى البدء خلق الله السموات والأرض» (تكوين ١ :١).

** أى أن موضوع «خلق الكل» كان فى ذاته قبل أن يظهر فى الوجود، وذلك كما يكون تصميم المنزل فى عقل المهندس، قبل أن يظهر على الأرض.

واحد معهما فى الجوهر. ولذلك يعلن الوحى أن الابن بُذل بواسطة الله (يوحنا ٣:١٦)، وأنه بالروح القدس قدم نفسه أو بذلها (عبرانيين ٩:١٤). ومما يثبت أن كلا من الآب والروح القدس يحبنا كالابن تماماً، أن الوحى أعلن لنا أن الآب نفسه يحبنا (يوحنا ١٧:٢٣)، وأن الروح القدس هو روح المحبة (٢تيموثاوس ١:٧)، وأن الله من جهة أقانيمه الثلاثة هو «محبة» (١يوحنا ٤:٨).

٢ - إذا كان الله لا يُصلَب ولا يموت، فكيف يكون هو الذى افتدانا؟

الرد : (ا) نظراً لأن الله (أو اللاهوت) كان حالاً فى المسيح حلولاً مطلقاً. فمكتوب «فإن فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا*» (كولوسى ٢:٩)، إذاً فكل عمل أتاه المسيح، يكون الله هو الذى أتاه، وكل شئ قُوبل المسيح به فى العالم، يكون الله هو الذى قُوبل به. ولذلك فالله وإن لم يكن قد صُلب أو مات، لكن بقبوله تنفيذ الصلب فى الناسوت الذى كان تعالى حالاً فيه (مع قدرته التامة على تجنيب الناسوت هذا الصلب لو كان قد أراد)، يكون هو الذى قبل آلام الصلب، وبالتبعية يكون هو الفادى الذى فدانا.

(ب) ولإيضاح هذه الحقيقة إلى حد ما نقول : إذا ارتدى ملك ثياب عامة الناس وخرج إليهم كواحد منهم، ليقرّبهم إليه ويعرف مشاكلهم ويقدم لهم كل معونة يحتاجون إليها، كما كان يفعل هرون الرشيد مثلاً. وفى أثناء القيام بهذه المهمة الجليلة، اعتدى عليه بعض الأشرار وأهانوه. فإن هذه الإهانة لا تكون قد وقعت على شخص عادى، بل على ذات الملك. وعلى هذا القياس، مع الفارق الذى لابد منه نقول : إن آلام الصليب وإن كانت قد أصابت الناسوت الظاهر لنا، لكنها تعتبر فى الواقع أنها أصابت الله غير الظاهر لنا، وذلك بطريقة لا يدركها سواه. ومن ثم قال الوحى عن دم المسيح الذى سُفك على الصليب إنه «دم الله» (أعمال ٢٠:٢٨)، كما قال عن الله نفسه، إنه مخلصنا (تيطس ١:٣٢).

٣ - هل من الجائز أن ينسب الألم إلى الله؟

الرد : (ا) لو كان الله مجرد فكرة أو طاقة أو كائناً لا يتصف بصفة، كما يقول بعض الفلاسفة، لما جاز أن ننسب إليه الألم (أو السرور) بأى معنى من المعانى. لكنه كائن حقيقى يتصف بكل صفات الكمال، وفى الوقت نفسه يتصل بنا كل الاتصال، ولذلك فإنه كما يسر بسبب الأعمال الصالحة التى يقوم بها المؤمنون الحقيقيون، كذلك يحزن على نحو يتفق مع روحانيته المطلقة بسبب الشر الذى يصدر

* ولذلك نرى فى أعمال المسيح ما هو خاص بالناسوت وما هو خاص باللاهوت. فمثلاً عندما كان يبحر مرة مع تلاميذه، نام فى السفينة - فهذا النوم كان طبعاً بالناسوت لأن اللاهوت لا ينام. ولما انتهر الريح والبحر بعد ذلك فصار هدوء عظيم (متى ٨:٢٤ و ٢٦) كان العامل حينئذ هو اللاهوت، لأن الله هو الذى يأمر الطبيعة فتخضع له.

من غيرهم وما يترتب عليه من حلول التعاسة بهم (تكوين ٦:٦، مزمور ٧٨:٤٠، إشعياء ٦٣:١٠)، وإذا كان من الممكن أن يحزن الله على نحو ما، يمكن أيضاً أن يتألم على نحو ما، لأنه لولا ذلك لكان مجرداً من الشعور والإدراك، وهذا محال.

(ب) وكان من البديهى أن لا تظل آلام الله بسبب خطايانا سراً فيه، بل أن يعلنها لنا بوضوح وجلاء. والواسطة الوحيدة لإعلانها هو «كلمته» أو «ابنه»، لأنه هو الذى يعلنه كما ذكرنا. فالله فى ابنه أظهر محبته لنا، وكشف عن الآلام التى كان يحس بها منذ القديم بسبب خطايانا. أو بتعبير آخر جسم لنا الفداء الكامن فى نفسه، والذى لم نكن نراه أو نعرف عنه شيئاً سوى اسمه. ومن ثم يمكننا أن نقول عن يقين إنه لولا المحبة التى لا حد لها الكامنة فى الله، لما كان يتألم لآلامنا ولما كان يكفر عن خطايانا ـ هذا مع العلم بأن «تألم الله بسبب هذه الخطايا» لا يقلل من مجده تعالى، بل بالعكس يزيده مجداً فى أعيننا. ولا يقلل من كماله، بل بالعكس يعلن هذا الكمال لنا فى أسمى معانيه. لأن هذا التألم يؤكد لنا أن الله ليس غريباً عنا أو غير مبال بنا، بل إنه قريب منا يعطف علينا ويرثى لنا ويهمه أمرنا.

(جـ) أخيراً نقول: إن تأثر الله لم يكن متوقفاً على ظهور البشر وما بدا منهم من شرور مؤلمة، بل إن مبدأ التأثر كان موجوداً فى ذاته أزلاً، لأن وحدانيته جامعه أو شاملة، والجمع أو الشمول فيها أقانيم، والأقانيم من شأنهم أن يتأثر أحدهم بالآخر، لأن الله كما أنه محبة هو كامل كل الكمال. ولذلك فعندما يقال أن الله تألم على نحو ما، بسبب ما بدا فى الناس من شر نحوه، لا يكون قد انفعل كما نفعل نحن، بل يكون فقط قد أظهر تأثره بشرهم، والتأثر بالشر هو وجه من وجوه الكمال الذى يتصف به من الأزل إلى الأبد.

٤ ـ هل من العدالة أن يحل الله فى الإنسان يسوع المسيح ويدفعه لتحمل آلام الصلب المريرة، ليكفر فيه عن البشر؟

الرد: إن الله لم يدفع المسيح إلى الصلب رغماً عنه كما كانت تُساق الحيوانات للذبح كفارة فى العهد القديم، حتى كان يجوز القول إن هذا التصرف لا يتفق مع عدالة الله. لكن ما حدث هو أن الله دبر منذ الأزل أن يقوم بعمل الفداء. وفى الوقت المناسب لنا، اتخذ من المسيح ناسوتاً له وذهب فيه إلى الصليب ليحمل خطايا البشر ويكفر عنها بنفسه. وقد أدرك المسيح من الناحية الناسوتية هذه الحقيقة إدراكاً تاماً، وتوافق مع الله الحال فيه كل التوافق من جهتها، وأطاعه كل الطاعة فى إتمامها، ومن ثم لا يكون الله قد ظلم المسيح من الناحية الناسوتية على الإطلاق.

فضلاً عن ذلك فقد قدّر الله طاعة المسيح من الناحية الناسوتية كل التقدير، فكافأه من ناحيتها

بأجل مكافأة. فقد قال الوحى «لذلك رفعه الله وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الآب» (فيلبى ٢: ٩ ـ ١١)، ومن ثم لا مجال لهذا الاعتراض على الإطلاق.

٥ ـ إذا كان المسيح قد توافق مع الله كل التوافق من جهة الفداء، فلماذا طلب منه فى بستان جثسيمانى أن يجنبه الصلب فى أول الأمر؟ وأليس قوله للآب وقتئذ "لكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" دليلاً على أنه قبل آلام الصلب مرغماً؟ فضلاً عن ذلك ألا يتعارض حزنه وقتئذ مع القول إنه قام بالفداء برضى وسرور؟

الرد (ا) إن المسيح بسبب كماله المطلق طلب من الله أن يجيز عنه كأس الصلب إن أمكن ـ لأنه من الناحية الناسوتية كان يحس بالألم كما نحس به نحن، ومن ثم كان يأبى عليه طهره الفائق أن تحسب عليه خطايانا، كان يأبى عليه مركزه الرفيع أن ينحنى ليحمل فى نفسه قضاءها وعقوبتها، كان يأبى عليه مجده العظيم أن تحل به لعنتها وفضيحتها، كان يأبى عليه إحساسه الرقيق أن يذوق مرارتها التى تفوق العلقم بما لا يقاس. ولكن لأنه لا يمكن أن يتمجد الله ويخلص الناس دون تجرع المسيح لكأس الصلب، لذلك فإنه بسبب كماله المطلق أيضاً رضى بها عن طيب خاطر إتماماً لمشيئة الله الصالحة.

هذا، وقد قدّر الله موقف المسيح حق التقدير، ولذلك وإن كان لم يجز عنه هذه الكأس، غير أنه أرسل له ملاكاً ليعضد جسده الذى كان قد دب فيه الضعف بسبب الإحساس بمرارتها (لوقا ٢٢: ٤٣)، ومن ثم نهض بكل قوة واستقبل آلام الصلب المريعة ببطولة تنحنى أمامها كل بطولة.

(ب) ومن جهة تسليم المسيح الأمر لإرادة الآب، فليس دليلاً على قبولها مرغماً، بل دليلاً على أنه جعل إرادته الإنسانية بما لها من مطالب خاصة، طبق الأصل من إرادة الآب، على الرغم مما يتطلبه تنفيذها من تحمل قصاص الخطيئة الأبدى نيابة عن البشر جميعاً. وعمل مثل هذا لهو حقاً عمل عظيم، لم يكن لغير المسيح أن يقوم به، وفوز مبين لم يكن لغيره أن يحققه.

(جـ) أما من جهة حزن المسيح فنقول: إنه ليس هناك أى تعارض بين السرور الروحى وبين الحزن والألم، لأن هذا السرور ليس هو الطرب والمرح، بل هو الرضا بالقيام بالواجب من نحو الله والناس بكل محبة وإخلاص. لذلك فإنه لا يكون خالياً من الحزن والألم، بل خالياً من التضجر والتذمر. والاختبار يعلمنا هذه الحقيقة، فنحن نرى الآباء البررة مع تحملهم المتاعب والآلام فى سبيل خدمة أبنائهم، والجنود المخلصين مع تحملهم المشقات المتعددة فى سبيل إعلاء شأن بلادهم، يشعرون جميعاً فى قرارة نفوسهم بكل غبطة وسرور، على الرغم مما يتحملون من آلام، ومن ثم ليس هناك مجال للاعتراض على أن المسيح مع آلامه المبرحة على الصليب، كان مسروراً بتقديم نفسه كفارة[١٠].

٦ ـ إذا كان المسيح قد قام من الناحية الناسوتية بالفداء، طاعة لأمر الله، يكون الله وحده هو الذى يستحق المحبة والإكرام.

الرد : إذا كان المسيح قد قام بالفداء لمجرد الطاعة لأمر الله، لا يكون قد قام به برضا، ولا يكون الله قد ضحى بشئ، ومن ثم لا يكون أحدهما يستحق المحبة والإكرام. وإذا كان الله قد أرغم المسيح على احتمال الآلام لكى يُحب هو من الناس، لا يكون مستحقاً للمحبة بل للبغضة، ويكون المسيح مستحقاً للعطف والشفقة. وإذا كان المسيح قد قام بالفداء بمعزل عن الله، لكان هو وحده الأولى بالمحبة (لأننا لا نحب شخصاً لما عمله شخص آخر)، غير أنه يكون فى هذه الحالة قد سلب من الله مجده، إذ يكون قد نال من دونه إكرام الناس ومحبتهم ـ ولكن الحقيقة، كما ذكرنا فيما سلف، هى أن الله نفسه كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه (٢كورثوس ٥ :١٩)، وأن المسيح حتى بوصفه ابن الإسان كان مسروراً كل السرور بهذا العمل، ولذلك ليس هناك مجال لهذا الاعتراض.

٧ ـ إذا كان المسيح مات كفارة، فليس من المعقول أن يكون قد كفر فقط عن خطايا المؤمنين الحقيقيين، بل لابد أن يكون قد كفر أيضاً عن خطايا البشر جميعاً. وبناء عليه لا يكون هناك داع للإيمان الشخصى به.

الرد : (ا) إن لكفارة المسيح طرفين : الأول ـ متعلق بالله من جهة إيفاء مطالب عدالته وقداسته، وعلى أساسه يقدم الخلاص لكل الناس دون استثناء، فقد قال الوحى «هكذا أحب الله العالم (أجمع) حتى بذل ابنه الوحيد». الثانى ـ متعلق بالناس من جهة استعدادهم لقبول المسيح، أو بالحرى الإيمان الحقيقى به. فقد قال الوحى «لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ :٧).

(ب) أما من جهة الشطر الثانى من الاعتراض فنقول : كلنا يعلم أن الهدايا، مثلاً، وإن كانت تقدم مجاناً لمن تهدى إليهم، غير أن تمتعهم بها يتوقف على قبولهم إياها. وهكذا الحال من جهة الخلاص من الخطيئة، فالمسيح وإن كان قد دفع ثمنه بنفسه ويقدمه لكل الناس هبة مجانية، لكن لا يمكن أن يتمتع به واحد منهم إلا إذا قبله، وقبوله هو عين الإيمان الحقيقى بالمسيح.



(٤)

الاعتراضات العقلانية والفلسفية، والرد عليها

١ - المسيح لا يجوز أن يكون نائباً عنا، لأنه ولد من امرأة دون رجل. ولو جاز أن يكون نائباً، فإنه لا يكون إلا نائباً عن الرجال وحدهم، لأنه كان رجلاً.

الرد : فضلاً عن أن ولادة المسيح العذراوية ضرورة اقتضتها أزليته وقيامه بحياة ذاتية خاصة به، وفضلاً عن أن التفرقة بين الرجل والمرأة هي تفرقة نسبية في الوقت الحاضر فحسب، لأنهما معاً في نظر الله بشر، إذ أن كلا منهما إنسان (١كورنثوس ١١:١١)، الأمر الذي لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض نقول :

أولا : إن المسيح لا يدعى ابن رجل أو ابن امرأة، بل يدعى «ابن الإنسان» أي الذي تمثلت فيه الإنسانية كنائبها.

ثانياً: إن حواء ليست كائناً منفصلاً عن آدم بل كانت في الأصل جزءاً منه، حتى أن الوحي ينسب الخطيئة إلى آدم وحده، فيقول : في آدم يموت الجميع (١كورنثوس ١٥:٢٢).

ثالثاً : إن المسيح لم يفرق بين رجل وامرأة من جهة العلاقة به، فقد قال «لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات، هو أخي وأختي وأمي» (متى ١٢: ٥٠). ولذلك لا مجال لهذا الاعتراض كما ذكرنا.

٢ - لو كان الله يريد أن يكفر عن خطايانا في المسيح، فلماذا لم يقم بهذا العمل بينه وبين المسيح، دون أن يكون لأحد من البشر يد في صلبه؟

الرد : إن الهدف الذي كان الله يرمي إليه، ليس أن يكفر عن خطايانا فحسب، بل أن يكشف لنا أيضاً عن مقدار الشر الكامن في نفوسنا من نحوه، وعدم استحقاقنا لأي محبة أو عطف منه، حتى نقدر كفارته حق التقدير. لذلك سمح لنا أولاً أن نعامله بكل شر يمكن أن يخطر ببالنا، قبل أن يعلن لنا كرد على هذه المعاملة، مقدار محبته لنا وعطفه علينا، حتى بضدها تتميز الأمور، كما يقولون. أما لو كان الله قد كفر عن خطايانا في المسيح بعيداً عن الصليب، لما اكتشفنا مقدار شر نفوسنا

وعدم استحقاقها لأى إحسان منه، ولما عرفنا أيضاً محبته الفائقة من نحونا، أو أدركنا قدراً زهيداً من الآلام التى تحملها بسبب خطايانا. لذلك إذا رجعنا إلى التاريخ، نرى المخلصين من اليهود وغير اليهود تأثروا بصلب المسيح تأثراً عظيماً، فأقبلوا إليه وآمنوا به إيماناً حقيقياً، كما أحبوه وأكرموه بدرجة لم يكن لهم أن يبلغوها، لو كان قد قدّم نفسه كفارة بعيداً عنهم. فتحقق بذلك قول المسيح «وأنا إن ارتفعت (على الصليب) أجذب إلىّ الجميع» (يوحنا ١٢:٣٢).

٣ ـ إذا كان الله يحب جميع الناس، لماذا سمح أن يأتى المسيح من اليهود دون غيرهم، لأن فى تصرفه هذا تحيزاً لأمة دون أخرى.

الرد : فضلاً عن أنه لو لم يأت المسيح من أمة اليهود لكان قد أتى من أمة غيرها، وفى هذه الحالة يمكن أن يقال أيضاً عنه إنه تحيز لأمة دون أخرى، الأمر الذى لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض نقول : إن الله ظهر فى أول الأمر لواحد من الوثنيين (لأنه لم يكن هناك سواهم على وجه الأرض وقتئذ) يدعى إبراهيم، فآمن هذا به إيماناً صادقاً، ثم دعاه الله إليه، فأطاعه طاعة كاملة. وتقديراً لإيمانه وطاعته وعده أن فى نسله ستتبارك كل أمم الأرض دون استثناء (تكوين ١٢:٣). وبذلك لم يكن الله متحيزاً لجنس من الأجناس أو شخصاً من الأشخاص. ولما ولد لإبراهيم اسماعيل وإسحق، خص الله أبناء الأول ببركات أرضية كثيرة (تكوين ٧:٢)، لكنه خص أبناء الثانى بالأنبياء. فكان يرسل لهم النبى تلو النبى[11] ليعلنوا لهم مشيئته من جهة الخلاص حتى يتهيئوا لقبول المسيح عند مجيئه إليهم. ولذلك إذا رجعنا إلى تاريخ اليهود نرى أن الأتقياء منهم كانوا يتوقعون مجئ المسيح إلى العالم (لو قا٢:٢٥ و ٢٦) وبمجرد أن رأوه رحبوا به (يوحنا ١:٤٧ ـ ٤٩)، بينما لو كان المسيح قد أتى من أمة أخرى لم تكن لديها نبوات عن المسيح، لما وجد فيها من ينتظره أو من يفهم رسالته.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المسيح وإن كان قد أتى من اليهود، لكنه لم يكن متحيزاً لهم، فقد كان يحب جميع الناس ويرحب بهم. فضلاً عن ذلك كان يعلن أن الوثنيين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون فى حضن إبراهيم، أما غير المؤمنين من اليهود فسيطرحون خارجاً (لو ١٣:٢٨)، كما أوصى تلاميذه أن يحملوا رسالته ليس إلى اليهودية فحسب، بل وإلى كل العالم أيضاً (مر قس ١٦:١٥)، ففعلوا كما أوصاهم تماماً.

٤ ـ لو فرضنا أن اليهود لم يصلبوا المسيح، فكيف كان يكفر عن خطايانا؟

الرد : فضلاً عن أنه لم يكن من الممكن أن يحدث لشخص قدوس طاهر يعيش وسط جماعة من الأشرار، موبخاً إياهم على شرورهم وآثامهم، غير ما حدث للمسيح. فالأشرار فى كل عصر يبغضون الحق ويقاومونه، لذلك لو كان المسيح قد عاش فى أى عصر من العصور، أو فى أى بلد من البلاد،

لظهر شر معاصريه فيها أيضاً، بالصورة التى ظهر بها شر اليهود من قبل، فإن الآلام التى تحملها المسيح من اليهود عندما صلبوه لم تكن الآلام الكفارية، بل آلام الاستشهاد فى سبيل الحق الذى كان ينادى به، لأن الآلام الكفارية كانت بينه وبين عدالة الله مباشرة، ومن ثم كان من الممكن أن يتحملها فى أى وقت من الأوقات، وبأى وسيلة من الوسائل الخاصة به، الأمر الذى لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض، **نقول** : إن الله قصد منذ الأزل أن يكون مجئ المسيح إلى العالم نوراً يكشف للناس عن فداحة خطاياهم فى ابتعادهم عنه كل البعد، ورفضهم لحقه كل الرفض، وفى الوقت نفسه يكشف لهم بتكفيره عنهم مقدار محبته لهم، وعطفه عليهم. ولذلك لا مجال لهذا الاعتراض.

٥ - إذا كان الله قد قصد بصلب المسيح أن يعلن لنا تكفيره عن خطايانا، يكون اليهود الذين صلبوا المسيح قد تمموا مشيئة الله وأسهموا فى خلاص العالم. وبناء على ذلك لا يكونون قد فعلوا جريمة ما!!

الرد : إن الآلام التى تحملها المسيح من اليهود على الصليب كانت محصورة فى الساعات التى سبقت الظلمة، وهذه الآلام لم تكن الآلام الكفارية بل آلام الاستشهاد فحسب. لأن الآلام الأولى كانت من يد العدالة الإلهية وحدها كما ذكرنا ـ فضلاً عن ذلك فإن اليهود لم يصلبوا المسيح لكى يتمموا مشيئة الله، بل لأنهم كانوا يبغضون المسيح بسبب كماله الأدبى الذى كان يكشف شرورهم وآثامهم، لذلك فإنهم بصلبهم إياه أرادوا أن يصلبوا الحق والقداسة والكمال، وهذه جريمة دونها كل جريمة فى الوجود.

لكن الله فى حكمته اللانهائية استخدم جريمتهم ضده لإعلان محبته لهم وللعالم أجمع، إذ بعدما صوبوا نحوه كل ما فى جعبتهم من عدوان، واستحقوا وقتئذ أن تحل عليهم دينونة الله بكل هولها، تقدم المسيح وقبل هذه الدينونة فى نفسه عوضاً عنهم وعن غيرهم من البشر (لأن الكل عصوا الله وتمردوا عليه دون استثناء)، ومن ثم احتمل فى نفسه آلام الكفارة (بعد) آلام الاستشهاد، فتحقق بذلك قول الوحى «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً» (رومية ٥ : ٢٠).

٦ - لو كان المسيح قد مات كفارة عن خطايانا، لما كان قد قام من بين الأموات، لأن أجرة الخطيئة هى موت أبدى. وأيضاً لما كان الخلاص من الخطيئة هو بالنعمة كما يعلن الكتاب المقدس، بل كان بالعدل، لأن عدالة الله تكون قد وفيت مطالبها.

الرد : إن قيامة المسيح من الأموات ليست دليلاً على أن موته لم يكن موتاً كفارياً، بل دليلاً على أن لاهوته غير المحدود أكسب آلامه الكفارية كإنسان قيمة غير محدودة، ولذلك استطاعت أن تفى مطالب عدالة الله غير المحدودة، ومن ثم لم يكن هناك مجال لبقائه فى القبر. أما لو كان المسيح

قد ظل فيه، لكان مثله مثل الذبائح الحيوانية التى لم تحز رضا الله، لعدم تكفيرها عن الخطيئة تكفيراً حقيقياً.

كما أن تكفير المسيح عن خطايانا إلى الأبد، وإن كان يجعل حصوله على الخلاص لأجلنا عدلاً، لأنه صار حقاً مكتسباً له، لكن عندما نحصل نحن عليه، يكون ذلك على أساس النعمة، لأننا لم نعمل شيئاً من جانبنا نستحق بسببه هذا الخلاص. ولذلك حق للوحى أن يقول لنا «بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم هو عطية الله» (أفسس ٢:٨).

٧ ـ كيف استطاع المسيح أن يفى فى ثلاث ساعات الظلمة وحدها، مطالب عدالة الله التى لا حد لها، مع أن ناسوته محدود والمحدود لا يتحمل إلا آلاماً محدودة، والآلام المحدودة لا تفى مطالب لا حد لها.

الرد : (ا) من المعلوم لدينا أن الشخص الكفء يستطيع القيام بالأعمال التى تسند إليه فى مدة وجيزة، بينما إذا أسندت هذه الأعمال إلى غيره، قد يعجز عن القيام بأى شئ منها. وعلى هذا القياس نقول : بما أن المسيح بسبب كماله المطلق له كفاية غير محدودة، لذلك لا غرابة إذا استطاع أن يفى مطالب عدالة الله التى لا حد لها، فى الساعات المذكورة التى قضاها. فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيح لم يكن قائماً بالكفارة بمعزل عن اللاهوت، بل أن اللاهوت الحال فيه كان هو القائم بها، أدركنا أن مطالب عدالته قد وُفيت تماماً على الصليب، لأن الله أو اللاهوت لا يمكن أن يكون متساهلاً أو متهاوناً فى شئ من مطالب عدله، كما ذكرنا فيما سلف.

(ب) كما أننا إذا وضعنا أمامنا أن الله كان مسروراً بتقديم المسيح كفارة عنا، وأن المسيح كان مسروراً أيضاً للقيام بهذه المهمة، فقد قال الوحى عن الله إنه سُر أن يسحق المسيح بالحزن (إشعياء ٥٣ : ١٠)، وقال عن المسيح إنه كان مسروراً بإتمام مشيئة الله (مزمور ٤٠ : ٨)، وإنه من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزى (عبرانيين ١٢ : ٢)، اتضح لنا بدليل ليس بعده دليل أن المسيح لابد أنه وفى مطالب عدالة الله (أو بالحرى وفاها الله فيه) إلى التمام، لأن الذى يقوم بعمله بسرور، لا يترك شيئاً منه على الإطلاق.

وقيام الله بفدائنا بسرور فى المسيح أمر يتفق مع كماله المطلق، لأنه من دواعى هذا الكمال أن لا يعمل تعالى عملاً على الرغم منه أو كمجرد واجب من الواجبات. كما يتفق أيضاً مع علاقته الكريمة بنا، لأنه يحبنا محبة لا حد لها ـ وهذا ما يجعل لكفارته فى أعيننا قيمة تفوق كل قيمة فى الوجود.

٨ ـ لو كان اللاهوت متحداً بالناسوت فى المسيح، لما اقتضى الأمر أن يظل المسيح فى تكفيره عن الخطيئة على الصليب ثلاث ساعات، إذ كان يكفى أن يبقى عليه لحظه واحدة، لأن

اللاهوت له كفاية لا حد لها.

الرد : إن أساس الزمن فى نظرنا ليس هو أساس الزمن فى نظر الله، لأن يوماً واحداً عند الله كألف سنة (فى نظرنا)، وألف سنة (فى نظرنا) كيوم واحد لديه (٢بطرس ٣:٨). وإذا كان الأمر كذلك، فإن المدة التى نعتبرها ثلاث ساعات، قد تكون فى نظر الله لحظة، وقد تكون دهراً، وقد تكون أبدية لا نهاية لها. وهذا ما يواجهنا أيضاً عند الصليب، وإن كان بمعنى آخر. فإن المسيح تحمل آلام الكفارة كابن الإنسان المحدود، غير أنه كان فى ذاته هو الله غير المحدود، ومن ثم كانت لكفارته فعالية لا نهاية لها. أما السر فى أن مدة آلام الاستشهاد كانت ثلاث ساعات، ومدة آلام الكفارة كانت ثلاث ساعات أيضاً، فيرجع إلى أن الرقم ٣ فى الكتاب المقدس يدل على الكمال. ومع كل يكفينا أن نعرف أن المسيح لم ينزل عن الصليب إلا بعد أن قال هذه الكلمة الخالدة «قد أكمل»، إذ أنها أوضح دليل على أنه أكمل الفداء لنا.

٩ ــ إذا كان المسيح بقوله "قد أكمل" أعلن إتمامه لعمل الفداء، فلماذا لم ينزل عن الصليب حياً بعد ما قال هذه العبارة مباشرة؟

الرد : نظراً لابتعاد الناس عن الله وارتكابهم ما شاؤا من شر، وُضع لهم أن يموتوا مرة، ثم بعد ذلك الدينونة (عبرانيين ٩:٢٧). ومن ثم كان ينبغى للمسيح فى سبيل تكفيره الكامل عن الناس أن يتحمل الحكمين. فاحتمل آلام دينونة العدل الإلهى فى ساعات الظلمة الثلاث. واحتمل بعد ذلك تنفيذ حكم الموت فى جسده الكريم. فضلاً عما تقدم فإن قوله «قد أكمل» ليس منفصلاً عن موته بل مقترناً به كل الاقتران، إذ أنه مات بمجرد أن قال هذه العبارة، ومن ثم يكون المراد بها، أنه أكمل الكفارة بموته على الصليب.

١٠ ــ إذا كان الخلاص هو بالمسيح، فلماذا لم يأت مباشرة عندما سقط آدم فى الخطيئة، أو بعد سقوطه فيها بمدة يسيرة، ليقدم نفسه كفارة عنه وعن أبنائه، عوضاً عن أن يلزمهم آلاف السنين بتقديم الذبائح الحيوانية، التى لم تكن كافية فى ذاتها للتكفير الحقيقى عن خطاياهم؟

الرد : (ا) إن البشر لم يدركوا قديماً شر الخطيئة وخطورتها إدراكاً كاملاً، ولذلك لو كان المسيح قدم نفسه كفارة عندما أخطأ آدم مباشرة، أو بعد ذلك بمدة يسيرة، مثلاً، لما كان هناك شخص يقدرها حق قدرها، أو يتأثر بها ويفيد منها. ومن ثم شاء الله، وهو العليم بطبائع البشر وطرق تهذيبهم وتعليمهم، أن يتركهم أولاً لأنفسهم حتى يعرفوا «أن الكل زاغوا وفسدوا معاً، (وأنه) ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد» (رومية ٣: ١٠ ـ ١٢)، وأن الذبائح الحيوانية، مهما كثرت، لا تكفى للتكفير

عن خطيئة واحدة من خطاياهم. وأن يرقى بعد ذلك بأذهانهم شيئاً فشيئاً لتدرك خطورة الخطيئة ليس بالنسبة إلى أنفسهم فقط، بل وأيضاً بالنسبة إليه تعالى، حتى يتضح لهم أنهم لا يستطيعون بأى وسيلة من الوسائل أن يؤهلوا ذواتهم للوجود فى حضرته.

(ب) ولما اتضحت لهم هذه الحقيقة، أخذ يهيئهم لقبول خلاصه فى المسيح. وذلك بالنبوات التى كان يرسلها لهم على أفواه أنبيائه من وقت لآخر عن ألقاب المسيح واسم أسرته وعن المكان والزمان اللذين سيولد فيهما، وعن صفاته وأعماله المتنوعة، وعن قيامه بنفسه بالتكفير عن الخطيئة (اقرأ مثلاً : إشعياء ٧ و ٩ و ٥٣ ، دانيال ٩، ميخا ٥ ، ملاخى ٣). ومن ثم إذا رجعنا للكتاب المقدس نرى أنه قبيل ظهور المسيح. كان كثيرون من الأتقياء فى انتظاره (لوقا ٢ :٢٥ و ٢٦، يوحنا ١ :٤١ و ٤٥ و ٤٩، ٤ :٢٥ و ٢٩، ٧ :٢٦ و ٢٧، مرقس ١٢ :٣٥) كما ذكرنا. وإذا كان الأمر كذلك، فإن مجئ المسيح لإعلان خلاص الله بعد انتشار الناس فى العالم، وقيامهم بإنشاء السجلات التى يدونون فيها ما يقع أمامهم من أحداث، وبعد إدراك المخلصين منهم شر الخطيئة وقصورهم الذاتى عن التوافق مع الله بأعمالهم، وظهور الرغبة الصادقة فيهم للخلاص من الخطيئة ونتائجها (لوقا ٢ :٢٥و ٣٦)، لتصرف يتفق مع الحق كل الاتفاق.

١١ ــ إذا كان الله قد تألم بسبب الخطيئة عندما سقط فيها آدم وأولاده منذ القديم (إشعياء ٤٣ :٢٤)، يكون قد كفر عنها بينه وبين نفسه منذ القديم أيضاً. ويكون كل إنسان يقبل إليه تائباً عن خطاياه، له أن يحظى بالصفح والغفران. ومن ثم لا يكون الصلب سوى صورة للآلام التى كان الله يشعر بها منذ القديم بسبب الخطيئة، وبالتبعية لا يكون أمراً ضرورياً للتكفير عنها.

الرد : حقاً إن الله كان يتألم بسبب الخطايا منذ القديم، آلام العطف على الخطاة بسبب البؤس الذى ترددوا فيه، وبسبب كسرهم لشريعته التى أعطاها لهم لأجل خيرهم، وبسبب قصورهم فى إدراك فضله العظيم عليهم الذى أسداه إليهم، وذلك بحالة تتفق مع روحانيته المطلقة. لكن ألمه هذا لم يكن ألماً كفارياً، لأنه كان يدعوه لصب القصاص على الفجار من وقت لآخر (تكوين ١٧، ١٩). أما فى الصلب فقد احتمل فى المسيح كل آلام دينونة خطايانا دون أن يصب شيئاً منها علينا. ولذلك تكون آلامه على الصليب هى وحدها الآلام الكفارية. ولا غرابة فى ذلك ففى الصليب وفى الصليب وحده، أعلن الله أن محبته تفوق كل خطايانا. وأن السيول مهما طمت لا تستطيع أن تطفئ هذه المحبة أو تقلل من شدتها (نشيد الأنشاد ٨ :٧). ولذلك فعند الصليب نجد نحن الخطاة غفراناً كاملاً، نستريح له كل الراحة ونطمئن له كل الإطمئنان.

١٢ ــ إن الكفارة لا تقدم عن الخطايا التى لم ترتكب بعد، بل عن الخطايا التى ارتكبت فيما

سلف. لذلك فإن كفارة المسيح هى عن الخطايا التى كانت قد ارتكبت لغاية صلبه فقط.

الرد : لو كان مخلوق ما هو الذى قام بتقديم كفارة عن خطايانا، لكان قد قدمها عن خطايا الماضية فحسب، لأنه لا علم له بالخطايا التى سترتكب فى المستقبل. أما والله نفسه هو الذى قدم الكفارة، فإنه كان يعلم منذ الأزل كل البشر الذين سيأتون إلى العالم، كما كان يعلم أيضاً كل الخطايا التى سيأتونها. وبما أنه لا يعسر عليه التكفير عنها جميعاً دفعة واحدة لذلك لم يكن هناك داع أن يكفر فى نهاية كل قرن، مثلاً، عن الخطايا التى ارتكبت فيه. وإذا كان الأمر كذلك، تكون كفارته هى عن كل البشر فى كل البلاد والعصور كما أعلن الوحى. فقد قال عن المسيح «لكى يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عبرانيين ٢ :٩).

١٣ - إن الاعتقاد بالخلاص وتكفير الله عن الخطايا، مقتبس من أساطير الوثنيين. فقد كانوا يعتقدون أنه بسفك الدم يخلصون من خطاياهم. كما كانوا يعتقدون أن آلهتهم مثل مترا وكريشنا وبوذا وتاموز وأوزيريس وبروميتيه تألموا، لكى يخلصوا أتباعهم من خطاياهم.

الرد : فضلاً عن أن الاعتقاد بضرورة سفك دم الذبائح للحصول على المغفرة هو من صميم العقائد التى ينادى بها الكتاب المقدس منذ وجود آدم على الأرض، وأن الوثنيين هم الذين نقلوه عن أجدادهم الذين كانوا فيما سلف يؤمنون بالله دون سواه، كما ذكرنا فى الباب الثالث. وفضلاً عن أن تلاميذ المسيح كانوا يختلفون من جهة النشأة والطباع والثقافة والسن والمركز الاجتماعى، كما أنهم لم يكونوا من رجال الفلسفة أو السياسة أو التاريخ الذين لهم إلمام بأساطير الوثنيين، أو كانوا من التجار الذين يجوبون البلاد ويعرفون شيئاً عن عادات أهلها ودياناتهم، الأمر الذى لا يدع مجالاً لهذا الاعتراض، فإن ما جاء بالأساطير المذكورة بعيد كل البعد عن العقيدة المسيحية فى الخلاص من الخطيئة، كما يتضح مما يلى* :

(أ) إن مترا (كما تقول أسطورته) خرج من صخرة وهو يحمل مدية ومشعلاً، فحارب الشمس

---

* معظم الاعتراضات المذكورة هنا واردة فى : (١) مقارنات الأديان - للأستاذ محمد أبو زهرة. (٢) نظرات فى العقائد المسيحية - للأستاذ مصطفى سعداوى. (٣) العقائد الوثنية فى الديانة المسيحية - للأستاذ سمير طاهر. (٤) المسيح والتثليث - للدكتور محمد وصفى، وذلك عن كتب أجنبية يقاوم أصحابها المسيحية. أما الرد على الاعتراضات فمقتبس من :

(١) Hindu Religion & Legends, by Thomas

(٢) The Pilgrim of Budism, by Prett

(٣) Eastern and Western Religions, by Redhakirishman

(٤) أديان العالم الكبرى للأستاذ حبيب سعيد.

(٥) محاضرات فى الأدب المسرحى للدكتور عبد الواحد - وكلها كتب علمية بحتة تذكر الحقائق كما هى.

وقهرها وجعلها حليفة له. ثم حارب أول مخلوق فى الكون، وهو الثور الرهيب الذى كان يزعج الناس، فأرداه قتيلاً. وبذلك صار دم هذا الثور عنواناً لخلاص الناس، إذ بقتل مثرا إياه أنقذهم من بطشه. لكن أعوان أهريمان إله الشر (وهى العقارب والحيات والنمل) طغت على هذا الدم وأضاعت معالمه، ولذلك ترك مثرا الأرض وطار إلى الشمس حليفته ـ فأية صلة بين هذه الرواية وبين موت المسيح كفارة عن البشر تحقيقاً لمطالب قداسة الله وعدالته!!

(ب) وكريشنا كان يرتكب آثاماً لم يرتكب غيره مثلها، حتى أطلق عليه الوثنيون اسم «إله الشر». كما أطلقوا عليه اسم "المخلص" لأن الخلاص فى نظرهم لم يكن التحرر من عقوبة الخطيئة وسلطانها على النفس (حتى تستطيع أن تنعم بالتوافق مع الله فى قداسته كما هى الحال فى المسيحية)، بل كان هو الانغماس الكلى فى الدنس، لأن الانغماس (كما زعموا) يطفئ نار الشهوة المتقدة[١٢]. فاستخدم المعترضون هذا المعنى النجس للخلاص من الخطيئة، ودون أن يشيروا إلى التناقض الذى لا حد له بين المعنى المذكور وبين معنى الخلاص من الخطيئة فى المسيحية، قالوا إن أتباع كريشنا كانوا يعتقدون إنه يخلص من الخطيئة كما يقول المسيحيون عن المسيح، لكى يدخلوا فى روع البسطاء منهم أن معتقداتهم منقولة من الوثنية.

أما الطريقة التى مات بها كريشنا فهى أنه "بينما كان يسير مرة فى غابة، أخطأ أحد الصيادين فيها مرماه، فنفذت حصاته (كما تقول رواية) أو سهمه (كما تقول رواية أخرى) إلى مقتل من كريشنا، فسقط لساعته ومات". لكن المعترضين أضافوا إلى ذلك من عندياتهم أنه "عندما طعن جنب كريشنا بالحربة، قال وهو مصلوب للصياد الذى رماه بالنبلة، اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتى إلى السماء مسكن الآلهة" ـ وهذه الإضافة فضلاً عن أنها لا تنسجم مطلقاً مع حادثة موت كريشنا، فإنها تدل على أن المعترضين اقتبسوا من الإنجيل قوله إن أحد الجنود طعن المسيح بحربة عندما كان على الصليب، وقول المسيح للص الذى تاب «اليوم تكون معى فى الفردوس»، ثم حشروا هذين القولين فى روايتهم حشراً لا يقره عقل، وذلك ليخرجوها بالصورة التى أرادوها. لكن خانهم التوفيق كما يخون جميع المزوّرين، لأ الصلب لم يكن معروفاً عند الهنود بل عند الفينيقيين والمصريين والرومان واليهود فحسب، كما يقول المؤرخون.

(جـ) وبوذا كان يرفض مبدأ الكفارة لأنه كان يعتقد أنه لا يستطيع كائن ما أن يخلص أحداً من خطاياه، ومن ثم كان ينادى بأنه يجب على كل إنسان أن يرتقى بنفسه فوق أهوائه وشهواته حتى يبلغ طور النرفانا الذى يتحرر فيه (كما يقال) من الشهوات تحرراً تاماً. ولذلك كانت كلماته الأخيرة لأتباعه هى "كونوا لأنفسكم نوراً وملجأ حصينا، ولا تلوذوا بغير أنفسكم!!". ولذلك كان البوذيون (كما يقول المؤرخون) يقوّمون أنفسهم بأنفسهم دون أن ينتظروا معونة من أحد، ظانين أنهم يستطيعون

الارتقاء فوق قصورهم بقوتهم الذاتية ـ وقد أشارت الأهرام الصادرة فى ٧ مايو ١٩٧١ إلى هذه الحقيقة فقالت : "إن بوذا كان معلماً لا مخلصاً، وإنه لم يعد إنساناً بمعونة خلا المعونة التى يتلقاها هو من نفسه. وإن من أقواله المأثورة لأتباعه : واصلوا جهادكم حتى تبلغوا سبيل الخلاص".

أما الطريقة التى مات بها بوذا فهى أنه عندما كان فى بلدة بافا، أراد حداد يدعى تشوندا أن يكرمه، فقدم له لحماً مشوياً. فلما أكل منه بوذا أحس بألم شديد فى أمعائه لم يمهله فى الحياة إلا بضع ساعات ـ ولكن المعترضين ادّعوا أنه قال "دعوا الآثام التى ارتكبت فى هذا العالم تقع علىّ، لكى يخلص العالم من قصاصها"، حتى يوهموا البسطاء من المسيحيين أن اعتقادهم بخلاص المسيح منقول من الأساطير الهندية!!

(د) وتاموز كان يعتبر عند الوثنيين إله الزراعة والربيع، ولذلك كانوا يعتقدون أنه يحيا بظهور النباتات ويموت بذبولها. وعند موته (أو بالحرى عند ذبول النباتات) كانت معظم النساء يبكين عليه كثيراً. وعند ظهوره (أو بالحرى ظهور النباتات) كن يفرحن فرحاً عظيماً ويستسلمن للأهواء الجنسية دون قيد أو شرط. وكان هذا العمل يعتبر لديهم خلاصاً، ليس خلاصاً من نجاسة الخطيئة كما هى الحال فى المسيحية، بل خلاصاً من قانون الطهارة والعفاف كما ذكرنا فيما سلف. لذلك فالقول "إن بعض الوثنيين كانوا يعتقدون أن تاموز تألم من أجل الناس، وأنه كان يدعى المخلص والفادى والمصلوب" فضلاً عن أنه مجرد إدعاء، فهو جريمة أدبية شنيعة، لأنه يهدف إلى تشويه الحقائق الثابتة وتشكيك البسطاء فى عقائدهم.

(هـ) وأوزيريس، كما تقول أسطورة، كان يحب الناس ويخلصهم من متاعبهم، ولكن أخاه "ست" قتله وقطع جسده إلى أجزاء كثيرة، فجمعت زوجته هذه الأجزاء، وأعادته إلى الحياة. وتقول أسطورة أخرى إنه لما مات أوزيريس بكت عليه زوجته فنزلت دموعها على جسده، ومن ثم قام من الموت. وتقول أسطورة غيرها إن أوزيريس كان يغرق فى وقت الفيضان وكانت إيزيس تنزل إلى النيل لكى تنتشله، ومن ثم كان يموت ويحيا كل عام. ولذلك فقول المعترضين إن بعض قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن أوزيريس يخلص من الخطيئة، هو قول هراء.

(و) وبروميثيه، كما تقول أسطورته، كان يقاوم الأورستقراطية فى بلاد اليونان، كما كان يحب الناس ويساعدهم فى شئونهم. فحقد عليه جوبتر "رب الآلهة" هناك وصلبه على جبال القوقاز، كما أمر فلكان بتعذيبه. فأخذ هذا يغرس حديداً محمى بالنار فى جسمه، كما أثار عليه النسور لكى تمزقه وتأكل منه ما تستطيع أكله، فظل بروميثيه على هذه الحالة حتى أنقذه هرقل.

فرواية بروميثيه، كما نرى، تختلف عن حادثة صلب المسيح كل الاختلاف، الأمر الذى يقضى على

كل ظن بأن هذه الحادثة مقتبسة أيضاً من الرواية المذكورة. فالمسيح قدم نفسه باختياره للموت، أما بروميتيه فسيق للموت رغماً عنه. والمسيح قبل الموت كفارة عن خطايا البشر، أما بروميتيه فلم يمت عن خطيئة إنسان ما. أما قول المعترضين إن بروميتيه "جرح بسبب ذنوب الناس، وإنه سحق بسبب عصيانهم"، فليس له وجود فى رواية بروميتيه، بل هو مسروق من نبوة إشعياء النبى (ص ٥٣)، التى قيلت عن المسيح قبل ظهور رواية بروميتيه بمئات السنين. وكان من الواجب على المعترضين إذا أرادوا أن يستعيروا أسلوب الكتاب المقدس فى هذا الصدد، أن يقولوا : إن بروميتيه جرح بسبب دفاعه عن الديمقراطية، وإنه سحق بسبب إخلاصه لها. ولكنهم شاءوا أن يوهموا البسطاء من المسيحيين أن أجدادهم سرقوا العقائد المسيحية من أساطير اليونان، والحال أنهم هم السارقون!!

***

وقد عرف المرحوم الأستاذ العقاد معنا أن المعترضين تحاملوا على العقائد المسيحية دون مبرر، فقال "إن أصحاب هذه الملاحظات اتخذوا تشابه المراسيم* والأخبار دليلاً على تلفيق تاريخ السيد المسيح ويبدو لى أن نشوء علم المقابلة بين الأديان هو الذى دفع أصحابه فى القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها". ثم قال "ليس من الصواب أن يقال إن الأناجيل جميعاً عمدة لا يعوّل عليها فى تاريخ السيد المسيح، وإنما الصواب أنها العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ. وسواء رجعت هذه الأناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر واحد، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس إلى عصر المسيح، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى عام أحق منها بالإعتماد". ("عبقرية المسيح" ص ١٢٦، "الله" ص ١٤٩ ـ١٥٤).

وقد سبق الأستاذ العقاد إلى هذه الحقيقة سير جيمز فريزر ودكتور ادوارد ماير المؤرخ السويسرى. فقد قال الأول فى كتاب "The Golden Bough, V.6, P.412" "إن الشكوك التى تثار ضد حقيقة تاريخ المسيح لا يقام لها وزن، وإنها سخافة لا تقل فى بطلانها عن محاولة جعل نابليون، مثلاً، أسطورة لا شخصاً حقيقياً". وقال الثانى فى كتاب "The Origin of Christianity, P. 120" "ليس هناك شئ ما يحملنا على رفض تاريخ المسيح المدوّن فى الإنجيل" ـ والعالمان المذكوران، كما يتضح من حياة كل منهما، لم يكونا من الأشخاص المتدينين الذين يهمهم تأييد الموضوعات المسيحية الواردة فى الإنجيل، بل كانا من علماء التاريخ الذين لا ينظرون إلى هذه الموضوعات إلا من الناحية التاريخية وحدها. ولذلك فشهادتهما، مثل شهادة الأستاذ العقاد، لا يجوز الطعن فيها بحال.

---

* هذا مع العلم بأن معظم المراسيم الدينية الموجودة فى بعض الكنائس المسيحية فى الوقت الحاضر، لم يكن لها وجود فى بدء المسيحية، الأمر الذى يدل على أن المعترضين بنوا آراءهم على غير أساس.

الباب التاسع

برارة موقف الله
إزاء البشر وخطاياهم

- برارة موقف الله إزاء سقوط آدم
- برارة موقف الله إزاء البشر عامة
- برارة موقف الله إزاء المؤمنين الحقيقيين

إن عدم قضاء الله على الشيطان من أول الأمر، والسماح له بتجربة آدم وحواء، وعدم تداخله تعالى في منعهما من العصيان، ووجود أشخاص لهم حياة أبدية، وآخرين لهم العذاب الأبدي. كل هذه مشكلات بحثها كثير من الفلاسفة والمفكرين دون أن يهتدوا إلى حل لها. لكن في ضوء الأبواب السابقة لا يكون هناك مجال لهذه المشكلات، كما يتضح من الفصول التالية :

(١)

برارة موقف الله إزاء سقوط آدم

١ - لماذا خلق الله آدم، مع علمه أنه سيعصاه، ويجلب على نفسه الشقاء الأبدي؟

الرد : إن الله خلقه لأنه تعالى محبة (١يوحنا ٤:٨)، ومن شأن المحبة (أو بالحرى المحبة الخالصة) ألا تحصر صاحبها في إسعاد ذاته، بل تدعه يتجه إلى إسعاد الآخرين. ولذلك خلق الله آدم لكي يسعده ويمتعه بكل خير لديه تعالى، أما قول بعض الفلاسفة ورجال الدين إن الله خلق آدم لكي يعلن عن ذاته تعالى أو لكي يتقبل من آدم العبادة والإكرام، فليس له نصيب من الصواب، لأن الله كامل كل الكمال ومستغن بذاته كل الاستغناء.

أما من جهة معرفة الله السابقة بأن آدم سيعصاه ويجلب على نفسه الشقاء، فكانت تمنعه من خلقه لو كانت هناك عقبة ما، يمكن أن تمنعه تعالى من تحقيق أغراضه السامية من نحوه. ومن ثم فإنه خلق آدم مع علمه أنه سيعصاه، لأنه يستطيع أن ينقذه من نتائج العصيان، ويحقق كل أغراضه الأزلية السامية من نحوه. وقد تحققت فعلاً هذه الأغراض كما اتضح لنا فيما سلف.

٢ - إذا كان الله قد خلق آدم بدافع المحبة، فلماذا لم يخلقه معصوماً من الخطأ؟

الرد : إن العصمة لا تتوفر إلا في من لا بداءة له أو نهاية، أو بالحرى في الله دون سواه، ولذلك فإن الإنسان أو غيره من المخلوقات لا يكون معصوماً من الخطأ - ومع كل فالله وإن لم يخلق آدم معصوماً، لكن خلقه على صورته تعالى، أو بالحرى بروح عاقلة لها كل الإمكانيات للتوافق مع الله

فى صفاته الأدبية السامية، ومن ثم كان من الميسور لآدم ألا يخطئ لو كان قد عقد النية على ذلك.

٣ ـ إذا كان الله يحب آدم، فلماذا لم يمنعه من العصيان رغماً عنه، حتى يجنبه هو ونسله الشر والبلاء؟

الرد : لو كان الله قد منع آدم من العصيان رغماً عنه، لكان قد سلبه حرية الإرادة التى خلقه بها ، والله لا يلغى أو ينسخ عملاً من أعماله، لأنه عملها كلها بكل حكمة وفطنة (مزمور ١٠٤: ٢٤). فضلاً عن ذلك لو كان الله قد منع آدم من العصيان رغماً عنه، لأصبحت طاعة آدم فى هذه الحالة طاعة آلية لا إرادية. والطاعة الآلية فضلاً عن أنه لا قدر لها ولا وزن، فإنها لم تكن تشعر آدم بمتعة فى العلاقة مع الله، ومن ثم كان يحل به الضيق والاكتئاب، وتتأجج فيه الرغبة للمخالفة والعصيان، شأنه فى ذلك شأن السكير، فإننا إذا منعناه من الخمر رغماً عنه، تزداد رغبته فيها كثيراً.

٤ ـ إن عدم منع الله لآدم من العصيان، يدل على أنه تعالى هو الذى هيّأ له سبيل السقوط فى الخطيئة، ومن ثم لا يكون آدم مسئولاً عنها.

الرد : إن الله أسمى من أن يهيئ لآدم (أو لغير آدم) سبيل السقوط فى الخطيئة، لكن آدم هو الذى بإرادته الذاتية عصى الله، ومن ثم فإنه يستحق كل القصاص الذى يترتب على عصيانه. هذا وقد أغلق الوحى الباب أمام هذا الاعتراض فقال : إن الله لا يجرب أحد بالشرور، ولكن كل واحد يجرّب إذا انجذب وانخدع من شهوته. ثم أن الشهوة إذا حبلت تلد خطيئة، والخطيئة إذا كملت تنتج موتاً (يعقوب ١: ١٣ ـ ١٥).

٥ ـ لو كان الله قد أراد لآدم حياة السعادة فى الجنة، لكان قد هيأ له الوسائل التى كانت تساعده على عدم العصيان.

الرد : لو كان الله قد خلق آدم بطبيعة خاطئة، أو وضعه فى صحراء قاحلة ونهاه عن الأكل من شجرة كانت فيها ، أو بعد ما وضعه فى الجنة حرّم عليه الأكل من أشجارها كلها إلا شجرة واحدة، أو سمح له بالأكل من كل الأشجار إلا أحسنها وأفضلها ، أو أن الشجرة التى نهى آدم عنها كانت فى مكان يلتبس عليه معرفته. لكان هناك مجال لهذا الاعتراض. لكن الله خلق آدم مستقيماً، ولم يضعه فى صحراء بل فى جنة، ولم يأمره بالامتناع عن الأكل من الأشجار التى فيها إلا شجرة واحدة منها ، بل سمح له بالأكل من كل الأشجار إلا شجرة واحدة منها ، كما أن هذه الشجرة كانت معروفة لدى آدم حق المعرفة. فضلاً عن ذلك فإنها لم تكن أحسن أو أفضل من غيرها من الأشجار، بل كانت مثلها تماماً، وكل ما فى الأمر أن رغبة آدم فى الأكل منها خلعت عليها جمالاً خاصاً فى عينيه. ومن ثم

فالله على النقيض مما يظن المعترضون، كان قد أحاط آدم بكل الأسباب الكفيلة بحفظه من العصيان، ولذلك لا عذر له على الإطلاق.

٦ - أليس عدم قضاء الله على الشيطان من جهة، وامتحانه لآدم من جهة أخرى، دليلين على أنه لم يشأ لآدم حياة الهناء؟

الرد : (أ) إن الشيطان مخلوق ضعيف حقير لا شأن له بالنسبة إلى الله. ولذلك فبقاؤه لا يمكن أن يقف فى سبيل تنفيذ الله لمقاصده، لأن الله جلت قدرته يستطيع أن يقضى على كل أعمال الشيطان وحيله، بل ويستغلها أيضاً لإظهار محبته ورحمته للبشر الذين خلقهم على صورته كشبهه، وبذلك يخرج لهم من الآكل أكلاً ومن الجافى حلاوة (قضاة ١٤:١٢).

فضلاً عن ذلك فإن الشيطان لم يرغم آدم على العصيان، فهو لم يأت به إلى الشجرة المنهى عنها، أو قطف من ثمرها ووضع فى فمه، بل حواء هى التى ذهبت إلى الشجرة بإرادتها، وهى التى قطفت من ثمرتها وأكلت بنفسها، وهى التى أعطت زوجها بعد ذلك ليأكل فاستجاب لها. ومن ثم فبقاء الشيطان لا يخلى آدم أو امرأته من مسئولية العصيان، لأنه كان من الميسور لهما أن يتحولا عن صوت الشيطان لو كانا قد أرادا أن يحيا معاً حياة الطاعة لله. فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان من الجائز جداً أن يعصيا الله لو لم يكن الشيطان موجوداً، وذلك بسبب حرية الإرادة التى كانا يتمتعان بها، لأن هذه الحرية، كما تقود إلى الطاعة تقود إلى العصيان. إذاً ليس هناك مجال لهذا الاعتراض.

(ب) أما من جهة الامتحان فقد كان من الواجب أن يظهر آدم وامرأته أهليتهما للمركز السامى الذى وضعهما الله فيه. فإذا تبين أنهما يطيعان الله، يمكن أن يتمتعا بهذا المركز إلى الأبد. وإذا سقطا فللسقوط علاج، وعلاج كفيل بإعادتهما لا إلى حالتهما الأولى فحسب، بل وإلى حالة أفضل منها كثيراً بفضل نعمة الله التى لا حد لها، لذلك ليس هناك مجال للإعتراض على هذا الامتحان بأى شكل من الأشكال.

٧ - إذا كان الله يعلم منذ الأزل أن آدم سيعصاه، فلماذا لم يتركه وشأنه دون امتحان، لأنه إذ ذاك لم يكن يحرم من الجنة على الإطلاق؟

الرد : حقاً إن الله كان يعرف منذ الأزل أن كلا من آدم وحواء سيعصيان وصيته، لكن لم يكن لهما أن يعرفا هذه الحقيقة دون امتحان، ومن ثم كان يجب أن يُمتحنا ليعرفا حقيقة أمرهما، ويعرفا أيضاً كيف يتصرفان إزاء الله. وللإيضاح نقول : إذا ألغيت الإمتحانات المدرسية، مثلاً، لما عرف معظم الطلبة حقيقة أمرهم، بل ربما ظن الضعفاء منهم أنهم أفضل من غيرهم، ومن ثم يتملكهم الغرور بأنفسهم. إذا التحقوا بعمل بعد ذلك، أساءوا التصرف فيه كثيراً. ومن ثم فالامتحان ضرورة أدبية لا

مفر منها، ولا يتنصل منه إلا الذين لا يريدون أن يعرفوا حقيقة ذواتهم. نعم سيرسب الضعيف فى الإمتحان، لكن من الأفضل والأشرف أن يرسب ويعالج، من أن يتوهم أنه قوى فيخدع نفسه ويخدع الآخرين أيضاً معه. لذلك كان الأتقياء يطلبون من الله أن يمتحنهم ويوجههم التوجيه السليم، فداود النبى، مثلاً، كان يقول لله «اختبرنى واعرف قلبى امتحنى واعرف أفكارى، وانظر إن كان فىّ طريق باطل واهدنى طريقاً أبدياً» (مزمور ١٣٩: ٢٣ و ٢٤).

٨ ـ لو كان الله قد أراد لآدم حياة البقاء فى الجنة، فهل يكون آدم بعصيانه ونشره للشر قد خالف إرادة الله، وإرادة الله كما نعلم تسيطر على الكون وتتحكم فيه؟

الرد : حقاً إن إرادة الله تسيطر على الكون وتتحكم فيه فهى التى تسيّر الكواكب بدقة فى أفلاكها، وهى التى تحفظ للطبيعة خصائصها وكيانها. لكن يجب ألا يفوتنا أن هناك فرقاً بين الإرادة والسماح. فالإرادة عمل إيجابى به نتحكم فى الأمور لتسير فى الطريق الذى نعينه لها. أما السماح فهو عمل سلبى به نترك الحرية للأمور لتسير فى طريقها، لسبب أو غرض خاص. فالله سمح لآدم بالعصيان، ليس لعجزه تعالى عن إرغامه على حياة الطاعة، بل لأنه تعالى خلقه حر الإرادة، وحرية الإرادة من شأنها أن تتجه إلى الخير كما تتجه إلى الشر. ومع كل فإن وجود الشر فى العالم لا يعطل مقاصد الله، لأن الله يستطيع استخدامه لتهذيب الإنسان، وأيضاً لإظهار محبته تعالى له وعطفه عليه. لأنه لولا الشر لما عرفنا أهمية الخير، ولولا سقوطنا فى الخطيئة، لما عرفنا عطف الله علينا واهتمامه بأمرنا.

٩ ـ لماذا خلق الله آدم حر الإرادة، وهو يعلم أن سيسئ استخدام هذه الحرية؟

الرد : (ا) لما كان الله محبة (١يوحنا ٤: ٨)، وكانت المحبة هى العامل الأساسى فى الخلق، لذلك كان من البديهى أن يخلق الله البشر بإرادة حرة [(١)]، حتى تكون لهم القدرة الذاتية على أن يبادلوه حباً بحب، لأن المحبة المتبادلة لا تقوم إلا على حرية الإرادة. فضلاً عن ذلك فإن هذه الحرية هى التى تكوّن فى الواقع أخلاق البشر وشخصياتهم، وتهيئ لهم أيضاً سبيل التقدم والرقى فى الحياة، إذ لولاها لظل الإنسان إلى الآن بدائياً كما كان منذ آلاف السنين. فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن الله لا يريد بشراً كالدميات التى تتحرك آلياً بالجذب أو الدفع حسب رغبة صاحبها، لأنه تعالى لا يجد سروره إلا فى خلائق تتجاوب معه بمحض اختيارها، الأمر الذى لا يتحقق إلا إذا توافرت لديها القدرة على العصيان فى أى وقت أرادت، اتضح لنا أن هذا الاعتراض لا مجال له على الإطلاق.

(ب) كما أننا إذا نظرنا إلى الحرية من الناحية الإنسانية العامة، نرى أنها أسمى ما يعتز به الكائن العاقل، ومن ثم فإن البشر المحرومين منها يجاهدون بكل قواهم للحصول عليها. وإذا كان

الأمر كذلك، فمن التناقض أن نعتز بالحرية، وفى الوقت نفسه نعترض على الله لأنه خلقنا أحراراً. فإذا كان آدم قد استخدم حرية الإرادة التى طبعه الله عليها فى الإنحراف عنه تعالى، فالعيب فيه وليس فى الحرية - ومع كل فإن الله بسبب محبته التى لا حد لها، لم يعامل الإنسان حسب عصيانه، بل أظهر له كل عطف ورحمة، كما هيأ له كل الوسائل التى تمكنه من استخدام حرية إرادته فى الامتناع عن كل شر، والقيام بكل خير، عندما يؤمن إيماناً حقيقياً كما ذكرنا فى الباب السابع، ولذلك ليس هنا مجال لهذا الاعتراض كما ذكرنا.

١٠ - إذا كان الأمر كذلك، فهل سمح الله لآدم بالسقوط فى الخطيئة لكى يظهر تعالى محبته الأزلية له ويكفر بنفسه عنه؟

الرد : حاشا لله أن يكون قد سمح لآدم بالسقوط فى الخطيئة لهذين الغرضين، لأنه لا يسمح بالشر لكى يأتى الخير، إذ أنه لا يصطاد فى الماء العكر كما يفعل بعض الناس. بل ما حدث هو أنه تعالى هيأ لآدم الأسباب الكفيلة ببقائه فى الجنة إلى الأبد، لكن لما سقط بإرادته لم يشأ الله أن يتركه فى خطيئته، بل احتملها وكفر عنها بنفسه. فضلاً عن ذلك فإن هذين العملين، أى الاحتمال والتكفير، لم يكونا حدثين جديدين بالنسبة إلى الله، بل كانا لديه أزلاً، لأنه يعرف كل الأشياء قبل ظهورها - الأمر الذى يتوافق مع كماله، وعدم طروء أى جديد عليه.



(٢)

برارة موقف الله إزاء البشر عامة

١ - لكن هل يرضى الله أن يشقى ملايين البشر، بسبب خطيئة آدم أبيهم ونائبهم؟

الرد : طبعاً لا يرضى، ولذلك عيّن منذ الأزل (أو بالحرى قبل خلق آدم بأزمنة لا حصر لها) نائباً آخر هو المسيح، ومن ثم دعى المسيح بالوحى من الناحية الناسوتية «آدم الأخير»* (١كورنثوس١٥ :٤٥)، وتبعاً لذلك إذا كانت البشرية قد حلّ بها الشقاء بواسطة آدم الأول، يحل بها الخير وكل الخير بواسطة آدم الأخير. فقد قال الوحى : «لأنه إن كان بخطيئة واحد (أى آدم الأول) مات

* يطلق على المسيح «آدم الأخير» أو "النائب الأخير" من جهة زمن ظهوره فى العالم بالنسبة إلى آدم الأول أو النائب الأول. ولكن المسيح من ناحية وجوده الذاتى، كان قبل آدم بأزمنة لا حصر لها، لأنه له المجد هو «ابن الله» و «كلمته».

الكثيرون، فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية التى بالإنسان الواحد يسوع المسيح * ، قد ازدادت للكثيرين .. لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر، سيملكون فى الحياة بالواحد يسوع المسيح. فإذاً كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد (أى عمل البر الواحد الذى به وفّى المسيح مطالب عدالة الله وقداسته) صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة. لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة، هكذا بإطاعة الواحد (أى المسيح يسوع) سيجعل الكثيرون أبراراً» (رومية ٥: ١٥ ـ ٢١).

(ب) لذلك فكل من يشعر بشناعة الخطية التى تسربت إليه من آدم الأول، عليه أن يتنصل من علاقته به كرأسه العتيق ويلتصق بالروح بالإيمان الحقيقى بالمسيح الذى هو آدم الأخير، ومتحداً مع المسيح البار ومشتركاً معه فى استحقاقات كفارته من ناحية أخرى. فقد قال الوحى : «إذاً إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كورنثوس ٥: ١٧ و ١٨). أما إذا رفض إنسان الالتصاق بالمسيح، فإنه يكون قد فضل البقاء فى الحالة الجسدية التى آلت إليه بسبب نيابة آدم الأول، وبالتالى يكون قد أحب البقاء فى الخطيئة بمحض اختياره. وحينئذ لا تكون نيابة آدم الأول عنه نيابة شرعية بل نيابة اختيارية، وتكون الدينونة التى يستحقها ليست بسبب نيابة آدم عنه فى الامتحان والسقوط واستحقاق الموت، بل بسبب رفضه لنيابة المسيح عنه فى إيفاء مطالب العدالة الإلهية.

مما تقدم يتضح لنا أنه كما تسربت الطبيعة الخاطئة إلينا من آدم واشتركنا فى نتائجها دون أن نرتكب ذنباً، هكذا اقتضت حكمة الله السامية أن ننال حياة المسيح فى نفوسنا، ونشترك فى نتائج كفارته دون أن نقوم بدفع ثمنها لله، إذ كل ما علينا أن نعمله هو أن نقبل المسيح فى قلوبنا نائباً عنا ورأساً لنا، أو بالحرى أن نؤمن به إيماناً حقيقياً.

٢ ـ لماذا لم يجعل الله المسيح رأساً للخليقة من أول الأمر بدلاً من آدم، لأنه فى هذه الحالة لم يكن هناك مجال لوجود الخطيئة التى أساءت إلى الله وكلفته القيام بالفداء؟!

الرد : إن الله أقام آدم الأول رأساً للخليقة لأنه كائن أرضى ويستطيع أن يأتى بالبشر بواسطة التناسل الطبيعى. أما المسيح فلأنه كائن سماوى وليست له علاقة مع أحد إلا بالروح، كان من البديهى أن لا يظهر كرأس للخليقة الروحية الجديدة، إلا بعد أن يأتى آدم الأول. وليس هذا فحسب، بل وأيضاً بعد أن تظهر فى المخلصين من أولاده، الرغبة الحقيقية فى الإتصال بالله والتوافق معه.

* المسيح يسمى «الإنسان»، من جهة الناسوت.

هذا مع العلم بأن نيابة آدم الأول وما أنتجته من شر ليست هى التى دعت الله إلى إقامة المسيح نائباً ثانياً، بل بالعكس فإن نيابة المسيح هى الأساس فى مقاصد الله الأزلية، والدليل على ذلك أنه أعلن أن آدم الأول كان مجرد مثال للمسيح من جهة النيابة عن البشر كما يتضح من رومية ٥:١١، والمثال لا تقوم له قائمة إلا إذا كانت هناك حقيقة سابقة له يمثلها أو يرمز إليها.

٣ - إذا كان الخلاص هو بالمسيح وحده، فكيف خلص الأنبياء وغيرهم من الأتقياء الذين عاشوا قبل مجيئه إلى الأرض؟

الرد : مرّ بنا أن الله أوصى الناس فى العهد القديم بتقديم الذبائح كفارة عن نفوسهم. ولذلك كان كل من يتوب عن خطاياه ويقترب إلى الله بهذه الذبائح، كان يتمتع بالغفران والقبول أمامه تعالى، ليس لأن هذه الذبائح كانت فى ذاتها كافية للتكفير، بل لأنها كانت رمز إلى كفارة المسيح التى كانت معروفة لدى الله أزلاً. فقد قال الرسول للمؤمنين «عالمين أنكم أفتديتم .. بدم كريم، كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أظهر فى الأزمنة الأخيرة من أجلكم» (١بطرس ١:١٨). وقال غيره عن المسيح «الذى قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة (أى خطايا الذين آمنوا فى العصور السالفة للمسيح، وأظهروا هذا الإيمان بالتوبة إلى الله وتقديم الذبائح الرمزية) بإمهال الله، (و) لإظهار بره (أيضاً) فى الزمان الحاضر، ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع» (رومية ٣:٢٥ و ٢٦).

فالغفران بدم المسيح يمتد من الصليب إلى الخلف، فيجتاز كل العصور السابقة للميلاد حتى يصل إلى آدم قبل خروجه من الجنة ـ ولذلك لم يوقع الله عليه فى الحال حكم الموت الجسدى الذى ينبئ بوقوع العذاب الأبدى عليه بسبب الخطيئة، بل عفا عنه وأبقاه حياً على أساس الذبيحة الرمزية التى ارتضاها وقتئذ نيابة عنه. كما أن هذا الغفران يمتد إلى الأمام فيجتاز كل العصور التالية للميلاد لكى يخلص آخر إنسان يأتى إلى الأرض، طالما يؤمن بالمسيح إيماناً حقيقياً. ومن ثم فالمؤمنون الحقيقيون الذين عاشوا قبل الصليب خلصوا أمام الله بالنظر إلى المسيح الذى كان بالنسبة لهم عتيداً أن يأتى ويعلن كفارة الله، والمؤمنون الحقيقيون الذين عاشوا ويعيشون بعد المسيح يخلصون بالإيمان بأنه أتى وأعلن هذه الكفارة ـ الأمر الذى يتفق مع كمال الله ومحبته للبشر، فى كل العصور بلا استثناء.

٤ - إن الله يحب الناس جميعاً. ولذلك ليس من المعقول إطلاقاً أن يخلص فقط المنتمين إلى المسيح، لا سيما وأن كثيرين منهم خطاة مثل باقى الناس.

الرد : إن الذين يتمتعون بالخلاص ليسوا الذين ينتمون إلى المسيح (أو بالحرى ينتمون ظاهرياً

إليه)، لأن كثيرين من هؤلاء خطاة مثل باقى الناس، لكن الذين يتمتعون به (أى بالخلاص) هم الذين قبلوا المسيح فى نفوسهم مخلصاً لهم. ومن ثم ولدوا من الله مرة ثانية استطاعوا بها التوافق معه فى صفاته الأدبية السامية كما ذكرنا فيما سلف، وهؤلاء أقلية فى كل عصر من العصور. ولا غرابة فى ذلك فقد ذكر الوحى أنه من بين الآلاف الذين كانوا فى أيام الطوفان لم يخلص إلا ثمانية أشخاص (١بطرس ٣:٢٠). ومن بين سكان سدوم وعمورة العديدين لم يخلص إلا لوط وحده (٢بطرس ٢:٨).

٥ ـ إن عطف الله ورحمته لا حد لهما، ولذلك لا يمكن أن يهلك إلى الأبد جميع الذين لا يؤمنون بالمسيح إيماناً حقيقياً.

الرد : حقاً إن عطف الله ورحمته لا حد لهما، لكن يجب ألا يفوتنا أن قداسته وعدالته لا حد لهما أيضاً. وبما أن المؤمنين بالاسم وغير المؤمنين لا يبالون بالخلاص الذى يقدمه تعالى لهم مجاناً فى المسيح، لذلك فمن العدالة أن يحرموا منه، ومن العدالة كذلك ألا يطالبوا بأحقيتهم فيه.

فضلاً عن ذلك فالله فى الواقع ليس هو الذى يهلكهم، بل هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم، بسبب عدم رغبتهم فى الإتيان إليه والتمتع بخلاصه. وقد أشار المسيح إلى هذه الحقيقة فقال «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك (بفتح الياء لا بضمها) كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦)، كما أشار الله إليها من قبل على لسان الحكيم فقال «من يخطئ عنى يضر نفسه (ولست أنا الذى أضره)» (أمثال ٨:٣٦)، كما ذكرنا فى الباب الأول.

٦ ـ إذا كان الخلاص هو بكفارة المسيح وحدها، فما مصير الذين لم يسمعوا عنها، أو سمعوا عنها دون أن يدركوها؟

الرد : لسنا فى مركز القضاة الذين يقررون مصائر الناس حتى نجيب عن هذا السؤال، لكن نعلم علم اليقين أن الله يحب كل الناس بدرجة واحدة. فمكتوب «هكذا أحب الله العالم (أى العالم أجمع)» (يوحنا ٣:١٦)، وأنه بعلمه اللانهائى يقدّر ظروف كل منهم تقديراً صادقاً، كما يعرف قلب كل منهم معرفة دقيقة، ومن ثم لا يمكن أن يظلم أحداً أو يقسو على آخر. فالراغبون منهم بإخلاص فى التمتع برحمة الله والسلوك فى سبيله، لا يتركهم الله وشأنهم، بل يرسل لهم من يرشدهم ويهديهم، كما فعل مع كرنيليوس ووزير ملكة كنداكة وغيرهم (أعمال ٨:٢٩ ـ ٣٥، ١٠:٣٤).

٧ ـ وما ذنب الأطفال الذين لا يعرفون شمالهم من يمينهم؟

الرد : إن المسئولية (كما نعلم) لا تقع إلا على الذين يميزون بين الخير والشر، وبما أن الأطفال عامة لا يميزون بين هذا وذاك، لذلك لا تقع عليهم مسئولية شخصية أمام

الله* وبالتبعية لا يعتبرون مذنبين أمامه، حتى إن كانوا قد عملوا بالطبيعة ما ندعوه «خطيئة»، أما من جهة اعتبارهم خطاة شرعاً أمام الله (مثل غيرهم من الناس) بسبب تناسلهم من آدم الأول، فنقول : نظراً لعدم إدراك الأطفال ماهية الخير أو الشر، فالله لا يسمح بأن يضاروا بخطيئة آدم الأول، وألا يفيدوا من خلاص آدم الأخير الذى هو المسيح. فقد قال الوحى «ولكن ليس كالخطية هكذا أيضاً الهبة (أى أن هبات الله لنا على أساس كفارة المسيح، لا يمكن أن تقل عن نتائج خطيئة آدم علينا)، لأنه إن كان بخطيئة واحد (الذى هو آدم الأول) مات الكثيرون. فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية بالنعمة التى بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت لكثيرين» (رومية ٥: ١٥ ـ ٢٠). فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيح قال عن الأطفال إن «لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (مرقس ١٠: ٣ ـ ١٥)، وإنه لا يريد أن يهلك واحد منهم على الإطلاق (متى ١٨: ١٠ ـ ١٤)، لا يبقى لدينا شك فى أن الأطفال عامة لا يهلكون بفضل كفارة المسيح.

ولكن يجب أن لا يفوتنا أنه مع عدم هلاكهم، فإن إدراكهم فى الأبدية سوف لا يكون مثل إدراك المؤمنين الذين سمت حياتهم الروحية، بالإفادة من محبة الله الغنية التى تجلت فى كفارة المسيح، والبركات السامية التى ترتبت عليها. كما أنه سوف لا تكون لهم أكاليل أمام كرسى المسيح نظير المؤمنين الذين خدموا الرب بإخلاص فى العالم الحاضر، لأن الأكاليل ستعطى عن الخدمة والجهاد بعد الإيمان (٢تيطس ٤: ٧ و ٨)، ١بطرس ٥: ٤ ، يعقوب ١: ١٢ ، رؤيا ٢: ١٠)، ومن ثم تكون مكانة الأطفال فى الأبدية مثل مكانة المؤمنين البسطاء فى الإيمان، ولا مجال للاعتراض على ذلك بحال.



* ومما يثبت هذه الحقيقة أننا إذا رجعنا إلى اجراءات الدينونة الواردة فى رؤيا ٢٠: ١١ و ١٢، نرى أن الأشرار يدانون على قياس مسئوليتهم حسب ما هو مكتوب فى الأسفار عن أعمالهم. ولذلك فإن الذين لا إدراك لهم لا يقفون أمام عرش الدينونة، بل كما ورثوا الخطيئة من آدم دون إرادتهم، يتمتعون بالخلاص والحياة الأبدية مجاناً بفضل كفارة المسيح دون أى إجراء من جانبهم.

(٣)

برارة موقف الله إزاء المؤمنين الحقيقيين

١ ـ إذا كان المؤمنون الحقيقيون لا يعاقبون عن خطاياهم إلى الأبد، لذلك لهم أن يخطئوا ويهملوا فى الأعمال الصالحة كما يريدون، وهذا ما يساعد على انتشار الشر فى العالم، وفى الوقت نفسه يتعارض مع قداسة الله كل التعارض.

الرد : إن المؤمنين الحقيقيين كما ذكرنا فى الباب السابع، ولدوا مرة ثانية من الله، وحصلوا منه على طبيعة روحية تكره الخطيئة وتمقتها، لذلك فإن فكرة جواز سلوكهم فى حياة الشر، هى فكرة بعيدة الاحتمال. فقد قال الرسول عن نفسه وعن هؤلاء المؤمنين «نحن الذين متنا عن الخطيئة، كيف نعيش بعد فيها!!» (رومية ٦ :٢)، لأن النعمة التى خلصتهم تعلمهم أن ينكروا الفجور والشهوات العالمية وأن يعيشوا بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر (تيطس ٢ :١٢).

فضلاً عن ذلك، فإن الطبيعة الروحية التى حصل عليها هؤلاء المؤمنون من الله، من شأنها أن تقودهم للقيام بالأعمال الصالحة بكثرة ووفرة. وإذا قصّروا مرة فى شئ من هذه الأعمال، لا يشعرون براحة أو سلام فى نفوسهم. ولذلك يحاولون القيام بالأعمال المذكورة بكل ما لديهم من قوة لكى يريحوا ضمائرهم، وقبل كل شئ لكى يمجدوا الله الذى أحبهم وأكرمهم. وقد أشار الرسول إلى أن المؤمنين الحقيقيين طبعوا على القيام بالأعمال الصالحة، فقال عن نفسه وعنهم معاً «مخلوقين (مرة ثانية) فى المسيح يسوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها» (أفسس ٢ :١٠).

٢ ـ إذا كان المؤمنون الحقيقيون قد حصلوا من الله على طبيعة روحية، فلماذا يفعلون الخطيئة أحياناً مثل غيرهم من الناس؟!

الرد : إن المؤمنين الحقيقيين بحصولهم على الطبيعة الروحية، لا تتغير الطبيعة العتيقة التى ولدوا بها، لأن هذه غير قابلة للتغيير، مثلها فى ذلك مثل طبائع الكائنات الأخرى، ومن ثم فإنهم يتعرضون للسقوط فى الخطيئة إذا لم يحفظوا أنفسهم فى حالة الانقياد بروح الله فى كل حين. لذلك قال الرسول لهم «اسلكوا بالروح، فلا تكملوا شهوة الجسد» (غلاطية ٥ :١٦ و ١٧). ومع كل فإن

هؤلاء المؤمنين يختلفون كل الاختلاف عن غير المؤمنين والمؤمنين بالاسم، من جهة موقفهم إزاء الخطية. لأنهم إذا سقطوا فيها مرة لسبب ما، لا يطيقون البقاء فيها، ومن ثم يسرعون إلى النهوض منها والعودة إلى حياة الصلة بالله والطاعة له. مثلهم فى ذلك (إن جاز التشبيه) مثل الإبرة المغناطيسية، فإنها إذا انحرفت عن اتجاهها الأصلى تحت تأثير عامل ما، سعت بطبيعتها للعودة إلى هذا الاتجاه بكل سرعة. أو مثل الحملان التى إذا سقطت فى الوحل مرة، لا يحلو لها البقاء فيه لحظة، بل تنهض بكل سرعة وتنفض ما علق بها منه.

٣ - لماذا لا يخلص الله المؤمنين الحقيقيين من الطبيعة العتيقة؟

الرد : (ا) إن الطبيعة العتيقة كما ذكرنا فيما سلف، غير قابلة للتغيير، كما أنها لا تتلاشى إلا بموت صاحبها. ومع كل فالله وإن لم يخلص المؤمنين الحقيقيين منها، غير أنه حررهم من سيادتها عليهم، إذ أدانها وحكم عليها بالموت فى الصليب. وبذلك أصبحت بمثابة حاكم معزول من منصبه. وحاكم مثل هذا لا يخضع له من يعرف حقيقته. وقد أشار الرسول إلى هذا الموضوع فقال لهؤلاء المؤمنين فى رومية ٦: ١١ - ١٤ «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. إذاً لا تملكنّ الخطية فى جسدكم المائت لكى تطيعوها فى شهواته، ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطيئة، بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات، وأعضاءكم آلات بر لله. فإن الخطيئة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس (الذى يأمر بوصايا دون أن يساعد على القيام بها، وبذلك قضى على الجميع الذين خضعوا له بالموت الأبدى) بل تحت النعمة» التى خلصتكم من هذا الموت وتمدكم فى المسيح بكل ما تحتاجون إليه من القوى الروحية، التى تساعدكم على التوافق مع الله فى صفاته الأدبية السامية.

(ب) فإذا أضفنا إلى ذلك أنه لو كان الله قد خلص المؤمنين الحقيقيين من الطبيعة العتيقة، لفقدوا حرية الاختيار أو الإرادة الحرة، من جهة الامتناع عن الشر والقيام بالخير، ولأصبحوا أقرب إلى الآلات الصماء التى تقوم بأعمالها دون وعى أو إدراك، منهم إلى الكائنات العاقلة التى تقوم بأعمالها بإرادة حرة طليقة، اتضح لنا أنه كان من الضرورى أن يترك الله الطبيعة العتيقة فى هؤلاء المؤمنين، لكى يظهروا عملياً مقدار كراهيتهم للخطيئة، ورغبتهم الشخصية فى القيام بالأعمال الصالحة فى العالم الحاضر، حتى إذا كوفئوا فى الأبدية، تكون مكافأتهم عن استحقاق.

٤ - إذا كانت الطبيعة العتيقة لا تنتزع من المؤمنين الحقيقيين، فكيف يكونون مقبولين لدى الله، والله كما نعلم يكره الخطيئة الباطنية كما يكره الخطيئة الخارجية.

الرد : إن المسيح باتخاذه مركز النيابة عنا نحن المؤمنين، يعتبر الصلب الذى نفذ فيه فعلاً أنه

نفذ فينا (أو بالحرى فى طبيعتنا العتيقة الخاطئة) شرعاً، فقد قال الرسول لنا إن إنساننا العتيق قد صلب معه (أى مع المسيح)، وإننا متنا معه (رومية ٦:٦ و ٧). وبما أننا صلبنا مع المسيح ومتنا معه شرعاً، نكون قد خلعنا شرعاً جسم خطايا البشرية (كولوسى ٢:١١ ـ ١٣)، وبالتبعية أصبحنا، مع بقاء الطبيعة العتيقة فينا، مقبولين وكاملين فى المسيح أمام الله شرعاً ـ وهذا المقام لا يدعونا طبعاً للتهاون مع الخطيئة، بل بالعكس يدعونا للتدقيق فى سلوكنا حتى يكون متوافقاً مع مقامنا، كما ذكرنا فيما سلف.

٥ ــ ما موقف الله إزاء مؤمن حقيقى يسقط فى الخطية، ولا ينهض للتو منها؟

الرد : (ا) إن الله يستخدم كل الوسائل لهداية هذا المؤمن وإعادته إليه، وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد أو عن طريق تجارب الحياة المتنوعة، لأنه (أى هذا المؤمن) هو من أولاده الذين ولدهم مرة ثانية لرجاء حى (١بطرس ١:٣)، وتعهد المسيح برعايتهم والعناية بهم إلى نهاية الحياة (يوحنا ١٠:١٤ ـ ١٨) وداود النبى الذى اختبر هداية الله له بعد الانحراف، قال مرة عنه «يرد نفسى، يهدينى إلى سبل البر، من أجل اسمه» (مزمور ٢٣:٤).

(ب) أما إذا استمر مؤمن حقيقى فى عمل الخطيئة، فإن الله يؤدبه حتى يثوب إلى رشده ويقلع عن خطيئته. وهذا التأديب قد يكون مرضاً أو ضيقاً أو خسارة أو .. أو .. فقد قال الرسول «لأنه لو كنا حكمنا على أنفسنا (وسرنا فى خوف الله) لما حكم علينا. لكن إذ قد حكم علينا نؤدب من الرب لكى لا ندان مع العالم» (١كورنثوس ١١:٣٢). وقال أيضاً «لأن الذى يحبه الرب يؤدبه، ويجلد كل ابن يقبله. فأى ابن لا يؤدبه أبوه!!» (عبرانيين ١٢:٦). ومن ثم قال الرسول للمؤمنين «وإن كنتم تدعون أباً الذى يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد، فسيروا زمان غربتكم بخوف» (١بطرس ١:١٧)، وطبعاً ليس خوف الارتعاب من الله بل خوف الوقار أمامه.

٦ ــ كيف لا يدان فى الأبدية كل المؤمنين الحقيقيين الذين يسقطون فى الخطيئة مثل غير المؤمنين والمؤمنين بالإسم؟ ولو فرضنا جدلاً أنهم سوف ينتقلون إلى السماء، فكيف يمكن أن يتوافقوا مع الله فى قداسته هناك؟!

الرد : إن المسيح بتقديم نفسه كفارة على الصليب، حمل قصاص خطايا من يؤمنون به إيماناً حقيقياً. وبما أن عدالة الله لا تطالب بحقها مرتين، لذلك لا يدان المؤمنون الحقيقيون فيما سلف. أما من جهة الشطر الثانى من الاعتراض فنقول : بما أن هؤلاء المؤمنين حصلوا بالولادة الثانية من الله على طبيعة روحية تتوافق معه فى صفاته الأدبية السامية، ونظراً لأنهم بانتقالهم من العالم الحاضر يخلعون فعلاً الطبيعة العتيقة التى تجنح بهم الآن إلى الخطيئة، لذلك لا يبقى هناك ما يمنعهم من

التوافق مع الله فى قداسته فى العالم الآخر.

٧ - إذا كان المؤمنون الذين يسقطون فى الخطيئة سيتمتعون بالله فى العالم الآخر، يكون الله قد وضعهم جنباً إلى جنب مع المؤمنين الذين يحفظون أنفسهم بعيداً عن الخطيئة. ويقومون بخدمته وحفظ وصاياه فى العالم الحاضر، وهذا لا يتفق مع العقل؟

الرد : لا مجال لهذا الاعتراض فإن الله سيكافئ المؤمنين الحقيقيين، الذين حفظوا أنفسهم بعيداً عن الخطيئة، وقاموا بخدمته وحفظ وصاياه بمكافأة خاصة، فقد قال الوحى «إن بقى عمل أحد قد بناه عليه (أى على الإيمان بالمسيح)، فسيأخذ أجرة» (١كورنثوس ٣:١٤)*، أما غيرهم من المؤمنين الحقيقيين وإن كانوا سيتمتعون بالله إلى الأبد بفضل كفارة المسيح، لكنهم سيخسرون الأجرة السابق ذكرها. فقد قال الوحى «إن احترق عمل أحد فيسخسر (أى يخسر الأجرة)، أما هو فسيخلص (من الدينونة الأبدية)، ولكن (خلاص هذا المؤمن، يكون) كما بنار» (١كورنثوس ٣:١٥)، أى كخلاص شخص شبت النار فى بيته فأحرقت كل ما لديه، أما هو فنجا بنفسه فحسب، كما كانت الحال مع لوط قديماً (تكوين ١٩:٢).

٨ - أليس الاعتقاد بأن المؤمنين الحقيقيين الذين يخطئون لا يتعرضون للدينونة الأبدية. يدفعهم للتباهى بأنفسهم، وهذا ما لا يليق بهم أو بغيرهم على الإطلاق؟

الرد : فضلاً عن أن هؤلاء المؤمنين يتعرضون لتأديب الله فى الزمن الحاضر كما ذكرنا فيما سلف، الأمر الذى يدعوهم للسلوك بكل تواضع أمامه تعالى. فإن عدم تعرضهم للدينونة لا يدعوهم للتباهى بأنفسهم، لأن خلاصهم منها يتوقف أولاً وأخيراً على كفارة المسيح. ولذلك فإنهم إذا افتخروا، لا يفتخرون بأنفسهم بل بالرب دون سواه (٢كورنثوس ١٠:١٧).

أما الذين يتباهون بأنفسهم فهم الذين يفتخرون بالأعمال التى تدعى الصالحة، ويعتقدون أنهم أهل بها للحصول على الحياة الأبدية، دون الذين لم يقوموا فى نظرهم بمثل هذه الأعمال، كما كانت الحال مع الفريسى الوارد ذكره فى لوقا ١٨:١٠، غير عالمين أن هذه الأعمال فضلاً عن أنها لا تكفر عن خطيئة واحدة من خطاياهم، فهى ملطخة بنقائص متعددة تجعلهم وحدها خطاة أمام الله كما ذكرنا فى الباب الثانى. وحتى إذا كانت خالية من هذه النقائص فإنها ليست فضلاً منهم يستحقون عنه جزاء، بل هى واجب إذا قصروا فى أدائه، أضافوا إلى خطاياهم خطايا أخرى.

---

* وهذه الأجرة أو المكافأة ليست طبعاً هى الحياة الأبدية، بل إنها مجد خاص بجانب هذه الحياة. لأن الحياة الأبدية هبة من الله على أساس كفارة المسيح (رومية ٦:٢٣)، وليست أجرة عن أعمال صالحة.

٩ ـ إذا كان المسيح قد خلص المؤمنين الحقيقيين من قصاص الخطيئة، وكان الموت الجسدى جزءاً من قصاصها، فلماذا يموتون هذا الموت مثل غيرهم من الناس؟

الرد : إن الموت لا يتطرق إلى الأشخاص الخالين من الخطيئة والمعصومين منها ، والحال أن أجساد المؤمنين الحقيقيين، مثل أجساد غيرهم من الناس، تكمن فيها الطبيعة الخاطئة (والفرق الوحيد بين الفريقين أن المؤمنين الحقيقيين يسمون بنعمة الله فوق هذه الطبيعة، أما غيرهم من الناس فيخضعون لها) ، ولذلك كان من البديهى أن يتطرق الموت إلى أجسادهم أيضاً. ومع كل، فبسبب حصول المؤمنين المذكورين على الغفران والقبول الأبدى أمام الله فى المسيح، لم يعد الموت الجسدى موتاً لهم بل أصبح انتقالاً إلى السماء. كما أنه عن طريق هذا الانتقال، ينتهى أمر الطبيعة العتيقة فيهم. ولذلك صاح أحدهم قائلاً «لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً، لأ لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح» (فيلبى ١:٢١ ـ ٢٤). وأيضاً «لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضى (أى أجسادنا الأرضية المؤقتة)، فلنا فى السماء بناء من الله (أى جسد سماوى) غير مصنوع بيد، أبدى. فنثق ونسر بالأولى أن نتغرب عن الجسد (أى ننتقل من هذا العالم)، ونستوطن عند الرب» (٢كورنثوس ٥:١ ـ ٨). ولذلك يطلق الوحى على الموت بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين «رقاداً» أو «نوماً» (يوحنا ١٢:١١)، لأنهم يقومون بعده بنشاط روحى إلى حياة سعيدة، وذلك بأجساد سماوية مثل جسد المسيح نفسه. فمكتوب عنه أنه سيغير شكل جسد تواضعنا لكى يكون على صورة جسد مجده» (فيلبى ٣:٢١)، ولذلك فإنهم دون غيرهم من الناس، لا يخشون الموت ولا ما بعد الموت.

فما أعظم محبة الله التى تجلت فى الفداء الذى قام به لأجلنا فى المسيح، وما أثمن البركات التى آلت إلينا بسبب هذا الفداء!! إننا مهما شكرنا الله لا نستطيع أن نفيه ذرة مما يجب علينا إزاء أفضاله. ولذلك لا يسعنا إلا نخرّ أمامه ساجدين معطين إياه الكرامة والمجد والعظمة والسلطان إلى أبد الآباد ـ أمين.



الملحق

شرح النقاط المشار إليها بالأرقام فى الأبواب السالفة

الباب الأول

(١) يراد بالتنبؤ فى الكتاب المقدس الإيتاء بالغيب، ويراد أيضاً الإنباء عن الله بالوعظ والتعليم (أعمال ١٥:٣٢)، كما هى الحال فى اللغة العربية. فإن كلمة «النبى» مشتقة من «النبأ» أى «الخبر»، ومن ثم يكون الأشخاص المذكورون قد تنبئوا باسم المسيح أو وعظوا عنه، والحال أن قلوبهم لم تكن مقدسة تماماً له، مثلهم فى ذلك مثل شاول الملك الذى مع أنه كان يتنبأ مع الأنبياء (١صموئيل ١٠:٦)، غير أنه كان بعيداً بقلبه عن الله (١صموئيل ١٥:٢٨). أو مثل الوعاظ الذين ينادون بكلمة الله، ومع ذلك لا يعملون بها. وهكذا الحال من جهة إخراج الشياطين، فالله قد يعطى بعض الناس سلطاناً على إخراج الشياطين لكى يستثمروه فى خدمة المحتاجين إليه. لكن إذا انحرفوا عنه تعالى كان عذابهم وبيلا، مثلهم فى ذلك مثل يهوذا الإسخريوطى. فقد كان يصنع معجزات مثل الرسل، لكن لشره هلك إلى الأبد.

(٢) فالسبيل الذى يؤدى إلى سعادة الإنسان، يختلف إذاً عن ذاك الذى يؤدى إلى سعادة الحيوان. فالحيوان يهنأ إذا وجد طعاماً وشراباً ومأوى. أما الإنسان (وبالحرى الإنسان النبيل) فمهما توافرت لديه هذه الأمور، فإنه يشعر بحاجته إلى شئ آخر. وهذا الشئ الآخر، عرف هذا الإنسان أم لم يعرف، هو الله.

ومن هذا يتضح لنا أن السعادة الحقيقية التى عجز كثير من الناس عن الاهتداء إليها، لا تكون بواسطة إراحة الجسد وإشباع شهواته، بل بواسطة إراحة النفس وإشباعها. لأن النفس، وليس الجسد، هى الجوهر الرئيسى فى الإنسان. وإراحة النفس وإشباعها لا يتحققان إلا فى وجودها مع الله، لأنه خالقها ومصدر حياتها، ومن ثم فإنها إذا ابتعدت عنه، حل بها الشقاء. وقد اختبر هذه الحقيقة الذين ليست لهم علاقة حقيقية بالله فقال جان جولد المليونير المشهور :"إنى أتعس مخلوق على الأرض". وقال تشارلس لام العالم الشهير فى فحص المعادن : "إنى أسير هنا وهناك فى جلال ويظن من يرانى أنى سعيد، لكن الحقيقة غير ذلك" وقال هوارد هيوز المليونير الأمريكى وأغنى رجل فى العالم (فى ذلك الوقت) "إنه ليس سعيداً على الإطلاق - الأهرام ١٩٧٢/١/١١".

(٣) إننا لا ننكر أن أشراراً كثيرين يحيون حياة الرغد والسعة فى العالم الحاضر، وأن أتقياء كثيرين يحيون حياة الضيق والضنك فيه. لكن ليس هذا دليلاً على أن الخطيئة لا تورث المتاعب والآلام (لأن هذا أمر لا يختلف فيه إثنان)، بل دليلاً على أن الله فى حكمته السامية يعامل كل إنسان بالمعاملة التى تصلح من

شأنه. فقد يحسن بخير جزيل إلى إنسان شرير، لكى يتأثر ضميره ويتوب عن شره. وقد يسمح بالتجارب لإنسان يتقيه، إذا وجد أن حياة الرغد والسعة تحول بينه وبين التقدم فى حياة التقوى، التى هى أعظم حياة فى الوجود.

(٤) إن الجنة التى خلقها الله لآدم كانت جنة مادية بها طعام وشراب ماديان، وهذه الجنة قد اندثرت تماماً بواسطة الكوارث، ولا سيما الطوفان الذى حلّ بالأرض فى أيام نوح، ومن ثم لم يبق لها أثر على الإطلاق. ولذلك فالمؤمنون الحقيقيون لا يذهبون إلى الجنة بعد انتقالهم من العالم الحاضر كما يظن بعض الناس، بل يذهبون (كما قال الوحى) إلى الفردوس، أو بالحرى إلى السماء الثالثة (٢كو رنثوس١٢: ٢ - ٤)، وفى هذه السماء لا مجال للمتع الجسدية على الإطلاق. فقد قال الوحى عن الذين سيحظون بالوجود هناك، إنهم لا يزوجون ولا يتزوجون كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون، إذ أن متعهم هناك ستكون من أولها إلى آخرها متعاً روحية محض (متى ٢٢:: ٣٠ ، رومية ١٤: ١٧). لأ هذه المتع هى التى تتوافق مع الأجساد الممجدة التى سيلبسونها فى السماء، كما تتوافق مع روحانية الله المطلقة، الذين سيحيون معه إلى أبد الآباد.

(٥) إن شجرة الحياة لم تكن هى شجرة «معرفة الخير والشر» التى نهى الله آدم عن الأكل منها من قبل، بل كانت شجرة غيرها (تكوين ٢: ٩). كما أن شجرة الحياة هذه لم تكن فى ذاتها هى التى ستمنع الموت عن آءم وزوجته لو كانا قد أكلا منها، لأنها كانت شجرة مادية، والأشياء المادية لا تستطيع أن تهب حياة أبدية لمن يأكل منها، لكنها كانت رمزاً إلى المسيح (رؤيا ٢٢: ١٤) الذى يستطيع أن يهب هذه الحياة، لكل من يتغذى روحياً به (يوحنا ٦: ٥١). وطبعاً لم يسمح الله لآدم بالأكل من شجرة الحياة بعد سقوطه فى الخطيئة (تكوين ٣: ٢٤)، لئلا يحيا إلى الأبد فى خطاياه، فيكون ذلك وبالاً عظيماً عليه وعلى نسله إلى الأبد.

(٦) يقول بعض الشراح إن كلمة «جهنم» مشتقة من كلمة «جى هنوم» أو بالحرى «وادى هنوم» الذى كانت تحرق فيه الضحايا البشرية كل يوم قرباناً للوثن مولوك (٢ملوك ٢٣: ١٠ ، إشعياء ٦٦: ٤)، وكان من لا تصيبه النار من هذه الضحايا، يصبح مسرحاً للدود. فاتخذ الوحى اسم «جى هنوم» الذى يعرفه الناس وأطلقه على مكان عذاب الأشرار الأبدى الذى لا يعرفونه. وجهنم ليست هى الهاوية، لأن الهاوية بقسميها هى المكان العام الذى تنطلق إليه الأرواح بعد خروجها من أجسادها. والقسم الأول خاص بأرواح الذين لهم علاقة حقيقية مع الله، ويدعى «الفردوس» (لوقا ٢٢: ٤٣)، والقسم الثانى خاص بأرواح الذين ليست لهم مثل هذه العلاقة معه، ويدعى «السجن» (١بطرس ٣: ١٩). ولا شك أن الذين يدخلون السجن بأرواحهم يشعرون بشئ من العذاب الأبدى الذى سيطرحون فيه يوم الدينونة بأرواحهم وأجسادهم معاً، فيتألمون قبل نزول هذا العذاب بهم. أما الذين يدخلون الفردوس بأرواحهم، فيشعرون بشئ من السعادة الأبدية التى تنتظرهم عند قيامة أجسادهم من الأموات، فيفرحون قبل قيامتهم بها.



البابان الثانى والثالث

(١) ولد هذا الفيلسوف فى الدانيمارك سنة ١٨١٣، ويعتبر من أشهر علماء النفس فى العصر الحديث. وأكثرهم تفكيراً فى الأمور الروحية. وهو لم يبتدع رأياً فلسفياً معيناً، بل عنى بالوجود الفعلى أكثر من النظرى. ومن أهم آرائه : أولاً - أن الله لا يشرق بمعرفته على الإنسان، إلا إذا وقف الإنسان أمامه مجرداً من كل تصنع وإدعاء بالصلاح، وعرف فساد طبيعته والمصير المرعب الذى ينتظره، وثانياً - إن الحق الروحى ليس هو الحق النظرى، بل هو الحق العملى المؤيد بالاختبار الشخصى، والذى يدفع المرء ثمنه بنفسه، لذلك يجب على طالب الحق أن لا يكتفى بالتطلع إليه من النافذة أو الشرفة، بل أن ينزل إلى الطريق ويسير فى ركابه، حتى تمتزج نفسه به كل الامتزاج - وهذه الآراء تعتبر تفسيراً صحيحاً لأقوال الكتاب المقدس عن الحياة الروحية.

(٢) الحيوانات ليست طاهرة أو نجسة فى ذاتها، لأن الطهارة هى الخلو من الخطيئة، والنجاسة هى التلوث بها، والحيوانات لا تعرف الخطيئة حتى تتجنبها أو تعملها. لكن الله قسّم الحيوانات إلى طاهرة ونجسة لغرضين : الأول - لكى يكون بعضها مثالاً للطاهرين، والبعض الآخر مثالاً للنجسين، وذلك أمام القدماء الذين لم يكونوا قد أدركوا بعض المعانى الأدبية المجردة للطهارة أو النجاسة. وقد راعى الله فى هذا التقسيم، وجود مميزات فى كل فريق من هذه الحيوانات تشير إما إلى الطهارة أو إلى النجاسة. فالحيوانات الطاهرة التى تشير إلى الطاهرين هى التى تجتر ويشق ظلفها، مثل الحملان والبقر. والحيوانات النجسة التى تشير إلى النجسين هى التى لا تجتر أو يشق ظلفها، مثل الخنازير والكلاب - والاجترار رمز إلى خاصية التأمل الباطنى من وقت إلى آخر فى كلمة الله بعد مطالعتها، لكى تؤثر فى النفس تأثيراً مقدساً فى كل حين. وشق الظلف رمز إلى توافر القدرة على السلوك بلا عثرة على الرغم من الشر الموجود فى العالم لأن الحيوانات المشقوقة الظلف هى وحدها التى تستطيع السير على الصخور وفى الأوحال دون أن تسقط على الأرض. والغرض الثانى - لكى يعلم الله البشر بطريقة ملموسة أن الفادى يجب أن يكون طاهراً (أو بالحرى خالياً من الخطيئة خلواً تاماً)، إذ أنه لو كان خاطئاً لكان يقع تحت قضاء الدينونة. ومن ثم لا يستطيع أن يكون فدية أو كفارة عن غيره، لأنه يكون هو شخصياً فى حاجة إلى من يكفر عنه أو يفتديه.

(٣) مما تجدر الإشارة إليه فى هذه المناسبة أن اليهود يعتزون اعتزازاً عظيماً بطاعة إبراهيم التى تجلت فى تقديم ابنه لله على المذبح، حتى أنهم يطلبون منه أن يرحمهم بسببها، فيقولون فى صلاة الربطة "أذكر لنا أيها الرب إلهنا ربط إبراهيم لابنه إسحق على المذبح، عندما أخمد نار محبته الأبوية ليفعل مشيئتك" (The Glory of the Cross P. 72) ولكن هل يمكن أن يرحم الله إنساناً خاطئاً لأن أحد أجداده كان يتقيه؟

(٤) سمى عيد المظال بهذا الإسم، لأن اليهود جميعاً كانوا يسكنون معاً فى مظال (لاويين ٢٣:٣٤). وكان ذلك رمزاً إلى تغربهم فى البرية أربعين سنة، كما كان رمزاً إلى إزالة الفوارق الاجتماعية وانتشار السلام بين الناس عندما يملك المسيح على الأرض فى مجيئه الثانى (إشعياء ٣٠:٢٣ - ٢٦ ، ١١:٦ - ٩).

(٥) أما الخطايا التى ترتكب عمداً فلم تكن لها كفارة ما، بل كان من الواجب أن يقتل أو يرجم فاعلها (اقرأ مثلاً لاويين ٢٠: ١٠، عدد ١٥: ٣٥) وذلك بناء على أقوال الله: «وأما النفس التى تعمل بيد رفيعة (أى عمداً) من الوطنيين أو من الغرباء، فهى تزدرى بالرب، فتقطع تلك النفس من بين شعبها لأنها احتقرت كلام الرب ونقضت وصيته» (عدد ١٥: ٣٠). وقد قصد الله بذلك أن يعلمنا وجوب الابتعاد عن الخطيئة كل البعد.

(٦) وقد أشار إلى عبادة القدماء لله الواحد كثير من العلماء فقال د. ستيفن هربرت، أحد الثقاة فى الحفريات وأستاذ العلوم الأشورية بجامعة أكسفورد "إن عقيدة الوحدانية فى الديانات السامية والسومرية قد سبقت الإيمان بعديد من الآلهة". وقال سير بيتر رينيو الذى ترجم كتاب الموتى لقدماء المصريين "منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ارتفعت فى ربوع وادى النيل أصوات التسبيح للإله الواحد". وقال الأستاذ سميث فى كتابه تطور الديانات "من يدرس الآثار القديمة فى مختلف أنحاء العالم، يدرك أن القبائل البدائية كان يسودها فى أول الأمر الاعتقاد بإله واحد".

(٧) لكن بعض المؤرخين يعللون تسمية التمثال بالإله المجهول، بالقول إن كارثة حلت مرة ببلاد اليونان، فأراد أهلها أن يسترضوا الإله الذى أصابهم بها. فأتوا بحمل صغير وتركوه يسير أمام تماثيل آلهتم، وأضمروا فيما بينهم أن التمثال الذى يقف أمامه الحمل، يكون هو تمثال الإله الذى أصابهم بهذه الكارثة. غير أن الحمل لم يقف أمام تمثال ما، بل وقف فى مكان بعيد عن التماثيل جميعاً، لذلك بنوا مذبحاً فى هذا المكان، وقالوا عنه إنه "لإله مجهول".



الأبواب من الرابع إلى السادس

(١) إن الله كان يظهر لليهود فى صوت دون هيئة ما، لئلا يعملوا له تمثالاً يسجدون له. فقد قال موسى النبى لبنى إسرائيل «وكلمكم الرب من وسط النار، وأنتم سامعون صوت كلام. ولكن لم تروا صورة بل صوتاً» (تثنية ٤: ١٢ - ١٥). أما فى حالة عدم احتمال عمل تمثال له بسبب الرسوخ فى الإيمان، فكان يظهر فى هيئة ملاك أو إنسان (لأنها الهيئة التى يمكن للبشر التوالف بها معه)، فظهر فى الهيئة الأولى لهاجر. ولما أدركت أنه الله بعينه، قالت له «أنت إيل رئى» أى «أنت إله حقيقى يمكن رؤيته» (تكوين ١٦: ١٠ - ١٣). وظهر فى الهيئة الثانية لمنوح أبى شمشون. ولما سأله هذا عن اسمه قال له «لماذا تسأل عن اسمى وهو عجيب؟!» وعندما تجلت حقيقة هذا الإنسان عند صعوده إلى السماء، سقط منوح هو وزوجته على الأرض، قائلاً لها «نموت موتاً لأننا قد رأينا الله» (قضاة ١٣: ١٨) - وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب "الله - وطرق إعلانه عن ذاته".

(٢) مما تجدر الإشارة إليه أن المسيحية وحدها هى التى تعلن أن الله يحب جميع الناس، وليس الصالحين منهم فحسب كما تقول غيرها من الأديان. ومحبة الله لنا ليست هى الرحمة والشفقة فحسب (كما يظن البعض)، بل هى (إن جاز التعبير) التعلق بنا تعلقاً يجعله يجد كل سروره فينا، كما يجعله يضحى بكل عزيز وغال لديه فى سبيل إسعادنا. ولإيضاح الفرق بين المحبة وبين الرحمة بمثل مادى نقول: قد تأخذنا الشفقة

أحياناً على مجرم أثيم وصل إلى أحط درجات البؤس والشقاء، فنمده (مثلاً) بما يحتاج إليه من غذاء أو كساء، ولكننا لا نستطيع أن نأتى به إلى منزلنا ليعيش بين أفراد عائلتنا ويأكل ويشرب ويتسامر معنا، وذلك بسبب اختلاف أخلاقه عن أخلاقنا كل الاختلاف. فنحن بتصرفنا هذا، نكون قد أشفقنا عليه، لكن لا نكون قد أحببناه. والرحمة الخالية من المحبة قاسية كل القسوة، ولا تقبلها إلا النفوس الدنيئة الحقيرة، كما أنها لن تكون عاملاً فى تهذيب هذه النفوس أو إصلاحها. أما الله جل شأنه فلا يشفق على الخطاة فقط بل ويحبهم أيضاً، ومن ثم فإنه يتحمل فى نفسه خطاياهم، بل ويعمل على تأهيلهم للتوافق الروحى معه، الأمر الذى يملأ المخلصين منهم بالمحبة الخالصة له، ويجعلهم يحفظون وصاياه ويتفانون فى خدمته وإكرامه دون النظر إلى جزاء أو ثواب.

(٣) كان بنو إسرائيل قد تذمروا على الله فى البرية، فأثار عليهم الحيات المحرقة، فلدغت عدداً كبيراً منهم. ولما رأى الباقون أنهم سيموتون حتماً مثل غيرهم، هرعوا إلى موسى وقالوا له : قد أخطأنا، فتضرع إلى الله ليرفع عنا الحيات. فصلى موسى لأجلهم. فقال الله له : اصنع لك حية من نحاس وضعها على راية، فكل من لدغ ونظر إليها يحيا (عدد ٢١: ٤ - ٩) - والحية النحاسية هذه كانت رمزاً إلى المسيح من النواحى الآتية : **أولاً** - إنه لم يكن بها سم مثل الحيات، والمسيح لم تكن به خطيئة مثل الناس. **وثانياً** - إنها لم تكن فى ذاتها حية بل كانت شبه حية. والمسيح وإن كان قد ظهر فى الهيئة كإنسان مثلنا، لكنه لم يكن فى حقيقة ذاته واحداً منا، فقد كان يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً، كما أنه ولد من عذراء لم تعرف رجلاً على الإطلاق. **ثالثاً** - إن الموت أتى إلى بنى إسرائيل عن طريق حية، ولذلك شاء الله أن يكون خلاصهم منه عن طريق حية من نوع آخر. وهكذا الحال من جهة الخطيئة التى تؤدى إلى العذاب الأبدى، فإنها دخلت إلى البشر بواسطة آدم الذى هو المسيح (رومية ٥: ١٢ - ١٩). **رابعاً** - إن النظر الجسدى إلى الحية النحاسية كان هو السبيل الذى عينه الله للشفاء من لدغة الحيات المحرقة، والنظر الروحى إلى المسيح أو بالحرى الإيمان الحقيقى به، هو السبيل الذى عينه الله للخلاص من الخطيئة وعذابها (يوحنا ٣: ١٦).

(٤) لأنه سيتولى هذا الملك بعد نهاية الأسبوع السبعين (الذى يفصله عن الأسابيع الاثنين والستين الأخيرة، مدة وجود المؤمنين الحقيقيين بالمسيح على الأرض، لأن هؤلاء لا علاقة لهم على الإطلاق باليهود. ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى أثناء الأسبوع السبعين سيكون ضيق شديد لم يكن مثله، وذلك بسبب الشر والإلحاد اللذين سيسودان العالم وقتئذ. وفى نهاية الأسبوع سيظهر المسيح ويطهّر العالم من الشر والأشرار، لأنه مكتوب يطهر ملكوته من المعاثر وفاعلى الإثم (متى ١٣: ٤١). وبذلك يعدّ الناس الباقين فى العالم لملكوته العتيد (رؤيا ٢٠: ١ - ٦ ، ٢تيموثاوس ٤: ١ ، ١كورنثوس ١٥: ٢٥).

(٥) وإن كان رؤساء الكهنة قد عصوا الله، غير أن ذلك لم يمنع محبته المطلقة من إعلان مشيئته لهم، لإفادة المخلصين الذين كانوا يعتمدون عليهم فى الهداية والإرشاد. ولكن كما كان هؤلاء الرؤساء يعظون الناس ولا يعملون بما يعظون به، هكذا كانوا ينطقون بنبوات عن المسيح، دون أن يتأثروا هم أو يفيدوا منها. مثلهم فى ذلك مثل بعض رجال الدين فى كل عصر ومصر.

(٦) أو بالحرى من الساعة ١٢ ظهراً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر بالتوقيت المعروف لدينا الآن، لأن الساعة الأولى من النهار كانت تقابل قديماً الساعة السادسة صباحاً بالتوقيت المعروف لدينا. وذلك باعتبار الساعة الأولى من النهار هى أول شروق للشمس، وشروقها كما نعلم، يكون حوالى الساعة السادسة صباحاً،

وذلك فى الشرق الأدنى، حيث تقع بلاد فلسطين (التى عاش المسيح فيها) وغيرهل من البلدان المجاورة لها.

(٧) إن هذا الظلام لم يكن نتيجة لكسوف للشمس (كما يقال)، إذ أن المسيح صلب فى اليوم الرابع عشر من الشهر القمرى، وفى هذا الوقت لا يحدث كسوف على الإطلاق، فضلاً عن ذلك فإن أطول كسوف كلى للشمس لا يستمر إلا بضع دقائق، كما أنه لا يحدث إلا بالتدريج. أما الظلمة التى حدثت عند صلب المسيح، فقد بدأت دفعة واحدة، وظلت ثلاث ساعات متتالية، انقشعت بعدها دفعة واحدة أيضاً.

وقد أشار إلى هذا الظلام كثير من القدامى فقال فليفون الفلكى فى القرن الثانى "إن الظلام الذى حدث عند صلب المسيح لم يحدث فى الكون مثله من قبل"، وقال ديونسيوس الأريوباغى، عندما شاهد هذا الظلام، "إما أن إله الطبيعة يتألم الآن، أو أنه يرثى لشخص يتألم" (الخريدة النفيسة جـ ١ ص ١١٤). وقد أشار إلى الظلام المذكور أيضاً ثلس المؤرخ الوثنى وترتوليانوس الفيلسوف المسيحى فى القرن الثانى*، كما أشار إليه الإمام الحافظ المؤرخ الإسلامى فى القرن الرابع عشر فى كتابه (البداية والنهاية جـ ١ ص ١٨٢).

(٨) إن عدم كسر ساقى المسيح لم يكن أمراً قضت به الظروف وقتئذ فحسب، بل كان أمراً معيناً بواسطة الله منذ الأزل. وقد أشار تعالى إليه قبل صلب المسيح بأكثر من ١٥٠٠ سنة فى رمز قديم. فقال لموسى النبى أن ينهى بنى إسرائيل عن كسر عظام خروف الفصح (خروج ١٢:٤٦)، الذى كان رمزاً إلى كفارة المسيح التى على أساسها تعبر الدينونة الأبدية عن المؤمنين الحقيقيين، كما عبر سيف الهلاك قديماً عن أبكار بنى إسرائيل على أساس دم الخروف المذكور. فقد قال الرسول «لأن المسيح أيضاً فصحنا قد ذبح لأجلنا. إذاً لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق» (١كورنثوس ٥:٧ و ٨)، أو بالحرى تعيّد بحياة طاهرة نقية لا أثر للشر فيها، إذ أن الخمير، كما يتضح من الكتاب المقدس، رمز إلى الشر الدفين فى النفس.

(٩) أما قول بعض المفسرين "إن المسيح مات بسرعة بسبب جهاده فى الليلة السابقة للصلب، وجلد الجنود له بعد القبض عليه"، فليس بصواب. لأنه وإن كان هذان الأمران يسببان الإعياء، لكن صراخ المسيح بصوت عظيم عندما كان معلقاً على الصليب (متى ٢٧:٤٩)، يدل على أنه كان وقتئذ فى كامل القوة والحيوية على الرغم مما أصابه من أذى ومن ثم فإن موته السريع كان راجعاً إلى تحمله آلام الكفارة القاسية كما ذكرنا - ومن هذا يتضح أن المسيح لم يمت كباقى الشهداء بسبب الصلب، لأن الموت لم يكن له سلطان عليه إطلاقاً، بل مات له المجد باختياره نيابة عنا، بسبب قيامه بالتكفير عن خطايانا.

(١٠) فضلاً عن أن الوحى الإلهى الصادق هو الذى أنبأ عن حدوث الظلمة والزلزلة نقول: (ا) إن هاتين الحادثتين تردان فى الإنجيل بكل اختصار بعيداً كل البعد عن المبالغة التى يلجأ إليها مؤلفو الروايات. (ب) إن الخبر بحدوثهما نشر بين الناس الذين عاصروا المسيح دون أن يعترض عليه واحد منهم. (جـ) إن اليهود الذين كانوا بجوار الصليب قرعوا على صدورهم نادمين (لوقا ٢٣:٤٨)، كما أن قائد المائة الرومانى شهد أن المصلوب كان بالحقيقة هو ابن الله (لوقا ٢٣:٤٧)الأمر الذى يدل على أن هاتين الحادثتين قد وقعتا فعلاً على مرأى منهم جميعاً، وأنهم تأثروا بهما تأثراً بالغاً.

---

* اقرأ: (١) Introduction to the Life of Christ, by Hill
(٢) Adam Clark's Commentary

(١١) «راعى الله» هو المعيّن من الله مباشرة لرعاية البشر. و «رجل رفقة الله» هو المتوافق مع الله كل التوافق، والواحد معه من الأزل إلى الأبد. لذلك لا يراد بهذا الشخص ملك من الملوك أو نبى من الأنبياء، بل يراد به المسيح دون سواه ـ وقد أشار المسيح إلى انطباق هذه النبوة عليه، فقال لتلاميذه عن نفسه «كلكم تشكّون فيّ فى هذه الليلة، لأنه مكتوب إنى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية» (متى ٢٦:٣١). كما قال لليهود «أنا هو الراعى الصالح، والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو حنا ١٠:١). كما قال عن نفسه أيضاً «أنا والآب واحد» (يو حنا ١٧:٢٢).

(١٢) وقد يكون المراد بكلمة «خطيئة» هنا أيضاً، «ذبيحة خطيئة». لأن الكلمة الأصلية تعنى خطيئة، كما تعنى ذبيحة خطيئة (خروج ٢٩:٣٦) ـ وهذه الذبيحة هى التى كانت تحمل على نفسها خطيئة الذين يقدمونها، ثم تحرق بأسرها كفارة عنهم. غير أن الفرق بين المسيح وبين هذه الذبيحة لا حد له، إذ فضلاً عن أنه هو الله متأنساً، فقد حمل على نفسه خطايانا فعلاً وكفّر عنها فعلاً، أما الذبيحة المذكورة فكانت لا تحمل على نفسها خطيئة الذين قدموها أو تُكفّر عنهم إلا رمزياً كما ذكرنا فى الباب الثالث.



الأبواب من السابع إلى التاسع

(١) «عبد الرب» اصطلاح كتابى يراد به الكائن الذى يتمم كل مقاصد الله التى لا حد لها، ويطلق هذا الإصطلاح على المسيح من الناحية الناسوتية، لأنه من هذه الناحية قام بالمهمة المذكورة خير قيام. ولا غرابة فى ذلك، فإنه فى ذاته هو «كلمة الله»، و«كلمة الله» هو وحده الذى يقوم بها.

(٢) لكن بوصفه رمزاً إلى المسيح كان يسمح له بالدخول مرة واحدة فى السنة إلى قدس الأقداس لتقديم دم ذبيحة الكفارة السنوية. إنما نظراً لأن ذلك كان مجرد رمز، كان يدخل إلى هذا المكان ويغلق الحجاب خلفه. وبعد أداء مهمته كان يخرج ويغلق الحجاب خلفه أيضاً، معلناً الوحى بهذا التصرف أن الطريق إلى الله كان لا يزال مغلقاً، إذ أن الشخص الوحيد الذى فتحه إلى الأبد هو المسيح. فمكتوب عنه أنه دخل مرة واحدة إلى الأقداس السماوية بدم نفسه، فوجد فداء أبدياً (عبرانيين ٩:١٢).

(٣) ليس هناك مجال للشك فى أن الحجاب قد شُق بأمر الله، إذ أن الزلزلة التى حدثت عند الصلب لم تكن لتشقه. لأنه كان مصنوعاً من القماش (خروج ٢٦:٣١). ولأن اليهود لا يشقونه، إذ لا فائدة لهم من شقه. ولو فرضنا جدلاً أن بعضهم شقه لسبب من الأسباب، لكان قد شقه من أسفل إلى أعلى، وليس من أعلى إلى أسفل كما حدث. أما تلاميذ المسيح ففضلاً عن أنهم لم يكونوا وقتئذ قد أدركوا الغرض الحقيقى من موت المسيح، حتى يشقوا الحجاب المذكور إعلاناً عن كفاية كفارته (مثلاً)، فقد كان للهيكل حراسه الذين يراقبونه، وكهنته الذين يخدمون فيه ليلاً ونهاراً ـ وكان عدد هؤلاء وأولئك لا يقل (كما يقول الثقاة) عن ٥٠٠ شخص فى أيام الأعياد، الأمر الذى كان يحول بين التلاميذ وبين شق الحجاب، لو كان قد تراءى لهم أن يشقوه لغرض من الأغراض.

(٤) فقد قال السير جيمز سمبسون (وهو أول من استعمل البنج كمخدر فى العمليات الجراحية)إنه عند

الموت الفجائى (كما كانت الحال مع المسيح) يتمزق شغاف القلب، فيتدفق الدم بغزارة إلى الغشاء المحيط به، وبذلك يمتنع القلب عن الخفقان. أما الدم فيمكث قليلاً فى هذا الغشاء، ثم يتحول بعضه إلى مصل (كالماء)، والبعض الآخر إلى خثارة دموية.

(٥) هناك فرق بين البر الشرعى وبين البر العملى. فالأول هو ما يحسبه الله لنا بفضل كفاية كفارة المسيح عند الإيمان الحقيقى به، أما الثانى فهو الأعمال الصالحة الخالية من النقائص، التى نقوم بها نحن المؤمنين بفضل تأثير الله فى نفوسنا. والبر الأول كامل كل الكمال وغير قابل للزيادة على الإطلاق بالنسبة إلى كل واحد منا، كما أنه هو الأساس الوحيد لقبولنا أمام الله (لأننا لا نستطيع بكل أعمالنا الصالحة أن نكفر عن خطيئة واحدة من خطايانا). أما البر الثانى فيختلف قدره من واحد إلى آخر منا، لأننا نحن الذين نعمله بأنفسنا. أما من جهة فائدته فإنه الأساس الذى عليه يعطينا الله ما يراه من مكافأة، بجانب التمتع بالقبول الأبدى أمامه على أساس كفاية كفارة المسيح.

(٦) لأن من يضع يده على كل من الإنسان والله، لكى يصالحهما معاً، يجب أن يكون غير محتاج إلى من يصالحه مع الله. كما يجب أن يكون هو ذات الله، وفى الوقت نفسه يجب أن يكون إنساناً. لأنه لا يعرف حق الله وجلاله سوى الله، ولا يعرف ضعف الإنسان وعجزه سوى الإنسان. وهذه الحقيقة لم تكن مدركة فى العهد القديم. إذ أنها لم تعلن إلا فى المسيح فى العهد الجديد، كما اتضح لنا مما سلف.

(٧) العقل البشرى (كما يرى العلماء) له ثلاث نواح : أولاً - العقل الواعى، وهو العقل الذى به نفكر ونريد عندما نكون فى حالة اليقظة. ثانياً - العقل السلبى وهو مستودع الغرائز والميول المكبوتة، وهذا العقل كثيراً ما ينفس عما فيه عندما نكون فى حالة النوم، أو عندما يكون العقل الواعى مقهوراً أو فى غفلة. وثالثاً - العقل الباطن وهو موطن قوى النفس ومواهبها، ويظهر أثره فى النبوغ والتسامى والاختراع عند بعض الأشخاص - ولعل العقل السلبى هو ما يسمى فى الكتاب المقدس «الإنسان العتيق» الذى يتصف بشهوات الغرور (أفسس ٤:٢٢). والعقل الباطن هو ما يسمى «الروح» التى يؤيدنا الله فيها بالقوى الروحية بواسطة الروح القدس (أفسس ٣:١٦ - ١٩) - أما الطبيعة الجديدة التى يعطيها الله للمؤمنين الحقيقيين فتدعى فى الكتاب المقدس «الإنسان الباطن، الذى يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه» (كولوسى ٢:١٠).

(٨) وقد أشار الوحى إلى أهمية العقل الواعى من الناحية الروحية أيضاً، فقال عن المسيح أنه فتح أذهان تلاميذه لكى يفهموا الكتب المقدسة (لوقا ٢٤:٤٥). وقال عن بولس الرسول إنه كان يصلى لكى تستنير عيون أذهان المؤمنين حتى يعلموا ما هو رجاء دعوة الله (أفسس ١:١٨) - والفهم واستنارة الذهن خاصان بالعقل الواعى.

(٩) «الحجاب» هنا، هو ما يحجب النفس عن الله، وما يحجب النفس عن الله، هو الطبيعة البشرية العتيقة التى لا تتوافق معه فى شئ من صفاته الأدبية السامية. فاختراق الحجاب إذاً هو الانصراف عن الجسد بما فيه من شر أو خير (إن كان فيه ثمة خير)، لكى تكون النفس تحت تأثير الله دون سواه.

(١٠) وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة فى بعض الذبائح، التى كانت ترمز إلى المسيح فى العهد القديم. فذبيحة المحرقة التى كان يتطوع صاحبها بتقديمها لله لمجرد إكرامه وتمجيده دون الارتباط بخطيئة ما، كانت مراسيمها تدل على الفرح (لاويين ١). أما ذبيحة الخطيئة أو الإثم، التى كان الخاطئ يقدمها كفارة عن نفسه فكانت مراسيمها تدل على الحزن (لاويين ٤)، الأمر الذى كان ينبئ منذ القديم عن اقتران فرح المسيح لتحقيق

مقاصد الله وتمجيده، مع حزنه لتحمل قصاص الخطيئة وشناعتها.

(١١) وطبعاً لا يترتب على ذلك أن يكون أبناء الأول غير مقبولين لدى الله، وأن يكون أبناء الثانى مقبولين لديه. لأن هذا القبول يتوقف أولاً وأخيراً على الاستعداد القلبى للاقتراب من الله والرغبة فى التوافق معه وإكرامه. ولما كان هذا الاستعداد عملاً شخصياً، لذلك فهو غير مرتبط بأى جنس من الأجناس، أو شعب من الشعوب. أما السبب فى أن الله خص أبناء الأول بالبركات الأرضية، وأبناء الثانى بالبركات الروحية (كما جاء فى التوراة) فلا يمكن الجزم به. لكن من المحتمل أن لولادة الأول بالقوة الجسدية الطبيعية، وولادة الثانى بقوة الله بعد فناء القوة المذكورة، شأناً فى هذا الموضوع، والله أعلم بسرائر الأمور.

(١٢) ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن الانغماس فى الخطيئة يزيد من الرغبة فيها، فهى كالماء المالح الذى كلما شرب المرء منه ازداد شعوراً بالعطش. وقد أشار الحكيم إلى هذه الحقيقة فقال «العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع. كل الأنهار تجرى إلى البحر، والبحر ليس بملآن» (جامعة ٧:١). ومن ثم فإن السبيل إلى إطفاء الشهوة، هو الانصراف القلبى عنها وتكريس الحياة بأسرها الله.





الفهرس

أسماء الكتب التى اقتبس المؤلف منها

(ما رآه متناسباً مع بحثه، اعترافاً منه بفضلها)

أولا : كتب مسيحية

١ - الكتاب المقدس وتفسيره .... لداربى وكلى وبنكرتن وكانون جاردنر

٢ - نظام التعليم فى علم اللاهوت القديم دكتور جيمز انس

٣ - تجسد الكلمة .... القديس أثناسيوس الرسولى

٤ - رب المجد .... لجنة من رجال الدين المسيحى

٥ - الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة الأسقف ايسوذوروس

٦ - تاريخ الآباء فى القرون الثلاثة الأولى .... دكتور أسد رستم

٧ - الكنيسة لغاية القرن العشرين مستر رولند بسنتن

8 - History of Doctrine, By Dr. Shedd
9 - Outlines of Christian Doctrine, By Dr. Moule
10 - Summary of Christian Doctrine, By Dr. Erdman
11 - Christian Doctrine, Book Club
12 - Outlines of Theology, By N.Y. Armstray
13 - What We Must Believe, By Kupper, Th. M., Ph. D. Litt. D.
14 - The Changed Life } By Dr. Drammond
15 - Phycology in the Service of Religion } By Dr. Drammond
16 - The Fundamentals, By Dr. Philip
17 - Happy Christian, By An Unknown Christian
18 - The Glory of the Cross, By Dr. Samuel
19 - The Dictionary of the Bible
20 - The Chistian Faith, By Dr. Meshler

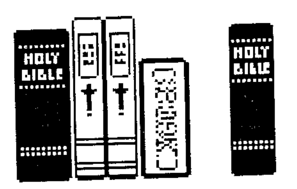
ثانيا : كتب فلسفية

١ ـ الفلسفة اليونانية .... } للأستاذ يوسف كرم
٢ ـ الفلسفة فى العصر الوسيط ....
٣ ـ الفلسفة فى العصر الحديث .... للأستاذ يوسف كرم
٤ ـ الفلسفة الإغريقية .... } دكتور محمد غلاب
٥ ـ مشكلة الألوهية ....
٦ ـ قصة الفلسفة اليونانية .... } دكتور أحمد أمين
٧ ـ قصة الفلسفة الحديثة .... ودكتور زكى نجيب محمود
٨ ـ دراســـــــة فى النظم والمذاهب الفلسفية .... دكتور لويس عوض
٩ ـ فلسفة المحدثين والمعاصرين .... دكتور أبو العلا عفيفى

ثالثا : مراجع عامة

١ ـ التاريخ الكامل .... العلامة ابن الأثير الجزيرى
٢ ـ تاريخ مصر القديمة .... دكتور حسن سليم
٣ ـ أديان العالم الكبرى .... الأستاذ حبيب سعيد
٤ ـ محاضرات فى الأدب المسرحى .... دكتور عبد الواحد
٥ ـ عقائد الأديان .... للأستاذ محمد أبو زهرة
٦ ـ نظرات فى العقائد المسيحية .... للأستاذ مصطفى سعداوى
٧ ـ العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية للأستاذ محمد طاهر
8 - Hindu Religion, Customs & Manners, By Thomas
9 - Hindu Religion & Legends, By Thomas
10 - The Religion of Budism, By Prett
11 - World Faith, By Ruth Cranston
12 - Eastren & Westren Religion, By Redhakrishman

13 - The Golden Bough, By Sir James Freezer
14 - The Origion of Christianity
15 - Encyclopedia Britanica



كتب خاصة بالمؤلف

غفران الذنوب... قضية كل إنسان يشعر بثقل على ضميره بسبب ما ارتكب من المعاصي ضد الله، بل هي قضية الجميع إذ الجميع قد أخطأوا. وقد بحث الكثيرون عن هذا الغفران بشتى الطرق والوسائل؛ كل بحث في اتجاه. لكن يبقى السؤال: ما هو الطريق الذي وضعه الله نفسه لغفران الذنوب؟ وهل هذا يتناسب مع المنطق البشري؟ وما هو رأي الفلسفات المختلفة في هذا الطريق؟ وهذا ما بحثه الكاتب في هذا الكتاب؛ مقدماً بالحجة، ومن الكتاب المقدس، فكر الله عن الخطيئة وأجرتها وغفرانها وأساسه.